حلمى النمنم

سيد قطب وثورة يوليو



حلمي النمنم

سيد قطب وثورة يوليو

ميريت للنشر والمعلومات
القاهرة ١٩٩٩

مختارات ميريت
إشراف : حسنين كشك

حلمى النمنم

سيد قطب وثورة يوليو

القاهرة ١٩٩٩
ميريت للنشر والمعلومات
٦ ب شارع قصر النيل
ت/ فاكس: ٥٧٥١٥٠٠

المدير العام: محمد هاشم

الغلاف إهداء من الفنان :
محمد المصباغ

رقم الإيداع: ٩٩/١١٥٥٩

الترقيم الدولى: 977-5938-09-0

سيد قطب وثورة يوليو

حلمي النمنم

الفهرس

مقدمــة

لا أذكر متى استمعت لأول مرة إلى اسم الناقد والباحث الإسلامى سيد قطب، وربما انتبهت إليه بمحض المصادفة، فقد أقيم معرض للكتاب بجامعة عيش شمس، وكنت طالبا بها، داخل المعرض كان هناك كتاب عنه، ولم يشدنى العنوان ولا الموضوع، لكنى وجدت على الصفحة الأخيرة فى الغلاف، هذه العبارة منسوبة إلى سيد قطب "إن كنت سجنت بحق فأنا أرتضى حكم الحق، وإن كنت سجنت بالباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل.."، وفهمت أنه قالها حين عرض عليه أن يكتب التماسا إلى الرئيس جمال عبد الناصر بطلب العفو، بعد صدور الحكم عليه بالإعدام وأنه وُعد بالعفو، والخروج إلى الحياة العامة، بل وأن يشغل منصبا رفيعا لكنه أبى وقال تلك المقولة!!

كان ذلك الموقف، وتلك العبارة تكفينى منه، وملأتنى احتراما ومهابة له.. كنت فى ذلك الوقت أدرس الفلسفة اليونانية، وعلى الفور قارنته بالفيلسوف العظيم سقراط، ووضعته إلى جواره وربما فى مرتبة أعلى، فقد رفض سقراط عرض تلاميذه بالهروب من السجن وفضل تجرع السم والموت، احتراما لحكم المحكمة الذى صدر ضده، ولأنه لا يليق به أن يهرب!! أما سيد قطب فلم يكن مفروضا عليه أن يهرب، أو أن يمتهن القانون، ولكن يخرج من الباب الرئيسى، وفى وضح النهار، وعلى مرأى الجميع، فقط يكتب عددا من كلمات الالتماس والاستعطاف، ولكنه وجد أن حياته أهون من أن يكتب كلمات هو غير مقتنع بها!!

وإن كان موقف سقراط ضمن له أن يكون موضع فخار وتقدير الدارسين والكتاب عبر التاريخ، فإن عبارة سيد قطب ضمنت له مكانة عزيزة فى ضميرى وفى نفسى، تفوق مكانة أى كاتب أو مفكر مصرى وعربى، قديم أو معاصر..!!

وهكذا تكون لدىّ الدافع لأن أقبل على مؤلفات سيد قطب، وقتها كانت "الجماعة الإسلامية" بالجامعة توزع تلك المؤلفات على نطاق واسع وبأسعار زهيدة، نصف جنيه للكتاب أو جنيه على الأكثر!! وبسرعة صارت لدىّ معظم مؤلفات سيد قطب، وقرأتها

جميعا، ووجدت أنها كتابات انفعالية وعاطفية فى المقام الأول، إنشائية فى الكثير منها، إلا أن ذلك لم يهز مكانته داخلى، والتى كانت تزداد وتتألق يوما بعد يوم، فالموقف الذى اتخذه برفض الالتماس وطلب العفو، يغنيه عن أى مؤلفات أو كتب وأفكار، وكم من كتاب ومفكرين فى مختلف الثقافات واللغات كانوا "كبارا" فى مؤلفاتهم وأفكارهم التى قدموها والآراء التى طرحوها، لكنهم كانوا "صغارا" فى مواقفهم، ومسلكهم الخاص والعام!!

ولما أنهيت دراستى الجامعية الأولى، قررت أن تكون أفكار سيد قطب موضوعى لرسالة الماجستير، ونجحت فى إقناع المشرفين بذلك، الذين رأوا أن لا علاقة لسيد قطب بالفلسفة وبدأت أبحث فى مؤلفاته لإعداد الخطة العلمية، وخطة البحث، وكانت المفاجأة الصاعقة.

إن العبارة السحرية، الآسرة لى، حول حكم الحق وحكم الباطل، لم يقلها سيد قطب. وليس لها أساس من الصحة، ولكنها مدسوسة عليه ومنسوبة إليه، اخترعها بعض مريديه. وروجوا لها، ووضعوها كشعار جاذب ولاقط.. وفقدت كل حماستى للموضوع ولسيد قطب، ولمت نفسى فإن كان هناك من "دس" تلك العبارة و"دلس" بها على الرأى العام، فما كان يجب أن أتقبلها بسرعة، قبل أن أختبرها، ولكنه كان درسا فى الحذر من الشعارات والكلمات البراقة والمنمقة إلى هذا الحد!!

غير أنى وجدت سيد قطب بعد ذلك أمامى فى طريقى، حين اشتعلت حوادث الإرهاب وما رافقها من تكفير عدد من الكتاب والمثقفين، الأحياء منهم والأموات، وكان علىَّ أن أتابع كل هذا – على الأقل بحكم عملى الصحفى – وكنت أجد سيد قطب حاضرا كشبح خلف تلك الأحداث، فالذين حملوا السلاح ضد الآمنين، وقتلوا الأطفال مثل "شيماء" فى القاهرة والأقصر والمنيا وأسيوط ودمياط وغيرها، لم يكونوا بعيدين عن نطاق تأثير أفكاره وكلماته.. والذين أخذوا على عاتقهم واجب وفريضة اضطهاد الكتاب بالتكفير والتفريق عن الزوجات واقتيادهم إلى ساحات المحاكم "ومرمطتهم"، أمام الرأى العام، لم يكونوا برءاء من تلك الأفكار والآراء. والذين أطلقوا الرصاص على فرج فودة، والذين حاولوا "ذبح" نجيب محفوظ لم يكونوا خارج نفوذ هذه الأفكار، رغم أنهم أميون لم يقرأوا كلمة واحدة!!

لم تكن أفكاره خلف هؤلاء الإرهابيين والقتلة فحسب، بل كانت فى ذهن هؤلاء الذين قالوا لنا عن أنفسهم إنهم "معتدلون" وأنهم لا يرفعون السلاح على المجتمع فالذين

دخلوا انتخابات مجلس الشعب وكلما سألهم سائل عن برنامجهم للتعامل مع قضايا المجتمع ومشكلاته، ردوا بتلك العبارة الفضفاضة "الإسلام هو الحل" .. وكان – سيد قطب – هو صاحب تلك النظرية، لا برنامج، لا خطط، بل الحكم أولا ثم يأتي كل شئ، بعد ذلك وعلى مهل .. ففى ظلال القرآن وفي تفسيره لسورة الأنعام يقول سيد قطب – صفحة ١٠١٥ – "إن الجاهلية التى حولنا كما أنها تضغط على أعصاب بعض المخلصين من أصحاب الدعوة الإسلامية فتجعلهم يستعجلون خطوات النهج الإسلامى، كذلك هى تتعمد أن تحرجهم فتسألهم: أين تفصيلات نظامكم الذى تدعون إليه؟ وماذا أعددتم لتنفيذه من بحوث ومن مشروعات؟ وهى فى هذا تتعمد أن تعجلهم عن منهجهم، وتجعلهم يتجاوزون مرحلة بناء العقيدة وأن يحولوا منهجهم الربانى عن طبيعته، التى تتبلور فيها النظرية من خلال الحركة. ويتحدد فيها النظام من خلال الممارسة".

وحين صدر القانون ٩٣ لسنة ١٩٩٥، والذى كان يفرض قيودا شديدة على الصحفيين، ويفتش داخل ضمائرهم وحول كل كلمة تكتب، ويجرّمهم بالسجن إذا لم ترق تلك النيات والضمائر لأى شخص كان. واجتمعنا فى نقابة الصحفيين لنناقش هذا القانون ونعلن رفضنا له، ثم وقفت "زميلة" توبخنا لأن هذا القانون ليس جديدا فى نظرها، فقد أعدم سيد قطب، ولم يحتج الصحفيون ولم يغضبوا .. ورغم أن معظمنا لم يكن قد عايش تلك الأيام، بل ولم يكن قد ولد وقتها، فإن "الجميع" الذين عاصروا تلك السنوات وعايشوها والذين لم يعايشوها فضلوا الصمت .. وآثروا عدم الرد!!

والحقيقة أن النهاية المأساوية لحياة سيد قطب – الإعدام – لم تجعل له مريدين فقط، ولكن فرضت مهابة خاصة له حتى لدى خصومه الفكريين، مما حال دون دراسته نقديا لفترة طويلة [1]، ولنتأمل فقط كمية الصفات والألقاب التى منحت له لنتبين ذلك. فهو "الشهيد الغائب" لدى محمد على قطب، و"الشهيد الحى" لدى د. صلاح الخالدى. وهو لدى زينب الغزالى "الإمام الفقيه والمجاهد الكبير الشهيد" وهو أيضا "الأستاذ الإمام .. مجاهد في سبيل الله .. مفسر لكتاب الله. مجدد ومجتهد .." وهو أيضا "زعيم ومصلح وكاتب إسلامى بل من أعظم الكتاب الإسلاميين، ووارث محمدى" وهو كذلك "مفسر القرآن. الداعية الإسلامي. الحكيم فى فهمه وبيانه وصفاء منهجه. وقوة حجته. المتمسك بدينه. والواثق بنصر الله". وهو لديها أخيراً "الإمام المجتهد، المفسر" وربما يكون للمريد وللمحب المبرر والعذر فى ألا يرى أى قصور أو خطأ فى إمامه ومرشده، فعين المحب دائما

---

(١) ظهرت في السنوات الأخيرة بعض الدراسات تحرر أصحابها من ذلك الشعور.

كليلة عن رؤية عيب أو عيوب المحبوب – لكن فى حالة – سيد قطب، كان غير المريدين يفعلون الشئ نفسه، ولنتابع – مثلا – أحكام وأوصاف د. حسن حنفى فى إحدى دراساته عن سيد قطب". فى أتون الحركة الوطنية، وفى معترك النضال السياسى وهى البيئة التى خرج منها أيضا تنظيم الضباط الأحرار، كان الإمام الشهيد محور الحياة الوطنية ونقطة التقاء بين التيارات السياسية وحلقة وصل بين القوى الاجتماعية. فكان على صلة وطيدة بالتنظيمات الماركسية "حدتو" والوطنية "مصر الفتاة" والوفد "الطليعة الوفدية" .. "ولا يكتفى د. حنفى بذلك – وهى معلومات غير دقيقة – بل غير صحيحة – ولكنه يضيف أيضا "ظهر سيد قطب معبرا عن آمال الحركة الوطنية التى عبرت عنها ثورة يوليو ١٩٥٢، وزاد عليها انبثاقه عن الإسلام وخروجه من تراث الأمة.."

ولكن كان هناك من لم يستسغ آراء سيد قطب، كنت أتحدث مرة مع الشيخ محمود شاكر المحقق والمدافع القوى عن اللغة العربية وتراثها، وأثرت اسم سيد قطب، فانطلق الشيخ شاكر ليقول كلمات وصفات قاسية فى حقه، أهونها "جاهل كبير.." أما "نجيب محفوظ"، فلم يخف كراهيته له، فى "المرايا". حيث خصص له فصلا، جعل اسمه فيه عبد الوهاب إسماعيل"، قال عنه "استقر فى نفسى رغم صداقتنا نفور دائم منه" وتحدث عن جانب انتهازى فى شخصيته وعن تعصب شديد ضد غير المسلمين وقال أيضا "لم أرتح أبدا لسحنته ولا لنظرة عينيه الجاحظتين الحادتين".

ثم حدث أننى كنت أراجع اعداد مجلة الرسالة، سنة ١٩٥٢، لألتقى مباشرة بآراء ومقالات كبار الكتاب والأدباء قبل ٢٣ يوليو، وبعدها مباشرة، وكانت المفاجأة أننى وجدت مقالات سيد قطب بعد ٢٣ يوليو فى "الرسالة"، وفى أحدها كان يطلب أو يحرِّض اللواء محمد نجيب وضباط مجلس قيادة الثورة على منع الإذاعة المصرية من إذاعة أغنيات محمد عبد الوهاب ومعه فريد الأطرش ومحمد فوزى وليلى مراد وآخرون وأخريات من الفنانين والمطربين ولا يعبأ بأن لهم جمهورا من المستمعين، كانت "أم كلثوم" فى تلك الفترة ممنوعة، حيث منعت الإذاعة المصرية إذاعة أغنياتها بدعوى أنها كانت مطربة القصر والملك .. وكنت أتصور أن يكتب الكاتب مطالبا بالإفراج عن صوت "كوكب الشرق"، أو أن ينوه بأنها ممنوعة، أو يتساءل عن سر هذا المنع .. وإن لم يكن فليصمت"، أما أن يتخذها تكئة ويريد أن يجعلها قاعدة تسرى على الجميع، ويطالب بمنع الآخرين، فهذا ما لم أتفهمه .. ووجدت أنها دعوة فى جوهرها وأساسها إلى تحريم الفن، حتى لو لم تصدر تلك الدعوة مكشوفة وصريحة، بل جاءت مبطنة بادعاءات الثورية، والحفاظ على نجاح الثورة،

واستمرارها. وتمتد الدعوة من الفن إلى الكتاب والشعراء، وإذا بسيد قطب يطلب أيضا إلى "الثوار" منع عدد من الكتاب والشعراء من "الإنشاد للعهد الجديد"، وهى دعوة لاضطهاد الكتاب والحجر عليهم، والتدخل فى أعماقهم، والتفتيش عن ضمائرهم ونياتهم و...

وقررت أن أدرس تلك الشخصية الملتبسة" . ومن النقطة الأخيرة، علاقته بهؤلاء الثوار، والتى بدأت فى صفوفهم وفى خندقهم، مبشرا بهم وداعيا لهم، ومحرضا إياهم ضد معظم القوى السياسية .:. ثم حدث الفراق، والخلاف والعداء والتربص، ثم كان أن حوكم فى سنة ٥٥ وسجن حتى ٦٤ ثم ألقى القبض عليه فى ٦٥ وحكم عليه بالإعدام فى ١٩٦٦ ونفذ الحكم فى نفس السنة.

ومن ثم كان هذا الكتاب..

حلمى النمنم

❖

(١)

من "شمهورش" إلى مكتبة القرآن

في قرية "موشا" بأسيوط كانت البداية.

وفي بدايات القرن العشرين - التاسع من أكتوبر ١٩٠٦ - كان الميلاد. بداية سيد وميلاده.

كان البؤس حاكما للقرية المصرية، الفقر غالب والجهل سائد، والاحتلال الإنجليزي جاثم بكل جبروته فوق البلاد، والاستعماري المتعجرف "لورد كرومر" هو الحاكم الفعلي لمصر، وفي تلك السنة - ١٩٠٦ - وقعت حادثة دنشواي، التي ألهبت الشعور الوطني والإنساني ضد الإنجليز، وأدخلت البلاد في حالة تهيؤ طويل للثورة ضد الاحتلال.

كان حال قرية "موشا" [١] مختلفا ومتميزا، قياسا على سائر القرى والأرياف - كما يصفها سيد قطب نفسه - "كان زمام أطيان القرية أكبر من عدد الأيدي العاملة فيها، فهي قرية ثرية بالقياس إلى القرى المجاورة .. ولم تكن الملكيات الكبيرة التي تشبه الإقطاع معهودة فيها، فأكبر ملكية زراعية لم تكن تتجاوز المائتي فدان" وقل أن يكون في القرية فرد أو بيت لا يملك قطعة أرض صغيرة أو كبيرة" [٢].

وبالطبع انعكس هذا الوضع على أهالي القرية وعلاقاتهم الخاصة "توزيع الأراضي

---

(١)"موشا" .. هي القرية القديمة، اسمها القبطي "موشة"، وفي معجم البلدان "الموشية" .. قرية كبيرة جامعة في غرب النيل من الصعيد بمصر، سوفي الانتصار "موشة"، وهي بجميعها على قريوص أي أن مبانيها واقعة على مرتفع من الأرض، يحيط به قريوص، أي حائط برصيف مبني بالطوب الأحمر والمونة، يقي بنيانها من تأثير مياه ملقة أسيوط، أي حوض الري وقت فيضان النيل.. ووردت في قوانين ابن مماتي، وفي تحفة الإرشاد "موشة" من أعمال السيوطية، وفي تاريخ ١٢٣٠ هجرية برسمها الحالي "راجع محمد رمزي. القاموس الجغرافي للبلاد المصرية..". الناشر هيئة الكتاب. ط ١٩٩٤. القسم الثاني. الجزء الرابع.

(٢)راجع .. سيد قطب. طفل من القرية. صفحة ١٥٧. طبعة دار الشروق. بدون تاريخ.

الزراعية على هذا النحو كان يقرب الفوارق بين الطبقات، ويخلق حالة من الألفة الشخصية في صلات الناس بعضهم ببعض [1] .."

ومن ثم كانت النتيجة النهائية لكل هذا أن مستوى المعيشة كان مرتفعا قليلا أو – على الأقل – لم يكن متدنيا فلم يعرف أهل القرية الفقر المدقع الذى عايشته قرى أخرى كثيرة" هو بالقياس إلى جهات أخرى كثيرة مستوى معقول، تبعا لحسن توزيع الملكية الزراعية – إلى حد ما – فأفقر بيت يذوق اللحم كل أسبوعين، وغالبا كل أسبوع (..) والسمن كذلك معروف فى البيوت جميعا، يخلطه بعضهم بالدهن كما يخلطه القليل النادر من المسيحيين فى القرية بالزيت، ولكنه يستخدم فى الطعام على العموم [2] ..، ولم يكن هذا فقط وجه تميز القرية بين القرى الأخرى ولكن كانت القرية معروفة بالثراء .. كما عرفت بالرقى نظرا لبناء بيوتها، ونظافة سكانها، بالقياس إلى القرى المجاورة، وإن تكن هذه النظافة حين ينظر إليها بعين المدينة تبدو قذارة مزعجة [3] .

وإذا كانت القرية متميزة بين القرى الأخرى المحيطة، فإن سيد قطب نشأ فى أسرة ذات وضع متميز داخل تلك القرية".. نشأ فى أسرة ليست عظيمة الثراء، ولكنها ظاهرة الامتياز، كانت فى وقت من الأوقات عظيمة الثروة، ولكنها توزعت، وتضاءلت الثروة بالميراث [4] .

ويحتل والده الحاج قطب إبراهيم مكانة خاصة داخل تلك العائلة "صار عميد الأسرة المكلف بحفظ اسمها ومركزها فى الوقت الذى لم ينله من الميراث إلا نصيب محدد، لا ينهض بما كانت تنهض به ثروة الأسرة مجتمعة على حين لا يستطيع أن ينقص شيئا من تكاليف المظهر فى الريف .. وكان هو بعد هذا متلافاً مضيافاً [5] .

وحقق الوضع البارز للوالد داخل الأسرة حيثية خاصة بين أهل القرية، جاءت بالتأكيد بسبب الثروة، ويضاف إلى ذلك سبب سياسى وثقافى". إذ كان من قراء الصحف مشتركا فى صحيفة يومية، وعضوا فى لجنة الحزب الوطنى بالقرية.

كانت الوالدة هى الأخرى من أسرة مماثلة أو أعرق، وقد جرى على أسرتها ما جرى

---

(١)سيد قطب. المرجع السابق، ص ١٥٧.

(٢)سيد قطب ، المرجع السابق، ص١٥٨.

(٣)سيد قطب – المرجع السابق. ص١٥٩.

(٤)سيد قطب المرجع السابق ص ١٠٨.

(٥)سيد قطب المرجع السابق ص ١٠٨.

على أسرة الحاج قطب، ولكن زادت أسرة الوالدة تميزا، إذ أن اثنين من أخواله كانا قد أوفدا إلى الأزهر في القاهرة، فحقق ذلك للأسرة تميزا علميا ودينيا بجانب الوجاهة الريفية!

ويبدو أن الوالدة كانت، على المستوى الشخصي، "متنورة"، وقوية .. حدث أن أصيب طفلها "سيد" بحالة مرضية، فقد كان يلعب وأصيبت مفاصل عنقه، فلم يعد بإمكانه أن يحرك رقبته إلا في ناحية واحدة، وهي حالة يقتضي علاجها بعض الوقت، ولأن الطب لم يكن متقدما هناك، ولا الناس كانوا يلجأون إلى الأطباء في مثل هذه الأمور، لذا عولج سيد ببعض الوصفات الطبية، التي فشلت في أن تحقق الشفاء، وتعيده صحيحا كما كان. وكان في القرية "مجذوب" من هؤلاء الذين ينتشرون في الريف – وشوارع العاصمة الآن وميادينها – ويعتقد الأهالي أنهم "مبروكون" ويمنحونهم من خيالهم مواهب وقدرات خارقة، مثل القدرة على "علاج وشفاء" بعض الأمراض المستعصية. وهكذا ذهبت إحدى السيدات إلى والدته تقدم لها اقتراحا محددا، يمكن أن يؤدي إلى شفاء الابن ".. واحد من العائلة، يتبع خطوات الشيخ، ويعرف أين يبيت ويضع الولد بجانبه ويتركه للصبح، فيصبح في عافية!" [1].

رفضت الأم هذا الاقتراح، ونبذت تلك الخرافة قائلة لهذه السيدة "لا .. لا .. وهل أنا جننت حتى أبيت ولدي جنب المجذوب؟! الأمر لله والكائن في علمه يكون!" [2].

ولا تفارق سيد قطب، وهو يحكي سيرته، ريفيته على بساطتها وما تحمله من مواريث أقرب إلى "العقد" الفولكلورية .. حيث يثبت أن هذا الوضع "المتميز" جعلهم موضع غيرة من الجميع، بل ما فوق الغيرة أيضا "هم كانوا محسودين . محسودين على أشياء كثيرة وبخاصة مستوى معيشتهم، وهذا ما يثير أعظم الحسد في القرية، ولا يعادله شئ من مظاهر النعمة الأخرى، فيكفي أن يطلع الناس على كمية اللحم التي تدخل البيت، وعلى كمية السمن التي تستهلك فيه، على الفاكهة وسواها مما لا يتمتع به إلا بعض الناس حتى تثور أحاسيس الحسد في نفوس العدد الأكبر من القرويين. وهم جد معذورين [3].

في هذه البيئة وفي تلك الأسرة نشأ وعاش سيد قطب سنواته الأولى أو المرحلة الأولى من عمره.

---

(١)سيد قطب. طفل من القرية. ص١٤

(٢)المرجع السابق ص١٥.

(٣)المرجع السابق ص ٧٢، ٧٣.

أما هو فلم يكن مجرد طفل عادى، أو فرد داخل الأسرة، بل كانت لـه منزلة ومكانة "متميزة" داخل الأسرة "المتميزة" بين أسر القرية، التى هى بدورها "متميزة" بين القرى..!! "كان مدللا بعض الشئ، لأنه وحيد أبويه بجانب بنتين هو أوسطهما [١] " ورغم أن لسيد قطب شقيقا آخر يكبره "بجيل" إلا أنه لا يذكره سوى مرتين، ويضعه فى إحداهما فى موقف لا يشرف ذلك الشقيق، ويتجاهل تماما زوجة والده، والدة ذلك الشقيق، لا يذكر هل كانت على قيد الحياة أم متوفاة؟! وهل تزوج والده من والدته بغرض الإنجاب؟! أم أن هناك أسبابا أخرى اجتماعية وإنسانية. وتساؤلات أخرى كثيرة يسكت عنها سيد قطب وينفيها بالصمت ويلغيها بالتجاهل!! ويبدو أن الأسرة كانت تتطلع إلى أن يكون لديها "ولد" آخر غيره ".. كانت أمه تتطلع أن تأتى له بشقيق يسنده ويؤاخيه، وكان هو يلتقط هذه الأمنية فيتمناها، وإن لم يكن لها فى نفسه معنى حقيقى. ثم سمع الله دعاء الأم ودعاء صديقاتها" [٢] ، وأنجبت الأم" .. طفلا ناميا، جميل الطلعة، فزاد ذلك فى سرور الأسرة كلها وأكمد كثيرا من خصومها الذين لا يودون لها الخير والنمو [٣]..".

ولا يحدثنا عن كنه هؤلاء الخصوم، ونوعية الخصومة، ودوافعهم، ويتركنا نتساءل هل هؤلاء الخصوم هم أنفسهم "الحساد" الذين يغيرون من سعة المعيشة، أم هم غيرهم. وإن كان المعنى أن الخصم غير الحاسد.!!.

لم يقدر للمولود أن يحيا، فقد توفى بعد أسبوع من ولادته، لأن عملية الولادة تعرضت للتلوث، وأصيب الطفل بالتيتانوس، ولم ينتبه أحد إلى ذلك، فقد حاولوا علاجه على طريقة المشايخ وأولياء الله، لكن المرض كان قد استشرى فى الجسد الوليد، ورسخت وفاته "تميز" سيد، الطفل الوحيد للأم..!! وعومل معاملة خاصة جدا "لم يكن ينزل ليلعب فى الشوارع ويجوب طرقاتها كالأطفال، حفظا لملابسه النظيفة من القذارة، وحماية له من "التلوث" بأخلاق أولاد القرية وألفاظهم البذيئة".. [٤]، وحماه ذلك من مظاهر القسوة التى يعامل بها الطفل داخل الأسرة، ربما حتى يومنا هذا "نشأ نشأة معينة ليس الضرب إحدى وسائل التربية فيها [٥]".

---

(١)سيد قطب. طفل من القرية. ص ١٩.

(٢)المرجع السابق ص ٩١.

(٣)المرجع السابق ص ٩٢.

(٤)المرجع نفسه. ص ٢٥.

(٥)المرجع السابق. ص ٢٤.

لم تجبره الأسرة على شئ لا يريده ولا يهواه، وكان وهو طفل موضع احترام الأسرة وتقديرها، فقد أدخل المدرسة فى سن السادسة ولم يدخل كتاب القرية، لكن شيخ الكتاب رجا الحاج قطب أن يبعث إليه بولده، وأخذ الحياء الوالد، وذهب سيد إلى الكتاب، وبعد اليوم الأول لم يعجبه الكتاب مقارنا بالمدرسة من حيث نظافة المكان، وأسلوب التعامل "امتلأت نفسه اشمئزازا من كل ما حوله وأحس هناك بغربة مريرة ذليلة، وحينما عاد إلى المنزل كان قد صمم على ألا يعود أبدا إلى هذا المكان القذر، مهما أصابه من التهديد والتبكيت، وأسرّ بهذه الرغبة الملحة إلى أمه [1].

وكان أن احترمت الأسرة رغبته وقراره وترك الكتاب نهائيا وعاد إلى المدرسة كما كان الطفل معجبا بالمعلمين فى المدرسة .. وتحديدا بملابسهم وبأسلوبهم التربوى مقارنا بملابس وأسلوب شيخ الكتاب "كان يكن للأفنديات نوعا من الشعور يشبه العبادة [2].

حرص "سيد" على ان يحفظ القرآن الكريم، حتى لا يكون قد خسر الفائدة التى كان سيجنيها من الكتاب "وإنه ليرهق نفسه وصحته المرهقة [3]" بالسهر للحفظ، وأخيرا كان قد أتم حفظ كتاب الله كله، وهو فى العاشرة.

انتقل الوضع الخاص الذى كان يلقاه داخل الأسرة – لا يذكر لنا شيئا عن أختيه – إلى المدرسة وبين أقرانه "كان معروفا بأمانته فى المدرسة" [4]، ولهذا السبب فإن "الأفنديات" كانوا يعطونه المفتاح ليذهب إلى مقر إقامتهم بالقرية ليحضر لهم بعض الأشياء ... وبالإضافة إلى الأمانة فقد عرف بالجرأة "كان جريئا بعض الشئ على ناظر المدرسة ومدرسيها وكان متفوقا فى دروسه، وكان قبل كل هذا ابن رجل مضياف متنور بعض الشئ .. كان جريئا على الأفنديات" [5].

لكل هذه الأسباب والحيثيات تكون لدى الطفل سيد شعور مبكر بذاته، فمنذ بلغ العاشرة وحفظ القرآن، كف عن أن يعد نفسه طفلا، بل رجلا بين الرجال، وأخذ يتشبه بالرجال ويسلك مسلكهم، واعتنق أهم مظهرين للرجولة فى نظره وفى القرية" كان يجتازشوارع القرية بعد العشاء، فلقد أخذ يصلى فى المساجد تشبها بالرجال (..) فما يليق

(١) سيد قطب. طفل من القرية. ص ٣٤.

(٢) المرجع نفسه ص٣٨.

(٣) المرجع السابق ص ٣٥.

(٤) المرجع السابق ص ٣٩.

(٥) المرجع السابق ص ٥٣.

أن يترك الصلاة الجامعة مع الرجال، كما بدأ يسهر ويتأخر فى السهر حتى ليصل فى بعض الأحيان إلى الساعة العاشرة أليس رجلا [1].

كانت المسألة سهلة وبسيطة فى الأولى، أن يصلى جماعة كما يفعل الرجال داخل المسجد، وهذه لن ترهقه، أما الصعوبة فكانت فى الثانية وهى أن يمشى ليلا والشوارع مظلمة، وفى الظلام تظهر "العفاريت"، ومعنى هذا أنه لم يعد يتخوف من "العفاريت" التى قيل إنها تملأ الشوارع طوال الليل ولا تنصرف إلا مع نور الصباح. كان الطفل مصدقا لكل ما يقال له ومعتقدا فى صحته، ورغم ذلك كان يتحامل على نفسه يسير فى الشوارع ليلا، مغامرا بأن "عفريتا" قد يلقاه!!.

انتقلت شهرة الطفل "الرجل" وتميزه خارج حدود المدرسة، كما انتقلت من قبل خارج حدود الأسرة، إلى حدود المجتمع كله "القرية" وقد تحقق له ذلك بأمرين اثنين أولهما سياسى وطنى والثانى ثقافى واجتماعى.

جاء العنصر السياسى حين كانت الحرب العالمية الأولى توشك على النهاية، وبدا فى الأفق واضحا انتصار الحلفاء، وأخذ المصريون يتساءلون عن وعود انجلترا بالجلاء عن مصر، ومبدأ ويلسون فى حق الشعوب أن تقرر مصيرها، خاصة أن مصر وقفت إلى جوار الحلفاء، وأخذ الإنجليز آلافا من شباب المصريين إلى معسكراتهم، وفقد الكثير منهم، وكانت تلك التساؤلات فى أنحاء مصر، وشغلت المصريين جميعا – رجالا ونساء، مسلمين وأقباطا، باشاوات وفلاحين ... وأتيح لسيد أن يشارك فى تلك الأحداث التى انتهت إلى قيام ثورة ١٩١٩، فقد كان ناظر المدرسة وطنيا شابا، أما والده فقد كان عضوا بالحزب الوطنى، الذى كان يقود الحركة الوطنية حتى قيام الثورة وظهور "الوفد"، لذا "كان منزلهم مقراً للوطنيين من رجال القرية، ولهذا الناظر الشاب كذلك، الذى انعقدت صداقة حميمة بينه وبين والده [2].

كان الطفل يحضر هذه الاجتماعات ويشارك فيها "كانت تدور أحاديث يحضر بعضها الصبى وبعضها كان سريا لا يعلم عنه أحد شيئا. وكان يسمع اسم "أفندينا عباس" واسم الشيخ عبد العزيز جاويش واسم محمد فريد، واسم أنور باشا التركى [3]".

---

(١)سيد قطب. طفل من القرية. ص ١٠٥.

(٢)المرجع السابق. ص ١٢٧.

(٣)المرجع السابق. الصفحة نفسها.

كانت الثورة على الأبواب وقد توقعها سيد – الطفل – "ويدرك أنه وهو طفل كان يتوقع في حسه مع هؤلاء الرجال، شيئا غامضا لا يدرى ما هو ولا كيف يقع. ولكن شيئا ما سيحدث والسلام. وكانت الاجتماعات السرية التى تعقد فى منزله، والأبواب مغلقة والأصوات تجرى همسا .. وشيئا فشيئا أخذ يشارك الكبار فيما يخوضون فيه، ولا سيما أنه كان قد وصل إلى السنة الرابعة الأولية. وكان كثيرا ما يتولى بدلا عن والده قراءة الجريدة للجمع الحاشد الذى يحضر لاستماعها فى منزلهم [1].

كان ذلك فى مرحلة التحضير للثورة، أما حين وقعت فى سنة ١٩١٩، فإن الأمر اختلف، وصار لسيد شأن آخر ودور جديد يصفه هو نفسه بالمعجزة "وقعت المعجزة على يده هو فانطلق فى حماسة الثورة وفورتها، يكتب هو الخطب ويضمّنها أبياتا من الشعر يحسبها موزونة وهى متهالكة، ويلقيها فى الجامع والمساجد حيث نفخت الثورة المقدسة فى الجميع، فصاروا يستمعون لكل هاتف بالثورة، ولو كان طفلا صغيرا مثله لم يكن يتجاوز العاشرة [2] – كان سيد قطب أثناء ثورة ١٩ قد جاوز الثانية عشرة من عمره بحوالى ستة أشهر. وبغض النظر عن المبالغة الشديدة جدا فى هذا الدور، فكما يبدو كانت القضية الوطنية والهموم السياسية فى وعيه وذاكرته منذ وقت مبكر.

وجاء الجانبان الثقافى والاجتماعى من خلال عم "صابر" الذى كان يمر بالقرية مرة كل عام، يحمل بعض الكتب "الصفراء" معه يبيعها لمن يريد، وكان معظمها فى التراث الأدبى والدينى والشعبى، مثل حكايات "أبو زيد الهلالى"، و"ألف ليلة" وغيرها، وكان نصيب سيد منه كتابين مهمين لأهل القرية وهما كتاب "أبى معشر الفلكى" وكتاب "شمهورش" . كان الأول فى الفلك والتنجيم، أما الثانى فقد كان يحمل الكثير من الرقى والتعاويذ والأحجبة والوصفات التى يتصور الناس أن بعضها يجلب المحبة بين الزوجين أو الحبيبين وبعضها يحقق السعادة والحفظ لحامله، ورغم أن "سيد" كان يريد كتاب "صحيح البخارى" إلا أنه لم يتوفر، وضمن له الكتابان، وضعا اجتماعيا متميزا "تسامع نساء القرية وشبانها بالكتابين فأقبل الجميع على صاحبنا الصغير إقبالا منقطع النظير"[3] ..

ووصل الإقبال إلى أنه كان يطلب إلى البيوت وبإلحاح "كان يحضر من المدرسة فيجد كثيرا من التوصيات بطلبه من عدة بيوت وبعضها كان يرسل رسولا يترقبه ليحضر به، وبخاصة بعد أن عرف الجميع أنه مشغول بالكثير من هذه الطلبات" [4] .

---

(١)سيد قطب . طفل من القرية. ص ١٢٨ .

(٢)المرجع السابق. ص ١٣٢ .

(٣)(٤) المرجع السابق . ص ١٢٣ .

كانت تلك الطلبات تسعده وترضيه ".. كان يحس بنشوة عجيبة والطلبات تتوالى عليه والأبواب جميعها، تفتح له، ولقد كان صغيرا لم تثر فى نفسه نوازع الجنس بعد، وتربيته المنزلية تجعل فى نفسه كثيرا من الحشمة والحياء حتى لو ثارت بعض هذه النوازع[1]".

لكن رغم صغر السن وعدم تفتح قدراته الجنسية بعد فإن إحساسه وتقديره للجمال كان عاليا ".. إحساسه بالجمال الحى كان مرهفا، فكانت هذه الزيارات والمقابلات، ومعظم موضوعاتها يدور على الحب ودواعيه، مما يغذى فيه هذا الشعور الوليد الغامض، ويحبب إليه هذه الزيارات والمقابلات التى يجد فيها لذة غامضة عجيبة.. [2].

لم يخرج فى استعماله الكتابين وزياراته العديدة للبيوت على حدود التقاليد العامة ولم يمارسها إلا فى تحقيق الخير والحق "فلم يطع مرة نزوة شاب فى استهواء فتاة محجبة أو زوجة محصنة، ولم يطع هوى ضرة تريد أن تكتب لضرتها بالعمى، ولا حتى بكراهية زوجها لها، إنما كان يستجيب لرسائل المحبة بين الأزواج واستهواء الكاره ليعود إلى مطلقته، والشاب المرغوب فيه ليتقدم لخطبة فتاة تهواه.. [3].

وكان يمكن لهذه الخبرات أن تتحول إلى تأمل بل ودراسة لأحوال مجتمع القرية، بأخلاقه الظاهرة والمعلنة، وتلك الخفية والسرية، ولكنه بدلا من ذلك ركز الأمر كله فى "ذاته هو". حيث لم يكن الإقبال عليه بسبب ما يضم الكتابين، ولا قدرته من خلالهما على معرفة الحظوظ وفق مطالع النجوم، وغير ذلك، بل إلى ميزاته الشخصية منها "أنه لا يتناول أجرا على الخدمات التى يقوم بها لهؤلاء [4]، ومنها أيضا أنه "صبى يدخل البيوت وتقابله النسوة والفتيات بلا تحرج، ودون أن يثير وجوده بينهن تساؤلا كالذى يثيره وجود من يتعاطون هذه الأعمال من الكبار[5]".

وهناك سبب ثالث "أن السيدة أو الفتاة لا تتحرج أن تفضى برغباتها وأسرارها ومخاوفها لصبى لم يبلغ الحلم ولا تدعو سنه إلى الخجل منه [6].

---

(١)سيد قطب. طفل من القرية. ص ١٢٤.

(٢)المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٣)المرجع السابق. ص ١٢٤.

(٤)المرجع السابق. ص ١٢٣.

(٥)المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٦)المرجع السابق. الصفحة نفسها.

ولم تكن النسوة وحدهن يطلبنه، بل كان الشباب أيضا ولمهام سرية من هذا النوع أيضا، ولذا فقد كان فخورا بنفسه ومنتشيا "كان راضيا عن نفسه، راضيا عن مكتبته، مغتبطا بسعة ثقافته، وبسعة شهرته كذلك [1] .." لكن دوام الحال من المحال، لم تستمر سعادة الطفل، ولم تدم غبطته، بل "عرف قلبه الصغير الحزن قبل الأوان [2]، كان ذلك وهو في العاشرة، فقد عاد ذات يوم من المدرسة ليجد أمه في الدار وحدها، تبكي، ولم يكن رآها من قبل حزينة هكذا ودامعة، حاول أن يعرف منها سبب البكاء، فتهربت منه، ولم تجبه، وقف إلى جوارها صامتا مأخوذا بالمفاجأة إلى أن ضمته في صدرها، وأخذ يبكي، حاولت أن تهدئه "لن أبكي يا بني مادمت تعيش .. البركة فيك أنت وحياتكم – تعنيه وأختيه– أنتم وأبوكم عندى كفاية [3] ..".

ألح عليها بالسؤال وقررت أن تصارحه وتعلن له الحقيقة.. "ألقت إليه بالسر الرهيب، بعد أن أخذت عليه العهد أن يكون "رجلا" أى على قدر المسئولية، قالت له" لقد باع أبوك اليوم قطعة أرض [4]. وأخذت تشرح ما يعنيه ذلك ".. "غيطنا ينقص، وقد نقص من قبل مرات بمثل هذا البيع: فأبوك ما بين عام وآخر يبيع مقدارا من الطين، وإذا استمرت الحالة هكذا فسيأتي يوم لا يكون لنا أرض ولا غيط، ولا بيت ولا بهائم، ولا شئ من هذا كله الذى تراه" [5].

وكان من حق هذه السيدة أن تبكي وأن تحزن، فالأرض – الطين – عند الريفيين هي الشرف والعرض، وخسارتها أو تضييعها هو بمعنى ما إهدار للشرف، كانت تدرك حجم المأساة التي تقع، خاصة أنه لا دخل للأسرة خارج إنتاج هذه الأرض ومحصولها، ولابد أن الخسارة لديها كانت مضاعفة، فإن ما يقوم به زوجها قام به إخوانها من قبل، حيث باعوا أرضهم والبيوت التى لديهم، ولم تبق لهم سوى دار وحيدة، والحقيقة أن المسألة كانت تقترب من الكارثة، وكأنها القدر المحتوم، فالوالد لا يمكن أن يتنازل عن وجاهته بين أهل القرية، وتلك الوجاهة لها عبء وتكلفة اقتصادية ومالية، الوجاهة تورث كاملة لكل وريث، أما الأطيان فتتوزع بين جميع الورثة وهنا يحدث الخلل، تزداد الأعباء ويقل الدخل،

(١) سيد قطب. طفل من القرية. ص١٢٤.

(٢) المرجع نفسه. ص ١٧٤.

(٣) المرجع نفسه. ص ١٧٥.

(٤) المرجع نفسه. ص ١٧٥.

(٥) المرجع نفسه. ص ١٧٦.

وتكون النتيجة الانهيار والخراب، فالوالد نال ميراثه من الأرض ولكنه ورث اسم العائلة كله، ولم يكن أمامنا مفر سوى بيع أجزاء من الأراضى، شرحت الأم هذا كله أو شيئا منه لابنها، وكأنها تريد أن تنصحه وتنبهه، وتعلن له وصيتها، وتلقى عليه بالمسئولية، وبالرسالة التى حددتها وأرادتها له "اسمع .. أنت عليك أن ترجع ما يفقده أبوك.. "[1].

كانت منفعلة وصادقة فيما تتمناه، ولا يستوعب هو كيف يمكن أن يحقق لها ما تتمناه عليه، ودلته على الوسيلة "حين تكبر ستذهب إلى مصر عند خالك – فتتعلم هناك وتصبح أفندى ويكون لك مرتب .. وعندئذ تتذكر أن أطياننا فى البلد تباع بسبب إسراف أبيك فى النفقات، فتحرص على النفقات، ولا تبذر كأخيك الأكبر أيضا، بل تنفق فى الضرورى فقط، وعندئذ يكون فى جيبك نقود كثيرة فتشترى بها هذه الأطيان التى تفقدها[2]". ووالت النصح له "يجب ألا تكون مسرفا كأخوالك أيضا. فهم مثل أبيك فى الإسراف وأكثر [3].

هنا تنبه لفداحة المصير الذى ينتظر أسرته، إذا باع الوالد كل ما يملكونه، وأدرك أموراً كثيرة كانت غائبة عنه" .. لماذا كانت أمه دائما تستعجل تعليمه، ولماذا كانت حريصة على أن يتم تعليمه فى المدرسة الأولية لا فى الكتاب".

كانت هذه السيدة برغم أميتها وعدم تعليمها تدرك الكثير، وتعرف أن نهاية طريق "الكتاب" أن يكون مقرئا فى القرية، أو أن يذهب إلى الأزهر ليعود إماما فى المسجد، أما طريق المدرسة فينتهى بأن يكون "أفندى" يرتدى البدلة والطربوش ويعمل بالحكومة، ومن ثم فالمستقبل مضمون فى هذه الحالة، مرتب معقول ومحترم ووجاهة اجتماعية!! وأدرك هو هذا وأنه مطالب بأن "يدرك البناء قبل أن ينهار[4]".

أنهى الصبى دراسته بمدرسة القرية، وكان عليه أن يرحل إلى القاهرة ليتم تعليمه ولكن ظروف الثورة عطلته عامين كاملين، قضاهما فى القرية، بلا دراسة وبلا عمل، ولما هدأت الأمور، وعادت الحياة إلى سيرها الطبيعى، أخذ يستعد للنزوح إلى العاصمة. متذكرا مهمته جيدا .. "أنه مجنّد أعد للكفاح .. مجند لهذه المهمة التى أعدتها له أمه

---

(١) راجع سيد قطب . طفل من القرية. ص ١٧٩

(٢) المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٣) نفس المرجع. الصفحة نفسها.

(٤) المرجع السابق. ص ١٨٠.

وأخفتها عنه، منذ أول يوم ذهب فيه إلى المدرسة [١].." وكان الشعور عاما فى القرية برسالته ومهمته، وما إن أعلن نبأ سفره حتى جاءت النسوة إلى الوالدة، لينطقن جميعا بلسان يكاد يكون واحدا فى معناه ومتقاربا فى كلماته "إن هذا الصغير هو الذى سيرجع ما ضاع كله .. وسيكون بإذن الله شأنه شأن فلان .. [٢]، وفلان هذا أحد أبناء القرية، سافر إلى القاهرة فى ظروف أسرية متشابهة لظروف أسرة الحاج قطب، وحقق الكثير واسترجع لأسرته ثروتها التى ضاعت بل وزاد عليها، وكان كل شئ حول سيد يشعره بجسامة التوقعات وضخامة الأحلام الملقاة عليه "كان كل شئ حول رحلة الفتى يوحى بأن له مهمة عظمى، حتى لكأنه ذاهب لفتح عكاء [٣].

غادر سيد قطب قريته "موشا" إلى القاهرة، وهناك سيكون له شأن آخر، ويسير فى طرق أخرى، ويقوم بمهمات حددها هو لنفسه، غير تلك التى اختارتها له والدته وأسرته.

وصل العاصمة سنة ١٩٢١، وكانت تعج بالأحداث السياسية، كانت مصر لا تزال تعيش فى أتون ثورة ١٩، وكان المصريون يتابعون بلهفة مفاوضات زعيمهم سعد زغلول مع حكومة بريطانيا العظمى، وينتظرون على أحرّ من الجمر نتائج تلك المفاوضات والمباحثات، وكلهم لهفة واشتياق إلى الاستقلال والتحرر من الاحتلال البريطانى.

أقام سيد فى ضاحية الزيتون، وجوها آنئذ هادئ، كانت مسكن المتعلمين والأفندية وبعض التجار، وفيها كان يسكن خاله أحمد حسين عثمان الشهير بأحمد الموشى، نسبة إلى – القرية "موشا"، وكان يعمل بالتدريس وإلى جوار ذلك يمتهن الصحافة أيضا، وسوف يحذو ابن الأخت حذو الخال لفترة من الوقت فيما بعد.

التحق سيد بالمدرسة الأميرية، وأنهى دراسته بها سنة ١٩٢٤، وبعدها كان عليه أن يعمل ليعول نفسه ويتحمل تكاليف حياته فى القاهرة، فلم تكن ظروف الأسرة تسمح له باى مساندة مالية، فعمل سنة ٢٤ مدرسا بإحدى المدارس الأولية، وعمل أيضا ببعض الصحف "مصححا" لما ينشر بها، وفى نفس الوقت واصل تعليمه حيث التحق بمدرسة المعلمين وتخرج فيها ليلتحق بمدرسة "دار العلوم" – سنة ١٩٢٩ – وأنهى دراسته بها فى ١٩٣٣، ولحق به فرع الأسرة من والدته، شقيقه الأصغر محمد، وشقيقتاه أمينة وحميدة،

---

(١)سيد قطب. طفل من القرية. ص ١٨٨.

(٢)المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

(٣)المرجع السابق. ص ١٨٩.

ليتحمل هو مسئوليتهم كاملة، إنفاقا ورعاية، ويصبح لهم "الوالد والأخ والصديق" وصار - إلى اليوم - المثل الأعلى في حياتهم وقدوتهم. وهكذا فرضت عليه الظروف أن يبدأ في أداء مهمته التي كلف بها وأناطته بها والدته، وإن جاء الأداء على نحو مغاير ومختلف.

كان عليه أن يكافح ويبني نفسه بنفسه، بعيدا عن اسم أسرته ووضعها "المتميز". وفي مجتمع يختلف تماما عن مجتمع القرية. حيث لا اعتبار لاسم الوالد وحيثية الأسرة. فقط جهده هو وحده.

اتصل سيد قطب بندوة "العقاد" وواظب على حضورها منذ وقت مبكر لوصوله القاهرة، واتضحت ميوله للكتابة الأدبية والنقدية منذ أن كان طالبا بدار العلوم، وفي سنة ١٩٣٣ - سنة التخرج - صدر كتابه الأول "مهمة الشاعر في الحياة". وبعده بعامين صدر ديوانه الأول "الشاطئ المجهول". ولأنه كان مهتما بالأمور النقدية والأدبية فقد نشر مقالاته في معظم الصحف دون مراعاة للخلافات السياسية أو الحزبية فيما بينها مثل البلاغ وكوكب الشرق والأهرام والمصور والمقتطف والأسبوع وكذلك في مجلة أبوللو وصحيفة دار العلوم.

في سنة ١٩٣٩ نشرت مجلة المقتطف [١]، بحثا بعنوان - "التصوير الفني في القرآن"، وكان ذلك البحث بداية اهتمامه بدراسة القرآن الكريم أدبيا وفنيا، وكان هذا البحث نواة لكتاب حمل نفس العنوان، وصدر بعد ذلك بست سنوات في كتاب مستقل وفي مقدمة الكتاب - أهداه إلى والدته - عاد إلى طفولته وذكرياته مع القرآن إلى أن قال "... ودخلت المعاهد العلمية. فقرأت تفسير القرآن في كتب التفسير، وسمعت تفسيره من الأساتذة، ولكنني لم أجد فيما أقرأ أو أسمع ذلك القرآن اللذيذ الجميل. الذي كنت أجده في الطفولة والصبا.." إلى أن قال "وا اسفاه لقد طمست كل معالم الجمال فيه. فخلا من اللذة والتشويق. ترى هما قرآنان؟ قرآن الطفولة العذب الميسر المشوق، وقرآن الشباب العسر المعقد الممزق؟ أم أنها جناية الطريقة المتبعة في التفسير. وعدت إلى القرآن اقرؤه في المصحف لا في كتب التفسير. وعدت أجد قرآني الجميل الحبيب.." [٢].

كان التصوير الفني بداية لمشروع يعتزم سيد قطب القيام به وأسماه "مكتبة القرآن الجديدة"، حدد عدة كتب سوف يصدرها خلال هذا المشروع، وكلها دراسات أدبية

---

(١) نشر البحث في عددين من المجلة. فبراير ومارس ١٩٣٩.

(٢) راجع - سيد قطب.. "التصوير الفني في القرآن". المقدمة. الناشر دار الشروق بدون تاريخ.

وفنية تنبع من القرآن جميعها، وحدد عناوين الكتب التى سوف تصدر وهى كالتالى "القصة بين التوراة والقرآن".. "النماذج الإنسانية فى القرآن" .. "المنطق الوجدانى فى القرآن" . أساليب العرض الفنى فى القرآن [1]، وفى ديسمبر ١٩٤٧ – بعد عامين من صدور التصوير الفنى – يصدر سيد قطب الكتاب الثانى من هذه المكتبة بعنوان "مشاهد القيامة فى القرآن" وفى مقدمته تحدث عن هدفه البعيد من تلك المكتبة "إعادة عرض القرآن واستيحاء الجمال الفنى الخالص فيه، واستنقاذه من ركام التأويل والتعقيد، وفرزه من سائر الأغراض الأخرى التى جاء لها القرآن. بما فيها الغرض الدينى أيضا. فهدفى هنا هدف فنى خالص محض لا أتأثر فيه إلا بحاسة الناقد الفنى المستقل. فإذا التقت فى النهاية قداسة الفن بقداسة الدين. فتلك نتيجة لم أقصد إليها ولم أتأثر بها. إنما هى خاصة كامنة فى طبيعة هذا القرآن [2]".

وفى سنة ٥٢ تصدر الطبعة الثالثة من كتاب التصوير الفنى – كانت الطبعة الثانية صدرت فى ١٩٤٧ – وأعد لهذه الطبعة مقدمة يفسر بها استقبال الكتاب لدى "الأوساط الأدبية والعلمية والدينية على السواء مقابلة طيبة"، ويرى أن ذلك إنما يدل على أن الدين لا يقف فى طريق البحوث الفنية والعلمية التى تتناول مقدساته تناولا طليقا من كل قيد. وعلى أن البحوث الفنية والعلمية لا تصدم الدين ولا تخدشه حينما تخلص فيه النية. وتتجرد من الحذلقة والادعاء، وأن حرية الفكر لا تعنى حتما مجافاة الدين كما يفهم بعض المقلدين من التحرر، حين يرون الجفوة بين الدين والفن والعلم فأوربا لظروف تاريخية خاصة بالقوم هناك، فينقلونه نقلا إلى العالم الإسلامى، الذى لم تقع الجفوة بين الدين والعلم والفن فيه فى يوم من أيام التاريخ".

وأخذ سيد قطب يدافع عن نفسه لاستخدامه كلمة "الفن" فى المجال القرآنى، التى يساء فهمها وتأويلها فى مجال القرآن "وإنى لأعترف بأننى حين اتخذت عنوان "التصوير الفنى فى القرآن لم يكن لها فى نفسى إلا مدلول واحد: هو جمال العرض وتنسيق الأداء. وبراعة الإخراج. ولم يجل فى خاطرى قط أن الفنى بالقياس إلى القرآن معناه: الملفق أو المخترع أو القائم على مجرد الخيال! إن دراستى الطويلة للقرآن لم يكن فيها ما يلجئنى إلى هذا الفهم أو هذا التأويل.." ويحدد أكثر فهمه لكلمة الفن فى القرآن قائلا" .. الفن فى القرآن إبداع فى العرض، وجمال فى التنسيق وقوة فى الأداء، وشئ من هذا كله لا

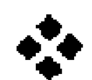
(١) لم يصدر سيد قطب أى كتاب من هذه الكتب التى سماها وأعلن عنها.

(٢) سيد قطب. التصوير الفنى فى القرآن. مرجع سابق. ص ٢٠٣.

يقتضي أن يعتمد على الخيال والتلفيق والاختراع. متى استقامت النفوس وصحّت الأفهام[١]..

وإذا كان سيد قطب قد عثر على التصوير الفنى فى القرآن سنة ٣٩، ففى العام التالى مباشرة سوف يتجه إلى الكتابة فى مجال جديد وإضافى هو مجال الإصلاح الاجتماعى، ففى سنة ٤٠ أخذ يكتب مقالا شهريا فى مجلة وزارة الشئون الاجتماعية، وتكشف مقالاته تلك عن وعي دقيق بقضايا المجتمع المصرى، ورغبة جادة ومخلصة فى إصلاحها، وتقديم اقتراحات مستنيرة جدا لحلول تلك القضايا وتجاوزها وإن كان سوف يعدل عنها فيما بعد، وبين هذه المقالات يكتب فى مايو ١٩٤٠ مقالا بعنوان "الوعظ الدينى وظيفة اجتماعية قبل كل شئ" ويقدم فى هذا المقال بذور دعوته لأن يتدخل الدين فى حل المشاكل والقضايا الاجتماعية ويلعب دورا فيها .. يقول "إن المتدين ليستطيع أن يقول دون أن يخشى على إيمانه: إنه إذا كان الدين الإسلامى قد جعل الدنيا وسيلة للآخرة فهو كذلك قد جعل الآخرة بثوابها وعقابها وسيلة لصلاح الدنيا واستقامة أمورها، وضمان العمل الفاضل فيها". ويضيف قائلا "ونحن نظلم هذا الدين ونشوه غايته الكبرى، حين نجعله دينا أخرويا فحسب، وتقف غايته على إعداد الناس للآخرة، ونجعل من همه تصغير الحياة الدنيا بمعنى احتقارها وإهمالها وترك العمل لها [٢] .

ويقدم فى نهاية المقال اقتراحا بأن تتعاون وزارتا الشئون الاجتماعية والأوقاف لتوجيه خطباء المساجد للاهتمام بدور الدين فى الحياة الاجتماعية فى خطبهم على المنابر كل جمعة.. وفيما بعد سوف تتطور لديه تلك الدعوة لتشمل المجتمع كله وليس خطباء المساجد فقط!!.



(١) سيد قطب. التصوير الفنى فى القرآن. ص ٢٠٧.

(٢) قام الباحث الفرنسى "آلان روسيون" بجمع هذه المقالات فى كتال بعنوان "المجتمع المصرى جذوره وآفاقه" . الناشر دار سينا. ط١. سنة ١٩٩٤. المقال المشار إليه ص ٢٦١ من الكتاب.

(٢)

سيناريو الإخوان

الدعوة إلى العرى والإلحاد ثم التحول إلى الإسلام!!

قد لا يكون دقيقا أن نضع كتاب سيد قطب عن "التصوير الفنى فى القرآن" وما تلاه من كتبه ودراساته الإسلامية فى إطار الظاهرة التى شهدتها الثقافة المصرية فى الثلاثينيات، حيث تحول عدد من كبار الكتاب والمفكرين إلى الكتابات الإسلامية.

بدأت الظاهرة حين كتب الدكتور محمد حسين هيكل "حياة محمد" الذى نجح واستقبل بحفاوة شديدة من الكتاب والقراء والنقاد - نفدت طبعته الأولى بعد ٣ شهور من صدوره - ثم أتبعه بباقى كتبه المعروفة فى هذا المجال، مثل "فى منزل الوحى" و"الفاروق عمر"، وغيرهما، ورغم أن "حياة محمد" نشر سنة ٣٥ فقد كان د. هيكل ينشره كمقالات منذ سنة ١٩٣١، وأقدم د. طه حسين على تناول جديد للسيرة النبوية فى "على هامش السيرة" بأجزائه الثلاثة، وتوالت كتبه الإسلامية بعد ذلك. ومن أبرزها "الشيخان" و"الفتنة الكبرى" بجزءيها، واتجه عباس محمود العقاد إلى دراسة جوانب البطولة والعظمة التى رآها فى كبار الشخصيات الإسلامية فيما عرف بالعبقريات مبتدئا مع "عبقرية محمد" وقدم العقاد العديد من الدراسات التى يعد بعضها من أهم الكتابات الإسلامية فى هذا العصر مثل "التفكير فريضة إسلامية" .. ولم يفلت توفيق الحكيم - الفنان والكاتب المسرحى - من هذه الحالة، فقد عاشها بطريقته وأسلوبه، حيث قدم نصا مسرحيا بعنوان "محمد"، وكل هذه الكتب لا تزال تطبع إلى اليوم.

وهؤلاء جميعا نهلوا من الثقافة الغربية فى مرحلة الطلب، وعاشوا صدمة اللقاء الأول مع هذه الثقافة وتشبعوا بها وتأثروا ببعض أفكارها، د. هيكل هو الذى كتب من قبل

"جان جاك روسو" في جزءين، معلنا بذلك اعتناقه أفكار العقلانية والاستنارة كما تبدت عند الفلاسفة الفرنسيين الذين ساهمت أفكارهم فى صنع الثورة الفرنسية بمبادئها الثلاثة "الحرية والإخاء والمساواة".

وتأثر د. طه حسين بفلاسفة أثينا وروحهم الإغريقية، وبدا ذلك في كتابه "قادة الفكر" كما تأثر بمدرسة البحث التاريخى فى الغرب ومنهج الشك الديكارتى، واتضح هذا التأثر فى كتابه الأشهر .. "فى الشعر الجاهلى" وفى دراساته النقدية الأخرى.

أما توفيق الحكيم فقد سافر إلى باريس لدراسة القانون، والحصول على إجازة الدكتوراه في الحقوق، فاتجه بتركيزه واهتمامه كله إلى التشبع بالحياة الفرنسية وثقافتها، وبدلا من أن يعود ومعه الدكتوراه من باريس، جاء وهو يحمل "عصفور من الشرق" وأفكارا مسرحية مهمة.

الوحيد الذى لم يسافر إلى أوربا هو "العقاد"، لكنه عوض ذلك بإجادة اللغة الإنجليزية والقراءة المتعمقة فى الفكر والأدب وعموم الثقافة الأنجلو - ساكسون، بأفضل كثيرا مما تعمق الباحثون الذين تتلمذوا فى الجامعات الإنجليزية. ووضح ذلك بجلاء فى آرائه النقدية وموقفه الشعرى.

وفى لحظة أدرك هؤلاء أن الثقافة الغربية خدعتهم، أو لعلهم هم الذين خُدعوا بها. فقد تصوروها ثقافة إنسانية خالصة، تعلى من شأن العقل الإنسانى وتحترمه، وتنصاع لما ينتجه من أفكار ونظريات. وتحترم الضمير الإنسانى وحقوق البشر كافة، ثقافة تكاد أن تقدس الإنسان، بما هو إنسان، بغض النظر عن جنسيته أو ديانته أو عنصره ولونه.. لكنهم اكتشفوا أن الواقع غير ذلك..!!

فهذه الثقافة هى التى أفرزت - بين ما أفرزت - الروح العنصرية لدى بعض الغربيين، وأنتجت الاستعمار الذى قام على قهر الشعوب فى أفريقيا وآسيا، وبينها بالتأكيد الشعب المصرى والشعوب العربية، وقدمت المستشرقين الذين ينتقدون الثقافة الإسلامية والعربية فى أعز أصولها ومصادرها "القرآن الكريم وحياة رسول الإسلام"، كل هذا مع عوامل أخرى خاصة بالمجتمع المصرى وعملية التحديث فيه، وعوامل خاصة بكل مفكر على حدة، دفعتهم لأن يتحولوا بعقولهم ومواهبهم إلى التراث الإسلامى، يكتشفونه ويقدمونه، ويتعامل كل منهم معه كما يجب وكما يرى ويفهم.

أين يقع سيد قطب فى هذا السياق؟!!

هو ليس مجايلا لهم بل من الجيل التالى عليهم، وحين بدأ يكتب فى نهاية العشرينات كان كل منهم قد صار اسما لامعا فى عالم الثقافة والكتابة، وقدم أهم أعماله الفكرية، وهو منهم في مقام "التلميذ" والمتلقى، ومن ثم فإحساسه بالقضايا العامة يختلف عنهم، ظروفه تختلف عن ظروفهم، والتكوين مختلف، والأهم من هذا كله أنه لم يسافر إلى أوربا مثلهم، ولم يدرس بأى من جامعاتها،ولا تعلم هناك، ولا نعرف أنه - حتى سفره إلى أمريكا فى نهاية ١٩٤٨ - قد أجاد لغة أجنبية، إجادة تتيح له الاطلاع على الثقافة الأوربية فى مصادرها ومنابعها الأولى، وتكشف كتاباته عن أن كل معرفته بهذه الثقافة، لا تتجاوز المعرفة المتاحة لأى إنسان مصرى من خلال الثقافة العامة، والأعمال المترجمة إلى العربية، ومن ثم فإنه لم يمر بذلك الهم الذى مر به هؤلاء الكتاب الذين تحولوا، هَمّ ومعاناة التأرجح بين ثقافتين وعقليتين بينهما تباين غير قليل، لم يكن سيد قطب من محبى الثقافة الفرنسية ولا من عشاق الفرانكوفونية، ولا من المؤمنين بها، ولا تشبع بثقافة الأنجلو - ساكسون، ولا تشرب أفكارهم، هو لم يغادر الحالة المحلية، عقليا أو فعليا.. ثقافته وحصيلته كلها عربية، إسلامية، حفظ القرآن الكريم مبكرا فى القرية، ودرس فى دار العلوم وهى آنذاك - إلى اليوم - معقل من معاقل الدارسات العربية والإسلامية، لغة وموضوعا ومنهجا وأفكارا، وتقترب "دار العلوم" كثيرا من الأزهر، وعلى هذا وبقدر كبير من الاطمئنان، نرى اتجاه سيد قطب إلى تناول القرآن بالدراسة وبالبحث، ومشروعه فى إصدار "مكتبة القرآن"، تطور طبيعى، فى سياق سيد قطب وتكوينه الخاص، ليس فيه مفاجأة، ولا تحول، ولا نعده أمرا غريبا أو طارئا عليه.

بدأ سيد قطب يكتب الشعر، ونشر ديوانه الأول "الشاطئ المجهول" - سنة ١٩٣٥ - ولم يحقق هذا الديوان نجاحا يتساوى مع ما حققته دواوين أبناء جيل سيد قطب، ولا وضعه هذا الديوان بين الشعراء الكبار، ولم يتوقف أحد من النقاد الكبار أمام هذا الديوان، ورغم أن قصائد الديوان تكشف عن أن مؤلفه "موهوب" إلا أنه اتسم "بضعف التعبير أحيانا، وخطابيته وتقريريته أحيانا أخرى[1]". ، الكاتب الوحيد الذى قدم "عرضا عابرا" للديوان كان "محمود الخفيف" فى الرسالة، وهو من مجايلى قطب" ويذهب د. على شلش إلى أن تجاهل النقاد قد آلمه، وأن هذا التجاهل ربما يكون سبب عزوف قطب عن نشر الكتب وقتها، وسيقضى قطب عشر سنوات بعد صدور الديوان لكى يعاود إصدار كتبه[2] .

(١)د. على شلش، التمرد على الأدب. دراسة فى تجربة سيد قطب. الناشر دار الشروق. ط١. ١٩٩٤. ص٢٣

(٢)د. على شلش (المرجع السابق) ص ٩٠.

بعد القصيدة اتجه إلى المقالات النقدية، ولكن مقالاته قامت على الانفعال "منفعل في مقالاته دائما، منفعل بموضوعه ومقامه وحاله وموقفه، حتى وهو يؤيد ويذكي ويمتدح. ومن هذا الانفعال ينشأ الطابع العاطفي الذى ميزه في جميع مقالاته بغير استثناء، وقربه إلى تناول الدعاة.. [١] .

وجمع سيد قطب مقالاته النقدية في كتابين هما "كتب وشخصيات" – نشر سنة ١٩٤٦ – وكتابه "النقد الأدبي" – صدر سنة ١٩٤٨ – وحين صدر الكتابان لم يجدا تقديرا من النقاد بل انهالت عليه ملاحظاتهم ومؤاخذاتهم، وكان بينها ما هو جارح وماس بكبريائه.. فعن كتابه الأول رأى خليل هنداوى – مجلة الكاتب. مارس ١٩٤٧ – أن قطب منطو تحت عباءة مدرسة العقاد والمازني إلى حد "محاكاة تحيزها غير العادل ضد أحمد شوقي، واتهمه د. شوقي ضيف عن الكتاب الثاني بأنه متأثر بالترجمات في هذا المجال، واستعانته بمصطلحات علم النفس التكاملي" والذى قال به د. يوسف مراد، وذهب د. ضيف إلى أن قطب لا يعتمد على أصول النظريات الأوربية بل على ترجمات وملخصات للنقد الأوربى" وتوقف د. على شلش أمام هذين الكتابين بالفحص والتفتيش عن أفكار العقاد فيهما، ليجد أن قطب متأثر تماما في أفكاره الأساسية عن النقد بأستاذه العقاد.

"من الملاحظ أن مقالاته تخلو من العمق الذى ميز مقالات أستاذه، وتميل إلى الخطابية والاحتفالية والسرد غير التحليلي على عكس مقالات الأستاذ [٢]!!! ويفسر هذا التباين بأنه يرجع إلى "اختلاف مزاج الاثنين، وتباين ثقافتهما، وانفراد الأستاذ بمعرفة لغة أجنبية تطلعه على الجديد في الفكر أولا بأول، ودون وسيط، كما يرجع إلى ذلك القلق العنيف الذى تميزت به شخصية التلميذ طوال مرحلته الأدبية وجعلته ينتقل بسرعة من فكرة إلى أخرى داخل المقال الواحد، دون استيفاء، أو تدقيق [٣] .

ورغم أن مقالاته النقدية تلك أكسبته شهرة كتلميذ للعقاد "إلا أن ذلك التأثر كان له نتائج سلبية عليه".. فقد أنقص قيمته مستقلا عن أستاذه، وعطله هو شخصيا عن الاستقلال من ناحية وتطوير أسلوب حيادى من ناحية أخرى. وظلت الاحتفالية بارزة في نقده إلى النهاية، جنبا إلى جنب مع الاستعراضية والعدوانية.."[٤].

---

(١) د. على شلش (المرجع السابق) ص ٣١.

(٢) المرجع السابق. ص ١١١.

(٣) المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٤) المرجع السابق. ص ١١٥.

ويرى نفس الباحث أن مقالات قطب في النقد التطبيقي لم تسلم من "المجاملات التى يقتضيها إهداء المؤلفين كتبهم إليه،ولا من الأحكام الجزافية [١] كذلك فإنه .. ليس من السهل أن نجد المبادئ والقواعد التى ناصرها فى تصوره لنظرية الأدب مطبقة بحذافيرها في نقده التطبيقي، ولا من السهل أيضا أن نجد فى هذا النقد التزاما بما ألح عليه من وظائف ومناهج كالتحليل وبيان التأثير والتأثر واستخراج مفاتيح شخصية المؤلف [٢]"وبتطبيق هذه المعايير على مقالات سيد قطب الأربع التى كتبها عن روايات نجيب محفوظ "لوجدنا نقده وصفيا تعريفيا عاما بغير تحليل أو مقارنة أو مفتاح" [٣]..

وتبدو فى هذا النقد أيضا روح "تشريعية وقضائية وأخلاقية بارزة [٤]" .

غير النقد، اتجه سيد قطب إلى كتابة الرواية، مثل باقى أبناء جيله على أحمد باكثير وعبد الحميد جودة السحار، وعادل كامل ومحمد سعيد العريان ونجيب محفوظ، قدم قطب روايتين الأولى "المدينة المسحورة"، أصدرتها سلسلة إقرأ – دار المعارف – فى فبراير ٤٦ وهى مستوحاة من "ألف ليلة وليلة"، نلاحظ أنه كتبها على غرار رواية طه حسين "أحلام شهر زاد" التى افتتحت بها سلسلة "إقرأ" نشاطها، ولكن شتان بين العملين، وقد وظف طه حسين عمله والليالى فى رؤية سياسية وحضارية تتهكم على سيطرة الحروب والتخريب والدمار على بنى الإنسان، أما سيد قطب، فقد ذهب بالليالى إلى حيث مصر القديمة (الفرعونية) – كان نجيب محفوظ قد تناول التاريخ الفرعونى روائيا من قبل – لكن فى المدينة المسحورة "أفلت الزمام كثيرا تحت يد المؤلف من حيث رسم الشخصيات (كلها طيوف ذات بعد واحد) وإدارة الحبكة – القصصية والبنية الفنية [٥].. وعلى غير السابقين عليه ممن تناولوا ألف ليلة وليلة، فإن سيد قطب .. لم يوظف الليالى فى خدمة غرض اجتماعى، أو سياسى أو فنى [٦]" وفى النهاية فإن الرواية جاءت "ضعيفة فنا وموضوعاً[٧]".

أما الرواية الثانية "أشواك" فقد صدرت فى عام ١٩٤٧، وهى تتناول موضوع الحب

---

(١)المرجع السابق. التمرد على الأدب. ص ٤٣.

(٢)المرجع السابق. ص ٤٣.

(٣)المرجع السابق. ص ٤٣.

(٤)المرجع السابق. ص ٤٣، ٤٤.

(٥)المرجع السابق. ص ٥٦.

(٦)المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٧)المرجع السابق.ص ٥٧.

الفاشل والمهزوم في حياة شاعر شاب "سامى" ومحبوبته "سميرة"، أحب "سامى" سميرة وتقدم لخطبتها، وليلة الخطبة وبعد أن اطمأنت إليه سميرة صارحته بأنها أحبت قبله شابا غيره هو "ضياء"، وكان حبا عنيفا، وعاش سامى في حياة من "الأشواك"، عدة سنوات غير قادر على إتمام الزواج بعدما صارحته به، وغير قادر على الابتعاد عنها. لأنه يحبها، ولا يمكن أن يعيش دونها. ولم تحقق الرواية أى نجاح، ولم يثن عليها ولا أشاد بها أحد. وجاءت الرواية "ضعيفة فنيا، غير محكمة البناء، قاصرة في رسم الشخصيات، وإن كانت أنضج قليلا من سابقتها [1].."

وأخطر ما قيل عن هذه الرواية، ما دار لدى د. صلاح الخالدى، من أنها تعبر عن تجربة شخصية وذاتية لسيد قطب [2]، وأطلق عليها حبه الثانى في القاهرة، وقال إن قصة الحب تلك وقعت أواخر الثلاثينيات. وواضح من كتاب د. الخالدى أن مصدره في تلك المعلومة هو شقيق سيد الأصغر. محمد قطب.

غير الروايتين كتب سيد قطب سيرته الذاتية "طفل من القرية"، أهداها إلى د. طه حسين صاحب الأيام "إنها يا سيدى أيام كأيامك، عاشها طفل في القرية، في بعضها من أيامك مشابه، وفي سائرها عنها اختلاف [3] ولكن لم تحقق سيرته نجاح الأيام، فقد جاءت مليئة بالمبالغات الشديدة، والاستطراد في أمور لا علاقة لها بسيرته الذاتية..!!

نحن بإزاء كاتب كتب الشعر والنقد والرواية والسيرة الذاتية، وكلها لم تحقق له التميز والتفرد الذى كان يسعى إليه، ولا أرضت طموحه الأدبى والثقافى، فكان لابد أن يتجه إلى الكتابات الإسلامية، وتلك منطقة يمتلك أدواتها، فرصيده من الدراسات الإسلامية في دار العلوم يتيح له ذلك، وهو من قبل كان قد حفظ القرآن الكريم.

وربما كان اتجاه كبار المفكرين والمبدعين من الجيل السابق عليه إلى الإسلاميات قد عزز لديه هذا الاختيار، وطمأنه إلى سلامة هذا الاتجاه، وربما تصور أن الإقبال الجماهيرى والنجاح الذى حققته مؤلفاتهم، يمكن أن يكون مصير كتبه في هذا الجانب.

وقد حقق كتابه "التصوير الفنى" نجاحا جماهيريا حيث تعددت طباعته في وقت قصير، وهو ما لم يتحقق لأى من أعماله السابقة، غير أن هناك مستوى آخر من النجاح ومن

---

(١)د. على شلش. التمرد على الأدب ص ٥٩.

(٢) د. صلاح الخالدى.. د. سيد قطب بعد الميلاد إلى الاستشهاد ص ٢٤٨.

(٣)طفل من القرية لسيد قطب. الإهداء.

الاعتراف لم يتحقق، فلم يكتب عنه أحد من كبار الكتاب ولا نوّه به خاصة العقاد – أستاذه – أو طه حسين أو المازنى أو الحكيم، وكان هو يجلهم ويقدرهم جميعا، وكتب عن كتبهم التى صدرت محييا ومرحبا.

لقد انتظر وطال انتظاره أن يعاملوه بالمثل، يردوا إليه التحية بمثلها وليس بأحسن منها، ولكن دون جدوى، واعتبر د. على شلش تجاهل النقاد الكبار لهذه الأعمال، واحدا من عوامل تمرده وسخطه على النقد والأدب والشعر واتجاهه إلى الكتابة عن القضايا الاجتماعية والسياسية .. وكان هذا التوجه الجديد أو التحول فى الاهتمام طبيعيا، أمام عدم نجاح كتاباته السابقة، وعدم تحققه كما يريد من خلالها، وقد التقى ذلك مع احتدام القضية الوطنية فى مصر، والقضايا الاجتماعية التى أخذت شعار القضاء على الفقر والجهل والمرض، لذا فقد انغمس بكامل اهتمامه فى هذا "الكفاح" الجديد، وأصدر "العدالة الاجتماعية فى الإسلام" محققا فيه المزج بين القضية الاجتماعية والبعد الإسلامى.. وكان هذا الكتاب، أول نجاح حقيقى له على مستوى الجماهير خاصة.

لقد بالغ عدد من الكتاب فى تصوير مدى "التحول" الذى طرأ على فكر وحياة قطب، حين اتجه إلى البعد الإسلامى فى الكتابة، وأعلن بعضهم أنه كان ملحدا، وذهب سليمان فياض إلى أن قطب ظل ١١ سنة ملحدا، وقدرها غيره بثلاث عشرة سنة، ونشط أحد كتاب الإخوان [1] فى هذا الجانب، وقدم سيناريو كاملا يؤيد ذلك، فقد ادعى أن سيد قطب نشر مقالا فى الأهرام، حدد تاريخه – ١٧ مايو ١٩٣٤ – دعا فيه إلى العرى التام، وإلى أن يسير الناس فى الشوارع عراة تماما، كما ولدتهم أمهاتهم، ورأى هذا الكاتب أن سيد قطب كان متأثرا فى هذه الدعوة بموجة العرى التى كانت تجتاح أوروبا والولايات المتحدة آنذاك، وذهب هذا الكاتب إلى أنه أراد وقتها أن يرد على تلك الدعوة، ويكتب للأهرام مفندا مقال العرى، ولكن المرشد العام الأول الشيخ حسن البنا منعه من كتابة الرد، والتمس المرشد الأعذار لقطب أمام عضو الجماعة المتحمس، قال المرشد له، فيما يذكر ".. ترك الفرصة أمامه للرجوع إلى الحق خير من إحراجه.." وتنبأ "البنا" – فى تلك الرواية – بما سيكون عليه قطب بعد عشرين عاما، يقول الكاتب "لعله يفيق من غفلته ويفئ إلى الصواب وسيكون ممن تنتفع الدعوة بجهوده فى يوم من الأيام.."

وشاعت تلك الرواية، وتناقلها عنه عدد من الكتاب، وأخذت شكل الحقيقة النهائية

(١) محمود عبد الحليم– "الإخوان المسلمون .. رؤية من الداخل، أحداث صنعت التاريخ".

والمكتملة، لأن مصدر الرواية، أحد رجال الإخوان، فقد وجدها البعض نوعا من "الاعتراف" يكشف عن مدى تحول وإن شئنا الدقة تقلب سيد قطب.

وقد قام أحد الباحثين [(١)] بالتحرى والبحث داخل أعداد "الأهرام" عن هذا المقال "المزعوم" فى عدد ١٧ مايو ١٩٣٤، فلم يجده، ولم ينشره الأهرام قبل ذلك التاريخ ولا بعده لسيد قطب بهذا المعنى، أو يحمل تلك الدعوة، والحقيقة أن الذى يعرف جريدة "الأهرام" ويعرف سيد قطب، لا يمكن أن يتصور بأى حال من الأحوال هذا "الادعاء"، لقد كانت "الأهرام" دائما صحيفة تقليدية ومحافظة، خاصة فى تلك الفترة، وكان يهم القائمين عليها ألا تصطدم صحيفتهم بتقاليد المجتمع وأعرافه، بل وأن تبدو حريصة عليها، ومدافعة عنها، هذا بفرض أن المقال قد كتبه صاحبه وقدمه للنشر..!!

كذلك فإن سيد قطب فى تلك الفترة، كان حديث التخرج من دار العلوم، ومهتما بالنقد وكتابة الشعر أكثر، ولم يكن من دعاة العرى، ولا كان متحررا أو متحللا إلى هذا الحد، فليس فى سيرته ولا فى كتاباته ما يشير إلى ذلك. لقد كان طوال الوقت صعيديا مخلصا ودرعميا ملتزما وصادقا، ولم يكن متفرنجا.!!

إن كتابات سيد قطب فى تلك الفترة المبكرة فى حياته، تحمل أفكارا عكس تلك التى نسبها إليه كاتب الإخوان، ففى إبريل ومايو ١٩٢٩ كتب ثلاث مقالات فى مجلة "البلاغ الأسبوعى"، عن الأزمة الزوجية، وعن الاختلاط، وفيها يندد بالاختلاط الذى يتم فى مجتمعنا بين الرجل والمرأة، ويعتبر ذلك واحدا من أسباب ابتعاد الشباب عن الزواج، فى المجتمع "ذلك هو الفساد الخلقى الذى كثيرا ما صاحب الاختلاط وسيما فى بلد كمصر فى أوب عهده بهذا النوع من التقاليد، هذا الفساد يجعل الشاب لا يثق فى فتاة ينتقيها لنفسه [(٢)].

ولا ينكر سيد قطب أن المجتمعات الأوروبية قد حققت الاختلاط واستفادت به فإننا فى مصر لم نفعل ذلك "إذا كان الأوربيون استطاعوا ذلك فإنا مع الأسف لم نستطعه، وإنما أخذنا الناحية السيئة وحدها [(٣)].

---

(١)شريف يونس، فى رسالة للماجستير من قسم التاريخ. جامعة عين شمس حول سيد قطب بعنوان "سيد قطب وأثره فى الفكر السياسى فى مصر".

(٢)راجع مقال سيد قطب فى كتاب محمد بركة "سيد قطب . صفحات مجهولة". ص ٥٣، الناشر دار الاعتصام. ١٩٩٩.

(٣)المرجع السابق. ص ٥٦.

ورغم أن في القرية اختلاطا إلا أن مجتمع القرية لا يقاس بمجتمع المدينة، فمجتمع القرية متماسك، وأهلها يحترم كل منهم الآخر وهم أشبه بأسرة واحدة، أما المدينة فليست كذلك ولذا نجد فيها "ازدياد الفساد الخلقي في المدينة ليس في ناحية المرأة والرجل في كثير من النواحي الخلقية [١]".

وهذه الأسباب وغيرها "تحتم علينا ألا نتخذ القرية كمقال للاختلاط لأننا لا نستطيع أن نهب المدينة شيئا من هذه الحصانة المكتسبة بحكم الظروف [٢]".

ومن يحمل هذه الأفكار ويكتبها، لا يمكن أن يكون من دعاة العرى، ولا من المطالبين به في مجتمعنا، إنه لم يحتمل الاختلاط ولم يتقبله، فهل يدعو إلى العرى؟!!

نحن إذن بإزاء "سيناريو" تخيله كاتب الإخوان، ربما لإبراز قدرة المرشد الأول الفائقة على "الحدس والاستبصار" أو التنبؤ بعيد المدى بالغيب، وما تخفيه الأيام وربما رغبته في إضفاء مزيد من الدراما على حياة وشخصية سيد قطب - لضمان مزيد من إعجاب القراء والمتابعين لشخصيته ذات التحولات العاصفة!!

ولعلها رغبته في إبراز جاذبية دعوة الإخوان وفكرتهم، وقدرة تلك الفكرة على صنع الأعاجيب في حياة بعض الأفراد.

أيا كان السبب فإن تلك الرواية "المتخيلة والمتوهمة" وجدت من يتناقلها وبسرعة، لتزداد الهالة الأسطورية حول شخصية سيد قطب.

نفس الأمر ينطبق على مقولة "إلحاد" سيد قطب. فلا نجد بين كتاباته الأولى ما يشير إلى إلحاد أو زندقة، بل ليس ما يكشف عن أنه كان مهتما بمسألة أصل الوجود والكون والخلق، ولا من الباحثين في نشأة الإنسان وأصله.. كانت اهتماماته الأساسية في النقد، وفي تلك السنوات خاصة معركة العقاد والرافعي، مدافعا عن أستاذه الأول ضد الرافعي، وهاجم كتاب د. طه حسين "مستقبل الثقافة في مصر" .. وتلك كلها معارك لا تتعلق بأمور العقيدة الدينية، ولا صلة لها بإيمان أو إلحاد، بل معارك نقدية وثقافية.

ويبدو أن الذين انتهوا إلى إلحاد سيد قطب وحددوا مدة زمنية لذلك، حددوها بين فترة تخرجه وبداية احترافه الكتابة - ١٩٣٤ - وصدور كتاب التصوير الفني، أو بين

---

(١) مقال سيد قطب "الاختلاط في الأرياف" في كتاب محمد بركة. ص ٦١. والمقال نشر في "البلاغ الأسبوعي". عدد ٨ مايو ١٩٢٩.

(٢) المصدر نفسه.

صدور كتابه الأول ١٩٣٢ "مهمة الشاعر فى الحياة" وصدور كتاب التصويـر، ولم يفطـن هؤلاء إلى أن كتاب "التصوير الفني" يعود إلى سنة ١٩٣٩، حين نشر جانبا مركزا منه فى المقتطف .. والفاصل الزمنى بين التخرج أو كتابـه الأول وبدايـة نشـر التصويـر هـو سـت سنوات أو سبع .. وليس ١١ أو ١٣ سنة..!!

والحقيقة أن كتابه "التصوير الفنى فى القرآن" يقطع بأن صاحبه لم يمر بالحـاد، بـل ولا حتى الشك، الكتاب دراسة فـى القـرآن، مـن بـاب التـذوق الفنـى والإحسـاس الجمـالى، ويكشف عن تجربة جماليـة وحالـة وجدانيـة مـع القـرآن، كـانت فـى داخلـه منـذ الطفولـة المبكرة، وظلت مختزنة داخله ومستقرة إلى أن ظهرت وعبَّر عنها، وهذه الحالـة مـن الوجـد تكشف عن إيمان صوفى عميق، إيمان لم يهتز أبدا، ويقين ثابت ومؤكد لم يتخللـه ولم يصبـه الشك من قريب او مـن بعيـد، إنـه لم يتجـه إلى القـرآن بـالعقل أو المنطـق، ولم يبحـث فـى القرآن عما يثبت وجـود الله فلـم تكـن تلـك قضيتـه وشـاغله ولكنـه أقبـل علـى القـرآن بوجدانه وإيمانه المستقر. الكتاب يكشف عـن متصـوف حقيقـى، بلـغ بـه الإيمـان والوجـد مداه.

ويروى صديقه عباس خضر عنه واقعة مهمة .. تتعلق بهذا الجانب يقـول" .. قـال لـه زنديق: إن إثبات وجود الله أمر صعب فرد عليه قائلا فى حيرة: ونفيه أيضا صعب"، وهذا قول يدحض تماما الادعاء بأنه كان ملحدا أو لديه الاستعداد لذلك، ويكشف عـن إنسـان متأكد تماما من وجود الله، أو أن نفى هذا الوجود صعب [١]!!

ويقول عباس خضر إن صديقـه سـيد قطـب قـال لـه أثنـاء مناقشـة بينهمـا إن "الديـن ضرورى لقيادة القطعان البشرية ولا يمكن أن يسلس قيادها بغيره [٢]" ويقول أيضا "أعتقد أنه كان ينظر إلى الإسلام على أنه ثقافة إنسانية وأنه نظام صالح لحياة بشرية راقية.." [٣].

وهذا يعنى أنه تجاوز مرحلة الإيمان أو الإلحاد، بل انتقل إلى مرحلة أخرى، هى ما بعـد الإيمان وهى أن يقود الدين "القطعـان البشـرية"، وأن الإسـلام نظـام يمكـن أن ينتـج حيـاة بشرية وإنسانية راقية.

ولكن عباس خضر يقول أيضا عن صديقه ".. أعتقد كذلك أنه مـر بمرحلـة شـك [٤]،

(١)عباس خضر. "هؤلاء عرفتهم" ص٥٩. الناشر سلسلة اقرأ دار المعارف عدد ٤٨٥، مارس ١٩٨٣.

(٢)المرجع السابق. ص ٥٩.

(٣)المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٤)المرجع السابق. الصفحة نفسها.

ذكرها باقتضاب، دون تقديم أى قرينة، ولا ما الذى يعنيه بالشك، والملاحظ أن خضر استشهد بكلمات قالها له صديقه أو لغيره، فيما يتعلق بالإيمان والإلحاد، وفيما يتعلق بدور الدين الاجتماعي والإنساني، ولكنه فيما يتعلق بالشك لم يذكر لنا شيئا قاله له صديقه أو حتى كتبه، مما يجعلنا نعتبره انطباعا شخصيا تعوزه الدلائل والقرائن.

والحقيقة أن سيد قطب نفسه ينفي تلك الادعاءات، وذلك الانطباع فقد سأله صديقه الكاتب الإسلامى الهندى أبو الحسن الندوى – فى ٢٣ فبراير ١٩٥١ – عن هذا التحول فى حياته .. "كنت أعرفكم كأديب كبير من مدرسة الأستاذ العقاد، وأقرأ لكم فى "الرسالة" بحوثكم العلمية ومقالاتكم فى النقد الأدبى، فكيف كان اتجاهكم إلى إنتاج هذا الأدب الإسلامي القوى؟ وما هى نقطة التحول فى حياتكم الأدبية؟" [١].

فرد عليه سيد قطب "لا شك أنى تلميذ من تلاميذ الأستاذ العقاد فى الأدب والأسلوب الأدبى وله عليَّ فضل فى العناية بالتفكير أكثر من اللفظ، وهو الذى صرفنى عن تقليد المنفلوطى والرافعى، ولكن الذى وجهنى هذا التوجه الذى هو أكثر من الأدب والنقد والمعانى الشعرية، هو أن نفسى لم تزل متطلعة إلى الروح وما يتصل بها وكنت فى صغرى مشغوفا بقراءة أخبار الصالحين وكرامتهم ولم تزل هذه العاطفة تنمو فى نفسى مع الأيام" [٢].

الرجل إذن كان مهتما بكرامات الصالحين وأخبارهم منذ الطفولة، ومتطلعا إلى الروح، وكان هذا الاتجاه ينمو داخله ومعه طوال السنين..!!

واهتمامه بالروحانيات، كان أصيلا وثابتا، ولأن العقاد كان بتعبيره هو لصديقه الندوى "رجل فكرى محصن" فإنه ذهب يشبع ميوله الروحانية عن طريق آخر".. ذهبت أروى نفسى من مناهل أخرى هى أقرب إلى الروح، ومن ثم عنيت بدراسة أسعار الشرقيين كطاغور وغيره" [٣] .

أقصى ما نراه فى الجانب الفكرى لدى سيد قطب، فيما يتعلق بعلاقته بالدين، كان أثناء معركة الرافعى والعقاد، وكان سيد قطب المدافع المستبسل عن العقاد، بالحق وبالباطل، بالمنطق أو بالعاطفة .. وجدت أن أحد أنصار الرافعى – محمد أحمد الغمراوى –

---

(١)أبو الحسن الندوى: مذكرات سائح فى الشرق العربى. ط١ ١٩٥٤. الناشر مكتبة وهبة. ص ٨٨.

(٢)المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٣)المرجع السابق. ص ٨٨، ٨٩.

أدخل الدين طرفا فى دفاعه وفى معركته، فرد عليه سيد قطب، مطالبا بتنحية الدين بعيدا عن هذه القضايا.. وهذا ما دعا البعض إلى اعتباره علمانيا فى تلك المرحلة.

تحت عنوان "القديم والجديد" كتب محمد أحمد الغمراوى – مهاجما سيد قطب – "..فالمسألة بين القديم والجديد كما يسمونها ليست مسألة اختيار بين أدب وأدب، وطريقة وطريقة، ولكنها فى صحيحها مسألة اختيار بين دين ودين، فالذين يسمون أنفسهم أنصار التجديد يؤمنون بالغرب كله ويريدون أن يحملوا الناس على دينهم هذا ولو خالف الإسلام فى أكثره. والذين يسميهم هؤلاء أنصار القديم يؤمنون بالإسلام كله وبالقرآن كله ويأبون أن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض. أو أن يدينوا للغرب مؤمنين به من دون الله [1]".

وبعد أسبوعين من نشر مقال الغمراوى – أستاذ الكيمياء، بكلية الطب – رد سيد قطب .. متهكما .. قد – والله – أخافنا وأفزعنا وهو يجعل المسألة "دينا أو لا دين" ويلخص المعركة – بين المدرستين القديمة والجديدة. فى أنها المعركة بين أهل الجنة وأهل النار!. نعم هكذا مرة واحدة؟ ومن لم يكن قد عرف الخوف فليعرفه الآن، فها هو ذا رجل يمسك بيده ميزان الحسنات والسيئات: فأما من كان مع الرافعى فقد أزلفت له الجنة، وأما من كان مع العقاد فقد فغرت له جهنم أفواهها [2]".

ويفند رأى خصمه قائلا "الدين. الدين. هذه صيحة الواهن الضعيف، يحتمى بها كلما جرفه التيار، وهو من لا يملك من أدوات السباحة ولا وسائلها شيئا .. وأشد الجناة على الدين وأشد المشوهين له والمشككين فيه أولئك الذى يضعونه مقابلا للعلم تارة، وللفن تارة ثم يحكمون أيهما أصح وأولى بالاتباع" [3].

وربما تكون الكلمات السابقة هى التى دفعت بعض الدارسين إلى القول إن سيد قطب كان يتمتع بموقف "علمانى"، ولكن الكلمات التالية له فى الرسالة – نفس العدد – تدحض ذلك التصور .. يقول ".. وللدين مهمة قام بها وأداها خير أداء فى إصلاح نفس الفرد للمجتمع، أو فى تهيئة هذا المجتمع لحياة الفرد! بالنصح تارة وبالتخويف تارة أو بالتشريع تارة، وبكل الوسائل التى تكفل هذه الغاية الكبيرة على مدى الأجيال! [4].

---

(١) مجلة الرسالة. عدد ٤ يوليو ص ١١٠٤.

(٢) الرسالة. سيد قطب. عدد ١٨ يوليو ١٩٣٨. ص ١١٧٩.

(٣) الرسالة. العدد السابق.

(٤) الرسالة . العدد السابق.

ويستمر في شرح فكرته الأخيرة التي تضع الدين في موضعه" .. لم يأت الدين ليخوض في المسائل العلمية البحتة، ولم يأت ليكون منهاجا فنيا. فكل زج به إلى الميادين التي لم يأت لها ظلم وتعريض به، وعمل كعمل الدبة [1]".

ويفرق بين العلم والدين قائلا " يقوم الدين على الإقناع الوجداني، وعلى البحث العقلي، بينما يقوم العلم – معظم العلم – على المشاهدات والملموسات، والتجارب المحسوسة، فليس من الحكمة وضع هذا مقابلا لذاك، جهلا باتجاه الدين وغايته، لأن كثيرا من النفوس يضطر لتصديق المحسوس المشاهد، متى أرغم على الاختيار بين الطريقين" [2].

ويستعمل نفس الروح في التفرقة بين الفن والدين ".. ليس من الحكمة كذلك وضع الدين مقابلا للفنون، فهذه خاصة بالترجمة عن النفس الإنسانية، وأحاسيسها وآمالها، وليس هذا من اتجاه الدين، إلا في الدائرة التي تهمه لإصلاح نفس الفرد للمجتمع، والمجتمع للفرد على طريقته الخاصة [3]". ويواصل شرح الفكرة الأخيرة وتحذير خصومه".. من الناس من يستفسر بالخوالج والخواطر والآمال التي تجلوها الفنون لأنها تلمس كل عنصر حي فيه، وليس من الحكمة أن نسوم هذا الفريق الاختيار بين طريق الفنون وطريق الدين، في حين لا يعنى الدين ذلك.. [4]".

وينهى فكرته بالسخرية والتهكم من خصومه "الدين . الدين .. قولوها مئة مرة فلسنا والحمد لله من تخيفهم هذه الصيحات الفارغة، ونحن أكثر منكم دراسة وفهما للدين[5]..".

هذا رأى لا علاقة له بالعلمانية، ولكنه يكشف عن نظرة متعقلة وحريصة على الدين في المقام الأول، وكذلك على الفن وعلى العلم.. وعدم الزج بالدين في هذه الميادين.

وربما يكون القول بعلمانية سيد قطب في تلك المرحلة، أو إلحاده وشكه في الدين، يعود إلى بعض السلوكيات الفردية والخاصة، والتي يعتبرها "العوام" وعدد من المثقفين، دليل علمانية أو إلحاد .. وتتعلق تلك السلوكيات بتعاطي بعض المشروبات "الروحية" أو المرور ببعض المغامرات العاطفية والعلاقات النسائية..!!

---

(١)الرسالة. عدد ١٨ يوليو ١٩٣٨. ص ١١٨٠.

(٢)الرسالة. عدد ١٨ يوليو ٣٨ . ص ١١٨٠.

(٣)الرسالة. العدد السابق.

(٤)الرسالة العدد السابق.

(٥)الرسالة . عدد ١٨ يوليو ١٩٣٨. ص ١١٨٠.

وليس لدينا أشياء مؤكدة عن سيد قطب فى هذا الجانب سوى قول صديقه عباس خضر من أنه كان "على كثير من المجون الذى يصطنعه بعض الأدباء [1]، ونحن نعرف المقصود بالمجون، ويبدو أن "خضر" محق، خاصة إذا أخذنا برواية د. صلاح الخالدى، فى كتابه "سيد قطب.. الميلاد إلى الاستشهاد"، والذى ذهب فيه إلى أن قصة الحب داخل رواية "أشواك" هى قصة وتجربة سيد قطب نفسه [2].. وفى الرواية مشاهد تكشف عما يمكن تسميته بالمجون، فالبطل فى الرواية – الذى هو سيد قطب – يذهب إلى خطيبته وحبيبته فى المنزل" يقتحم عليها حجرة نومها ويفاجئها وهى أدنى إلى العرى منها إلى الستر. وكانت تخول له أن يبيت فى دارها دون أن يعترض والدها على ذلك. وكانت تبيح له أن ينفرد بها فى ممر الدار، ويعتصرها اعتصارا، ويرشف منها ما شاء من رحيقها المذخور ..

ولو صح ذلك، فهل يعنى أنه كان علمانيا .. أو ملحداً .. ؟!!

بالتأكيد لا .. فقد عرف التاريخ الإسلامى بعض العلماء والفقهاء الذين عاشوا تلك الحالات من المجون، ومن يراجع كتب المجون والماجنين فى تراثنا العربى يجد أنها تذكر الكثير من التفاصيل فى هذا الجانب عن عدد من العلماء والشيوخ والفقهاء، بل إن بعضهم كتب عن تجاربه فى المجون. هل نذكر هنا أن كتب التراث فى الجنس مثل "رجوع الشيخ إلى صباه" أو كتاب "الروض العاطر" أو "شقائق الأترنج فى دلائل الغنج وغيرها وغيرها، وهى الكتب التى تطاردها الرقابة اليوم، وتمنع نشرها وتصادرها قد كتبها فقهاء كبار .. كبار!!

الماجن يكون قد أخطأ وارتكب ذنبا أو ذنوبا بمجونه، ولكن هناك التوبة والمغفرة.. إننا لا نعرف حدود ومدى "مجون" سيد قطب، ولكن نعرف أن الظروف لم تتح له الزواج.

وقال لى أحد الصحفيين القدامى، الذين عملوا مع سيد قطب فى مجلة "العالم العربى" إنه حتى سن ١٩٤٨، كان يتردد بين الحين والآخر على بار "اللواء" ويحتسى قليلا من "الكونياك"، وكان مشروبه المفضل.

وقليل من "الكونياك" لم يفسد العقيدة ولا الإيمان ولا يلقى به فى عالم الملحدين أو الشكاك!!(وحكى أحد مريدى سيد قطب – سابقا – على عشماوى أنه كان فى منزل

(١)عباس خضر. "هؤلاء عرفتهم". ص ٥٩

(٢)راجع د. صلاح الخالدى. ص٢٤٨، ٢٤٩.

سيد قطب سنة ١٩٦٥ هو وبعض "إخوانه" يتباحثون فى أمور "التنظيم" – الذى حوكموا بسببه بعد ذلك – وكان اليوم "جمعة"، وكانت الجلسة ضاغطة، وجاء ميعاد "الصلاة" – فقال على عشماوى "دعنا نقم ونصل وكانت المفاجأة أن علمت – ولأول مرة – أنه لا يصلى الجمعة" ويقال إنه يرى – فقهيا– إن صلاة الجمعة تسقط إذا سقطت الخلافة وأنه لا جمعة إلا بخلافة. وكان هذا الرأى غريبا علىّ، ولكنى قبلته لأنه – فيما أحسب – أعلم منى".. [١]

وهكذا فإنه حتى اللحظة الأخيرة، رغم كتبه وانغماسه بالكامل فى نشاط الإخوان لم يكن – لأسباب فقهية – يؤدى صلاة الجمعة!!

❖

(١)على عشماوى .. "التاريخ السرى لجماعة الأخوان المسلمين". الناشر دار الهلال ١٩٩٣.



(٣)

مهمة ليست علمية فى أمريكا

مجاملة موظف واعد و ليست إبعادا ولا استدعاء!

عمل سيد قطب عقب التخرج فى دار العلوم ، مدرسا فى مدرسة "الداوودية" بالقاهرة ونقل بعد عامين إلى مدرسة بنى سويف، ونقل بعدها إلى مدرسة حلوان ، وفى أول مارس ١٩٤٠ ترك التدريس ونقل إلى مقر وزارة المعارف ليعمل فى المراقبة الثقافية بوظيفة "محرر عربى"، كان قد ترك التدريس لأسباب صحية، حيث كان مرض "السل" يؤثر عليه.

وفى سنة ١٩٤٨ فوجئت الأوساط الثقافية بسفر سيد قطب إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، فى بعثة تعليمية أو هكذا فهموا ، وكان مسمى تلك البعثة "مهمة ميزانية" للاطلاع على المناهج وأصول التربية هناك ، ولم تكن المهمة "البعثة" مرتبطة بمدة معينة، كما هى عادة البعثات ، ولم يكن سيد قطب مرسلا إلى جامعة بعينها، كما جرى العرف أيضا، ولم تكن من أجل الحصول على درجة علمية ، لهذه الأسباب ولغيرها نظر المتابعون والباحثون إلى تلك "البعثة" بارتياب شديد وصل إلى حدود الاتهام، والواقع أن خصوم سيد قطب ومريديه قد وجهوا الاتهامات ، فمنهم من اتهم الحكومة المصرية ، ومنهم من اتهم الولايات المتحدة، ومنهم من اتهم سيد قطب ذاته!!.

الكاتب الإسلامى محمد قطب - شقيق سيد الأصغر - يوجه اتهاما لعدة أطراف فى مصر ويرى أن "البعثة" كانت بهدف إبعاد سيد عن مصر.. ففى حوار له مع مجلة "الغرباء" - عدد سبتمبر ١٩٧٥ وتصدر من لندن - ذهب إلى أن "السراى" أصدرت أمرا ملكيا

باعتقال سيد بسبب كتاباته "ضد الملك والحاشية"[1] وأنه لم يكن هناك سند قانوني لتنفيذ هذا الأمر ، فقررت الحكومة إبعاد سيد عن مصر، لتتخلص من هذا الحرج القانوني!!

وتلقف د. صلاح الخالدى .. أحد مريدى سيد قطب – هذا الاتهام، وتوسع فيه ، وجعله محور كتاب خصص لهذا الغرض، يقول د. الخالدى [2]"إن الحكومة ضاقت ذرعا بسيد قطب وأزعجها كثيرا بمواقفه وكلامه ومقالاته، فضيّقت عليه .. ولم تجد الحكومة القائمة ما يبرر اعتقالها له، ولم يكن بين يديها حجة قانونية فى ذلك ، ورغم أن القصر الملكى أوعز للحكومة باعتقال سيد إلا أن الحكومة لم تجد مبررا قانونيا للاعتقال بالإضافة إلى تعاطف رئيس الوزراء، وهو محمود فهمى النقراشي ، الذى كانت له صلة حزبية بسيد قطب عندما كان الرجلان عضوين فى حزب الوفد".

ونلاحظ هنا أن "أمر" السراى لدى محمد قطب إلى الحكومة تحول لدى د. الخالدى إلى مجرد "إيعاز" ويكمل د. الخالدى تصوره للمؤامرة "أرادت الحكومة التخلص من سيد قطب بطريقة تبدو مقبولة ، وتظهر فيها مصلحته الشخصية وحرصها على تحقيقها له ، كما أرادت أن تحول بين إيقاع الأذى عليه من القصر، وفى نفس الوقت لم تشأ أن تقف فى وجه القصر علانية ، وأن تظهر مخالفتها له .. وبما أن سيد قطب مغضوب عليه من قبل القصر، وبما أن الحكومة نفسها متضايقة من مقالاته وانتقاداته ، لذلك فكرت فى حل يرضى جميع الأطراف وكان يتمثل فى إيفاده – أو إبعاده – إلى أمريكا" [3].

وينتهى د. الخالدى إلى القول "لا نستغرب إذن التقاء رغبات الأطراف الثلاثة على التخلص من سيد – القصر والحكومة ووزارة المعارف" [4].

ولا يقدم لنا د. الخالدى دليلا أو وثيقة تؤكد أن القصر طلب أو أوعز للحكومة باعتقال سيد قطب، ولا ما يثبت أن رئيس الحكومة تراخى وتلكأ فى تنفيذ مطلب أو توجيه القصر أى الملك .. ولم يشر لنا إلى مقالات سيد قطب التى أغضبت القصر إلى هذا الحد، بين مئات المقالات التى كانت تنشر فى وقتها وتنتقد أحوال البلاد يوميا!!

---

(١)نقلا عن .. سيد قطب .. أمريكا التى رأيت ، إعداد لجنة البحوث والنشر بدار المدائن ط١ – ١٩٩٣ . ص٦.

(٢)د. صلاح عبد الفتاح الخالدى "أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب" ط٢. ١٩٨٦. صفحة ١٧. الناشر دار المنار للنشر والتوزيع . جدة. السعودية.

(٣)المرجع السابق نفس الصفحة .

(٤)المرجع السابق ص ١٨.

ولم تقف اتهامات د. الخالدى عند "الثالوث" السابق، ولكنه يضيف إلى قائمة الاتهامات فريقا آخر هو "أمريكا وعملاؤها ممن يملكون دفة الحكم والسلطان والتخطيط والتوجيه فى البلاد [(١)]". ويقول أيضا "اختار التعساء سيد قطب ليكون أحد هؤلاء العملاء باعتباره فى مقدمة رجال الأدب والنقد والفكر فى مصر، ورسموا له الخطط لإفساده أخلاقيا ونفسيا وفكريا ، ليستسلم لهم ويوظف فكره ومواهبه لخدمتهم" [(٢)].

ورغم قائمة الاتهامات تلك فإن "المريد" لم يتساءل عن موقف شيخه وأستاذه من هذه المؤامرة التى حيكت حوله من جميع الأطراف ، هل كان واعيا ومدركا لذلك، هل كان موافقا أو مشاركا فيها أم أنه كان مستسلما ولم يجد أمامه مفرا ولم يستطع أن يقول لهم "لا" . أم أنه كان ساذجا وسعد بتلك المهمة .. أم؟!!

أثارت البعثة تساؤلات واتهامات - أيضا د. الطاهر مكى ، أستاذ الأندلسيات بكلية دار العلوم ، وجاءت على هذا النحو "من الذى أوحى بالبعثة ؟ وفكرتها؟ ودفع سيد قطب إليها؟ وماذا كانت الغاية الحقة من ورائها بعيدا عن الظاهر غير المقنع؟ [(٣)]" .

وكان منبع هذه التساؤلات لدى د. مكى أن البعثة ".. جاءت فجأة وشخصية ، فلم يعلن عنها ليتقدم لها من يرى نفسه كفئا ، وأن المتبعث تجاوز السن التى تشترط إدارة البعثات توفرها بكثير ، وأنه نقل عند تخصيصها له مراقبا مساعدا بمكتب الوزير" [(٤)].

طرح د. مكى تساؤلاته وهواجسه على أستاذه فى التاريخ الحديث شفيق غربال بمعهد الدراسات العربية ، أوائل الخمسينات، فأجابه غربال قائلا: إن سيد قطب كفاءة عالية، ويرجى منه خير كثير ، ولكنى آسف لأنه غير وفى ، وناكر للجميل ، فقد توسمت فيه أنا وإسماعيل القبانى المستشار الفنى للوزارة الخير والنفع فوفرنا له بعثة غير عادية إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليتصل بالحضارة الغربية وتقع عينه على ما فى العالم الجديد ، فيعمق فكره ، وتتسع نظرته ، فلم يكمل البعثة ، وها هو الآن يشتمنا" [(٥)] .

ويبدو أن د. مكى لم يقتنع بتلك الإجابة ، بل زادته شكوكا وأكدت لديه هذا

---

(١)د. صلاح عبد الفتاح الخالدى "أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب"٢٦.

(٢)المرجع السابق نفس الصفحة.

(٣)د. الطاهر مكى "سيد قطب وثلاث رسائل لم تنشر" . مجلة الهلال . عدد أكتوبر ١٩٨٦. ص١٢٤.

(٤)المرجع السابق . الصفحة نفسها.

(٥)المرجع السابق. ص١٢٥.

الاتهام.. "واضح أن ذهاب سيد قطب إلى الولايات المتحدة كان وليد تخطيط أمريكى خفى ، بعيد عن سيد قطب بداهة ولم يعرفه أكيد ، فمن الغريب والعصبية المعهدية على أشدها فى تلك الأيام فى وزارة المعارف . ومن إسماعيل القبانى بالذات ، أن تخصص بعثة لموظف من دار العلوم وفى مثل هذه السن" [١] .

ولم يقدم لنا د. مكى ما يثبت من الشواهد القرائن ذلك "التخطيط الأمريكى الخفى" تجاه سيد قطب، ولم يوضح لنا ما إذا كان المؤرخ المعروف شفيق غربال وإسماعيل القبانى - المربى المعروف والوزير فيما بعد - أداة من أدوات ذلك التخطيط أم كانا مشاركين ومتواطئين؟!! ومبعث تلك الشكوك فيهما، أنهما درسا فى بريطانيا ولم يدرسا فى الولايات المتحدة ، وأنه كان عليهما أن يبتعثا سيد قطب إلى بريطانيا يقول".. إنجلترا أقرب لنا ، وأرخص تكلفة ، كلاهما غربال والقبانى درسا فيها ، والمعهود أن يميل المرء، إن لم يتعصب إلى البلد الذى درس فيه؟" [٢] .

وقد تأثر د. محمد حافظ دياب، بتساؤلات د. مكى والاتهام الذى انتهى إليه، وأخذ به د. دياب فى كتابه عن سيد قطب [٣] .

الناقد والكاتب اليسارى أحمد عباس صالح، لديه اتهام أيضا لهذه البعثة، ولكن ابتعد عن المعايير البيروقراطية والمدرسية التى استند عليها د. مكى ، وتجنب حالة الانبهار بسيد قطب التى يعيشها د. الخالدى واستند على معايير وخطاب اليسار فى الستينيات ، يقول أحمد عباس صالح "سيد قطب لفت أنظار الاستعمار منذ وقت مبكر بكتاباته المناوئة للاشتراكية بدعوى أن الإسلام والاشتراكية متناقضان فدعى إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأمضى أكثر من عام، عاد بعدها لينشر كتابا مليئا بالمغالطات ضد العدل الاجتماعى وضد الفكرة الاشتراكية تحت ستار الدعوة الإسلامية" [٤] .

ولنلاحظ أن هذا الاتهام أعلن ونشر عقب إلقاء القبض على سيد قطب فى أغسطس ١٩٦٥ ، وأن المعلومات الأساسية فيه مغلوطة وغير دقيقة، ذلك أن سيد قطب لم يدع إلى الولايات المتحدة، ولكنه "أرسل" فى مهمة من قبل وزارة المعارف العمومية، وأنه قضى

(١)د. الطاهر مكى - مقال الهلال السابق. ص١٢٥.

(٢)المرجع السابق.

(٣)د. محمد حافظ دياب : "سيد قطب . الخطاب والأيديولوجيا". دار الثقافة الجديدة ط١ . سنة ١٩٨٧. صفحة ٩٥.

(٤)أحمد عباس صالح . مجلة الكاتب. عدد سبتمبر ١٩٦٥.

هناك عامين وليس أكثر من عام" كما أن كتابه عن "العدالة الاجتماعية فى الإسلام" والذى يشير إليه أحمد عباس ، قد كتبه وانتهى منه قبل أن يسافر، وكان الكتاب قيد النشر والطباعة حين سافر وفى العموم فقد رأى أحمد دياب أن سيد قطب كان أداة فى يد الاستعمار والولايات المتحدة ضد الاشتراكية وضد العدل الاجتماعى باسم الإسلام!! والحقيقة أن ذلك التصور هو أشد التصورات تهافتا لتلك البعثة.

الوحيد الذى وضع البعثة فى إطار عادى وابتعد بها عن الشكوك والاتهامات هو عباس خضر صديق سيد قطب .. فقد عبر عنها بالقول "اختاره لها وزير المعارف إسماعيل القبانى وكان هذا يقدره ويقربه" (١) .

كان سيد قطب واعيا ومنتقدا للسياسة الأمريكية المساندة لأطماع الصهيونية فى فلسطين ونشر فى ٢١ أكتوبر ١٩٤٦ مقالا فى الرسالة "الضمير الأمريكانى وقضية فلسطين" قال فيه "أخيرا يتكشف ضمير "الولايات المتحدة" الذى تعلقت به أنظار كثيرة فى الشرق، وحسبه شيئا آخر غير الضمير الإنجليزى والضمير الفرنسى وسائر الضمائر الأوروبية المعروفة".. ويضيف قائلا "لقد كان الكثيرون مخدوعين فى هذا الضمير ، لأن الشرق لم يحتك طويلا بأمريكا، كما احتك بإنجلترا وفرنسا وهولندا ، فلما بدأ الاحتكاك فى مسألة فلسطين ، تكشف هذا الخداع عن ذلك الضمير ، الذى يقامر بمصائر الشعوب، وبحقوق بنى الإنسان ، ليشترى بضعة أصوات فى الانتخاب".

ويتحدث عن فهم المصريين لأمريكا آنذاك قائلا " ونحن نعرف فى مصر "اللعبة الأمريكية" ونعرف أنها نصب فى "نصب" وقد حرمت هذه اللعبة لما فيها من غش وخداع، و"الضمير الأمريكانى" الذى تكشف عنه تصريحات "ترومان" لا يرتفع كثيرا عن هذه اللعبة الممنوعة".. ويتحدث عن نفسه هو ورؤيته للموضوع قائلا "كم ذا أكره أولئك الغربيين وأحتقرهم ! كلهم جميعا بلا استثناء: الإنجليز ، الفرنسيون ، الهولنديون ، وأخيرا الأمريكان الذين كانوا موضع الثقة من الكثيرين ، ولكنى لا أكره هؤلاء وحدهم ، ولا أحتقرهم وحدهم "إنما أكره وأحتقر أولئك المصريين وأولئك العرب الذين لا يزالون يثقون بالضمير الغربى عامة، وضمير الاستعمار على وجه الخصوص".. ويكشف أسباب احتقاره "لهؤلاء المصريين" قائلا "إنها الجريمة، تلك التى يقترفونها كل يوم فى حق شعوبهم المسكينة ، جريمة التحذير والتغفيل ، وإنامة الأعصاب على الأذى ، وهدهدة الآمال الباطلة ، والأمانى الخادعة، فى ذلك الضمير المأفون".

---

(١)عباس خضر، "هؤلاء عرفتهم". ص ٥٥.

شهد عام ١٩٤٨ حرب فلسطين ، أو ما أصبح يعرف باسم "النكبة" وقيام دولة إسرائيل، وكتب سيد قطب عدة مقالات حماسية فى الدفاع عن فلسطين ، قبل أن يتوجه الجيش المصرى إلى هناك ، وأثناء القتال واشتعال العمليات الفدائية هنا، وهى المقالات التى جمعت فيما بعد فى كتاب حمل عنوان "معركتنا مع اليهود"، وكان الدفاع عن فلسطين موقفا أصيلا لدى سيد قطب، ولم يكن هذا الهدف ضد القصر أو حكومة النقراشى ، فالملك فاروق هو الذى أصر على أن يتدخل الجيش المصرى فى فلسطين، وحكومة النقراشى "باشا" هى التى نفذت ذلك، وقام النقراشى بنفسه بإقناع أعضاء مجلسى النواب والشيوخ بضرورة المشاركة المصرية فى المعارك.

وغير حرب فلسطين التى انتهت بالنكبة ، شهد هذا العام إصدار مجلة "الفكر الجديد"، أسبوعية وكان رئيس تحريرها "مدرك الساوى" – وليس سيد قطب كما ذكر بعض الباحثين – وصاحب الامتياز حلمى المناوى [1] ، وكان سيد قطب أبرز كتابها ، كان هو الذى يكتب الافتتاحية ، بالإضافة إلى بعض المقالات، كتبها مقالا فى نقد ديوان على الجارم ، الذى صدر وقتها، كما نشر لنفسه قصيدة "عاطفية" بها.

كانت مقالات سيد قطب فى المجلة ، ساخنة وحماسية، تنتقد الأوضاع العامة فى مصر ولنتأمل الأفكار التى كان يطرحها.

فى العدد الثالث – ١٥ يناير ١٩٤٨ – كتب "وظيفتنا أن نحرر هؤلاء العبيد جميعا.. عبيد الشيوعية والفاشية والرأسمالية والإباحية (...) وظيفتنا أن نطلب العدالة الاجتماعية وسنقول فى مظالم المجتمع ما لا يجرؤ الشيوعيون فى مصر على قوله ، ولكننا لن نكون شيوعيين".

ويقول أيضا "وظيفتنا أن نفضح مطامع روسيا فى الشرق العربى ، وخيانتها للعرب فى مصر وفى فلسطين ولكننا لن نكون دعاة الاستعمار. وظيفتنا نؤرث الأحقاد المقدسة ضد الإنجليز وضد الأمريكان وضد الاستعمار فى كل مكان ولكننا لن نكون ذيلا للروس".

ويقول سيد قطب فى نفس العدد "وظيفتنا أن نثير الاشمئزاز ضد الإباحية والتبذل والانحلال الفرنسى والأوروبى عامة ولكننا لن نكون جامدين ولا متزمتين".

---

(١) كان الحاج حلمى المناوى من رجال الإخوان ، وسوف يتهمه سيد قطب بعد أن ينضم إلى الإخوان بأنه كان مخترقا من المخابرات الإنجليزية!!

وفى العدد السادس – ٥ فبراير ٤٨ – كتب سيد قطب مقالا عنوانه "أنتم أيها المترفون.. تزرعون الشيوعية زرعا فى مصر" قال فيه "ردوا للإسلام اعتباره، فقولكم إن الإسلام يسند الأوضاع القائمة لا يفيدكم شيئا فى الوقت الذى يسئ فيه لسمعة الإسلام ويطلق الأرواح الحائرة، الاستمساك بحبل الدين ، فالدين الذى يبيح أن تجوع الملايين دين لا يستحق الاحترام وحاشا للإسلام أن يقر هذه الجريمة ، فهو منها براء!!"..

وانتقد بحدة الأزهر ورجاله". أما أنت أيها الأزهر ، فقد أضعت الدين ، وأفسدت الدنيا بسكوتك المريب على مفاسد المجتمع ومظالمه ولكن حفنة من شبابك فى هذه الأيام تحاول أن ترد عليك كرامتك وأن تجرى الحياة فى شرايينك. فاشكرهم أيها الأزهر".

والشباب الذين يعنيهم هنا هم المجموعة التى كانت تنادى بإصلاح الأزهر.

فى العدد الثامن من "الفكر الجديد" – ١٩ فبراير ٤٨ – كتب سيد قطب مقالا عنوانه "تحرروا يا عبيد الأمريكان والروس والإنجليز" قال فيه "يا شباب الجيل الجديد، الإنجليزية خيانة، والأمريكية خيانة ، والشيوعية خيانة ، فلنطلب من العدالة الاجتماعية أقصى غايتها ، ولنحطم الأوضاع الظالمة التى تحجب هذه العدالة ولنصرخ فى وجه المستغلين صرخات من نار ولنبع أرواحنا فداء العدل.. ولكن فلنكفر بالجميع.. ولنؤمن بأنفسنا".

وفى العدد العاشر – ٤ مارس ٤٨ – قال سيد قطب فى مقاله مخاطبا الشباب بالأساس "اكفروا بالحزبية والطائفية وتكتلوا واجتمعوا.. اكفروا بكل الواردات الجاهزة المعبأة فى الخارج".

ويمكن أن نجمل الأفكار التى عبر عنها وصاغها سيد قطب فى مقالاته بالفكر الجديد على النحو الآتى:

* العداء الشديد للشيوعية ولروسيا . ولا تعنى المطالبة بالعدل الاجتماعى أن نكون شيوعيين، أو أن نصمت على "خيانة" روسيا لنا – عدم مساندتها لمصر ضد الإنجليز وعدم مساندة الفلسطينيين – ويحذر من أن ترف المترفين الزائد هو الذى يمكن أن يجلب الشيوعية علينا ويزرعها فى مجتمعنا.

* تجنب تماما استعمال كلمة "اشتراكية" واستبدلها بالعدالة الاجتماعية ، والحقيقة أنه أول من صاغ هذا المصطلح، حتى لا يلجأ للكلمة – الاشتراكية – التى يكرهها، رغم أن الشيخ محمد الغزالى – العضو البارز فى جماعة الإخوان المسلمين آنذاك – أصدر كتابا فى تلك الأيام عنوانه "الإسلام والمناهج الاشتراكية".

* كراهية الاستعمار ، والعداء الشديد له ، وتحريض الشباب ضده ، خاصة الاستعمار الإنجليزى والفرنسى.

* يعتبر "أمريكا" استعمارا يتساوى مع الإنجليز والفرنسيين والهولنديين والشيوعيين الروس ويجب أن نحذرهم جميعا ونتصدى لهم.

* الدعوة للكفر بالحزبية والأحزاب القائمة جميعها، ويدعو الشباب إلى تجنب تلك الأحزاب والابتعاد عنها والكفر بها.

* اتهام الأزهر بأنه أضاع الدين والدنيا ، لأنه يزج بالإسلام فى الأوضاع القائمة والقول إن الإسلام يساند تلك الأوضاع ويؤيدها، في حين أن الإسلام لا يمكن أن يقرها.

* ضرورة التصدى للإباحية والابتذال، في السلوك والأخلاق ، ولكن ليس معنى ذلك الجمود أو التزمت والتحجر.

وهى أفكار بعضها سياسي وبعضها أخلاقي واجتماعي، وهى أفكار تتسم بالعمومية الشديدة، ودون الدخول فى أى تفاصيل أو شروح ، ومن ثم فهى أقرب إلى الشعارات والندوات العامة ، كتبت بألفاظ عاطفية حادة مثل الكفر .. الخيانة .. وغيرها.

وبغض النظر عن تلك الحدة، إذا تأملنا تلك الأفكار أو النداءات لوجدنا أن القصر "السراى" والملك فاروق شخصيا ، والعقلاء من المحيطين بالقصر كانوا من معتنقى تلك الأفكار.

كان الملك فاروق يكره بشدة الشيوعية والشيوعيين ويخشى من أن يكون للشيوعية وجود واسع فى مصر، بل إن جزءا من كراهيته للصهيونية ووجودها فى فلسطين كان قائما على فهمه الخاص أن الصهيونية حركة شيوعية وأن أفكارها ستنتشر فى المنطقة كلها.

وكان الملك يمقت الاستعمار البريطانى لمصر وكان يشعر أن هؤلاء الإنجليز يفرضون وصايتهم وسيادتهم عليه، وهل ننسى محاولته الوقوف إلى جوار الألمان فى الحرب العالمية الثانية وما ترتب على ذلك من حصار قصر عابدين بالدبابات فى ٤ فبراير ٤٢ وإذلال المندوب السامى سيرمايلز لامبسون له؟!!

وكان الملك فاروق قد سئم الحزبية وضاق بالأحزاب خاصة حزب الأغلبية "الوفد" الذى كان يحاول أن يغل يده عن التصرف والسلوك بحرية وكما يهوى مع الدستور والقوانين.. والكفر بالحزبية فى النهاية يريح الملك من كل ذلك الصراع الذى تسببه له بعض الأحزاب.

أما باقى النداءات والانتقادات ، فقد كانت شديدة العمومية ، لم تتجه إلى شخص بعينه، ولا إلى مؤسسة أو جهة بعينها من مؤسسات الحكومة ، وكانت تلك النوعية من الانتقادات منتشرة وقتها ، ولا تغضب القصر أو الحكومة ، بل ربما وجدت فيها الحكومة تنفيسا لمشاعر البؤساء والناخبين، خاصة أنها تصدر عن كاتب ليس له انتماء حزبى معين ، ولا عضو فى تنظيم أو جماعة بعينها، ومن ثم فهو رأى فردى ، كذلك فإن هذا الكاتب - سيد قطب - ليس له ثقل مؤسسى أو فكرى ، لم يكن أستاذ جامعيا وكاتبا شهيرا مثل د. طه حسين حين أصدر "المعذبون فى الأرض" بل كان سيد قطب فى تلك السنة - لا يزال - من كتاب الصف الثانى، كان معروفا بين بعض الأدباء والمثقفين فقط، لذا فإن كل الشواهد تنفى أن القصر يمكن أن يضيق ذرعا بالكاتب إلى حد أنه طلب من الحكومة اعتقاله ، وأن الحكومة حارت ماذا تفعل مع هذا الطلب ؟!! بل إن العقلاء والأذكياء من المحيطين بالقصر كانوا يرون ضرورة وضع حد للفوارق الاجتماعية الرهيبة فى مصر ، وضرورة القيام ببعض الإصلاحات الاجتماعية حفاظا على العرش مما يمكن أن تجلبه عليه تلك الفوارق من اضطرابات أو تعطى الفرصة للشيوعيين أن يقفزوا فوق سطح المجتمع!!.

وهناك واقعة ذكرها عباس خضر عن سيد قطب فى تلك السنة تنفى أن يكون سيد قطب موضع غضب الحكومة، فقد كان عباس يتنزه ليلا فى منطقة "عين حلوان" بعد قيام إسرائيل، واشتبه فيه أحد رجال البوليس هناك فاقتاده إلى قسم حلوان ، وهناك استنجد بسيد قطب ليخرجه من هذا المأزق، وجاءه صديقه وأخرجه "كان لا يزال مأمونا موثوقا به عند السلطات".

أى أننا نستبعد رواية محمد قطب وصلاح الخالدى عن إبعاد سيد قطب عن مصر!! بل إن العكس يمكن أن صحيحا، فأمام الأفكار التى طرحها سيد قطب فى مقالاته، ونظرا لأنه كان لا يزال كاتبا من كتاب الصف الثانى ، يمكن أن يكون كلام شفيق غربال صحيحا - كان غربال كمؤرخ من المقربين إلى القصر وكان وكيلا لوزارة المعارف - عن أن سيد قطب كان واعداً، وأنهم دبروا له تلك المهمة ، ربما مكافأة وربما إعدادا وتربية لكوادر المستقبل، بإرساله إلى الولايات المتحدة ليتاح له الانفتاح على الحضارة الغربية ، وإحداث حراك ثقافى واجتماعى له ، ويعزز ذلك أن الحكومة وقتها كانت سعدية، وكان هو بعد أن انشق عن الوفد اتجه إلى هذا الحزب، وكان يعرف بشكل شخصى كلا من النقراشى ود. أحمد ماهر.

نحن أمام مسئول كبير ونافذ - شفيق غربال - أراد أن يجامل ويساعد موظفا لديه، يمتلك بعض الكفاءات ، ولنتذكر أنه إلى اليوم ، عادة ما يفوز موظفو الدواوين والوزارات

والهيئات الفنية والسكرتارية المعاونة بمكاتب الوزراء بالرحلات والسفريات والمهمات الوظيفية فى الخارج ، والمسألة تتم بدون مؤامرة كونية أو دولية ولا حتى محلية ، ولكنها المسيرة المعتادة للبيروقراطية المصرية ، ذات الصولجان الذى لا يهتز من عصر إلى عصر ولا من نظام سياسى إلى نظام آخر!!

وتبقى المشكلة التى أثارها د. الطاهر مكى ، حول مكان البعثة ، وهى لماذا الولايات المتحدة وليست بريطانيا؟!

كانت البعثات متوقفة أثناء الحرب العالمية ، وبمجرد انتهاء الحرب تدفقت البعثات عام ١٩٤٦ من مصر إلى كل من بريطانيا والولايات المتحدة.. وكان من بين الذين بعثوا إلى الولايات المتحدة فى تلك السنة صلاح قطب - مدير جامعة عين شمس فيما بعد - وأبو الفتوح رضوان عميد التربية بجامعة عين شمس، ورشدى خاطر والدمرداش سرحان وقدرى لطفى وعبد اللطيف فؤاد ، ومن بين الذين ابتعثوا إلى بريطانيا كان أسامة الخولى وحامد عمار. وسألت د. عمار فى هذا الأمر قال "كان المحظوظون والمرضى عنهم هم الذين يرسلون إلى الولايات المتحدة، فقد كان مرتب المبعوث إلى إنجلترا شهريا ٢٤ جنيها استرلينيا ، ومرتب الولايات المتحدة ٦٠ دولارا، فى حين أن تكلفة المعيشة لم تكن بهذا الفارق، كانت تزيد ٥٠٪ فقط فى الولايات المتحدة ، والذين ذهبوا إلى لندن، ذهبوا إلى بلد خارج من الحرب لتوه، مخرب ومدمر ، وكل شئ يتم الحصول عليه بالطابور وبالبطاقة كنا نحصل على بيضتين فى الأسبوع ونصف رطل من اللحم أسبوعيا ، وكان زملاؤنا فى الولايات المتحدة يرسلون إلينا متحدثين عن فخفخة الحياة ورفاهيتها إلى جوار ما كنا نعانيه، وكانت بريطانيا بلداً معتادا على الأجانب من خلال المستعمرات، ولذا كان وجودنا عاديا.. أما الولايات المتحدة فلم تكن قد تعرضت للضرب ولا دمرتها الحرب، ولم يكن الأمريكيون قد اعتادوا بعد على الغرباء والأجانب ، ولذا كان المبعوثون موضع ترحيب" (١).

وتؤكد شهادة د. عمار أن بعثة أو مهمة سيد قطب فى أمريكا كانت مجاملة له ومساعدة من شفيق غربال وإسماعيل القبانى.. ويزيد ذلك تأكيدا بقية شهادة شيخ التربويين العرب د. حامد عمار إذ يقول "كانت المهمات العلمية إلى الولايات المتحدة موجودة بين موظفى وزارة المعارف، من مدرسين ونظار وموجهين ، وكان متوسط المهمة ٦ شهور".

---

(١)لقاء مع د. حامد عمار ، يوم الأربعاء ١٩٩٩/٢/٢٤ فى منزله الساعة الواحدة والربع ظهراً.

لكن مهمة سيد قطب استمرت عامين ، قضى العام الأول فى تعلم اللغة الإنجليزية، وهذا يعنى أنه كان "مرضيا عنه" جدا من وزارة المعارف المصرية .

والحقيقة أن هناك اتجاها أخذ ينمو فى مصر بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فى أوساط سياسية وثقافية رأى أصحابه أن المستقبل بعد الحرب للولايات المتحدة ومعها، وليس مع الإنجليز الذين أخذت شمسهم فى الأفول ، وانحدرت فى اتجاه المغيب، بينما شمس الولايات المتحدة كانت تسطع ، ورأى هؤلاء أننا لن نردع الإنجليز ، ولن نتخلص منهم إلا باللجوء إلى الولايات المتحدة ، وكان الحزب السعدى ورئيسه النقراشى باشا رئيس الوزراء فى ١٩٤٨ من أنصار ودعاة هذا الاتجاه ، ولعل الملك فاروق نفسه كان من بين الذين يرون ذلك ويعتقدون فيه[١]. (وفى مطلع الخمسينيات لوح النحاس للإنجليز بأنه قد يضطر للتعامل مع روسيا والسوفييت فى تسليح الجيش خاصة). لكل هذه الأسباب لم يكن غريبا أن تكون بعثه "مهمة" سيد قطب إلى أمريكا.

والحقيقة أن سيد قطب خيب آمال غربال والقبانى فيه ، ذلك أن رحلة الولايات المتحدة– عاد فى ٢٣ أغسطس ١٩٥٠ – لم تغير أفكار قطب الأساسية، ولم يطلع على الحضارة الغربية ولم يدرسها جيداً، إنها جعلته يزداد كراهية ورفضا للغرب وللولايات المتحدة عموما.

ولعلنا نتذكر مقاله السابق فى الرسالة عن "الضمير الأمريكانى وقضية فلسطين" سنة ١٩٤٦ – والذى أعلن فيه أنه يحتقر ويكره الغربيين جميعا وبلا استثناء، ويكره ويحتقر المصريين والعرب الذين يثقون بالأمريكيين أو بالفرنسيين أو بأى غربى..!! ومنذ أن صعد الباخرة من الإسكندرية إلى أمريكا قرر فيما يبدو – ألا يرى فى رحلته إلا ما يعزز حالة الكراهية والاحتقار لديه.. لقد كان هناك ما يمكن أن يجعله يعيد النظر فى تلك الكراهية ، لكنه لم يشأ ذلك.

كان على الباخرة ستة من المسلمين بين ١٢٠ راكبا وراكبة ، وقرر هؤلاء الستة ، أداء صلاة الجمعة على ظهر الباخرة ، وسمح لهم القبطان بذلك. وكما روى هو فيما بعد – فى كتابه ظلال القرآن – أنه "لم يكن بنا أن نقيم الصلاة ذاتها أكثر مما بنا حماسة دينية إزاء مبشر كان يزاول عمله على ظهر السفينة، وحاول أن يزاول تبشيره معنا.." ثم يصف كيف تمت الصلاة "يسر لنا قائد السفينة – كان إنجليزيا – أن نقيم صلاتنا ، وسمح لبحارة

(١)شرح هذه النقطة بالتفصيل د.أنور عبد الملك فى كتابه "المجتمع المصرى والجيش" . الناشر دار المحروسة. طبعة ١٩٩٨.

السفينة وطهاتها وخدمها - وكلهم نوبيون - مسلمون - أن يصلي منهم معنا من لا يكون في "الخدمة" وقت الصلاة! وقد فرحوا بهذا فرحا شديدا، ويواصل الوصف قائلا: "قمت بخطبة الجمعة وإقامة الصلاة ، والركاب الأجانب - معظمهم متحلقون يرقبون صلاتنا! وبعد الصلاة جاء كثيرون منهم يهنئونا على نجاح "القداس"!!! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا!"

ولم يستطع سيد قطب أن يرى ما في هذا الموقف من دلالات عديدة، فالقبطان ، رغم أنه غربي "إنجليزي" ولكن سلك مسلكا متحضرا يكشف عن حالة من التسامح وعدم التعصب تجاه الإسلام والمسلمين رغم أنهم - على السفينة - كانوا أقلية صغيرة !! وعامة الركاب - غير المسلمين - لم يجدوا أي غضاضة في مشهد الصلاة ، بل تابعوه وهنأوا المصلين بإتمام الصلاة !!

قرر سيد قطب على ظهر السفينة أن يكون بتعبيره هو "المسلم الملتزم" .. ثم "أراد الله أن يمتحنني : هل أنا صادق فيما اتجهت إليه أم هو مجرد خاطرة؟" وكان الامتحان من خلال فتاة "جميلة فارعة الطول شبه عارية يبدو من مفاتن جسمها كل ما يغري ، وبدأتني بالإنجليزية : هل يسمح لي سيدي بأن أكون ضيفة عليه هذا الليلة؟ فاعتذرت بأن الغرفة معدة لسرير واحد، وكذا السرير لشخص واحد! فقالت : وكثيرا ما يتسع السرير الواحد لاثنين!! واضطررت أمام وقاحتها ومحاولة الدخول عنوة لأن أدفع الباب في وجهها لتصبح خارج الغرفة وسمعت ارتطامها بالأرض الخشبية في الممر، فقد كانت مخمورة" ويعقب على تلك الواقعة بالقول "شعرت باعتزاز ونشوة ، إذ انتصرت على نفسي ! وبدأت تسير في الطريق الذي رسمته لها". قرر سيد قطب أن تكون مهمته هي تجنب هذا المجتمع، والابتعاد بنفسه عما فيه ، يقول في رسالة إلى أحد أصدقائه عن أمريكا. "أكبر أكذوبة عرفها العالم"[1].

وفي رسالة أخرى إلى صديقه وتلميذه الناقد أنور المعداوي يقول له "هنا الغربة . الغربة الحقيقية. غربة النفس والفكر (..) هنا في تلك الورشة الضخمة التي يدعونها العالم الجديد . ويقول في نفس الرسالة عن المصريين الذين يمتدحون أوروبا وأمريكا" . إنهم لا يجدون لأنفسهم قيمة ذاتية" فيبالغون في تضخيم أوروبا وتضخيم أمريكا، علّهم يستمدون منها قيمة ذاتية! [2].

---

(١) الرسالة إلى محمد جبر في ١٢ نوفمبر ٤٩، نشرها د. الطاهر مكي في مقالة بالهلال. عدد أكتوبر ١٩٨٦.

(٢) الرسالة إلى المعداوي من كولورادو في ١٩٤٩/١٢/٢٣ - نقلا عن كتاب د. صلاح الخالدي "أمريكا من الداخل، بمنظار سيد قطب" ص١٥٧، ١٥٨.

وفى مقاله له بالرسالة نشر فى ١٩ نوفمبر ٥١ عن أمريكا التى رأيت يقول "يبدو الأمريكى.. بدائيا فى نظره إلى الحياة (..) تلك البدائية التى تذكر بعهود الغابات والكهوف.." ويقول فى نفس المقال "وإذا كانت الكنيسة مكانا للعبادة فى العالم المسيحى كله، فإنها فى أمريكا لكل شئ، إلا العبادة ، وإنه ليصعب عليك أن تفرق بينها وبين أى مكان آخر، معد للهو أو التسلية .

وفى مقال ثان، الرسالة عدد ٣ ديسمبر ١٩٥١ - يقول "الأمريكى بدائى فى ذوقه الفنى، سواء فى ذلك تذوقه للفن، وأعماله الفنية . ويقول فى مقال ثالث عن تجواله فى الولايات الأمريكية "لم ألمح خلال هذه الفترة الطويلة من الزمان ، ولا فى خلال تلك المساحة الشاسعة من المكان - إلا فى مرات نادرة - وجها إنسانيا يعبر عن معنى الإنسان ، أو نظرة إنسانية تطل منها معانى الإنسانية . ولكننى وجدت القطيع فى كل مكان، القطيع الهائج الهائم ، لا يعرف له وجهة غير اللذة والمال. لذة الجسد الغليظة التى ترتوى حتى تهمد ، وتهدر ريثما تستيقظ فى سعار" ورغبة المال التى تنفق الحياة كلها ، خيرها وشرها، ليلها ونهارها فى سبيل "الدولار" [١] .

على هذا النحو جاءت أوصافه ومشاهداته فى أمريكا ، وهى الأوصاف التى أطلق عليها د. على شلش "تصويرا كاريكاتوريا" [٢] .

ورغم قصر المدة التى قضاها هناك . قضى نصفها فى تعلم اللغة الإنجليزية[٣]. فإنه أصدر أحكاما قاطعة ونهائية ، وترك العنان لانطباعاته الأولية ، لم يهتم بأن يدرس تلك الحضارة الجديدة عليه ، ولا أن يتعمق فى جذورها ، ويتبين إيجابياتها وأوجه الخلل والقصور فيها ، إنه أغلق عقله عنها تماما، وترك العنان لمشاعره المسبقة التى سافر بها. ويبدو أنه كان سعيدا بذلك ، سعيد أن تلك الحضارة لم تمسه . يقول بعد عودته "إن أمريكا تمسخ وتشوه الذين يدرسون فيها ، والذين يتخرجون فى جامعاتها فيعودون إلى بلادهم بدون شخصية أو كيان، وبدون علم أو أدب أو خلق. إلا من رحم الله فثبته هناك على دينه ، واستعلى عليهم بإيمانه ، وعاد أكثر ثقة بدينه وأنفذ بصرا بما حوله" [٤] . والإشارة هنا إلى ذاته إلى تجربته هو فى الولايات المتحدة.

---

(١)الرسالة . عدد ٣ نوفمبر ١٩٥٢.

(٢)د. على شلش "التمرد على الأدب" ص ١٣٣. الناشر دار الشروق . ط ١ ١٩٩٤ .

(٣)أرسل سيد قطب من كولورادو "إلى أنور المعداوى بتاريخ ١٩٤٩/١٢/٢٣ - بعد أكثر من ١٣ شهراً ونصف الشهر من سفره يخبره أنه انتهى من تعلم اللغة الإنجليزية .

(٤)سيد قطب "معركة الإسلام والرأسمالية" . ص٦٥. الناشر دار الشروق.

إن رفض سيد قطب لأمريكا وللغرب، كان رفضا غير عقلانى، لم يقم على دراسة مكتملة أو خبرة حقيقية ، اعتمد هو فقط على عاطفته الجياشة وحماسه الحاد فقط، وبلغ رفضه هذا إلى حد يقترب من العنصرية ، فسوف يكتب بعد ذلك فى الرسالة - ٣ نوفمبر ١٩٥٢ - مقالا فى الرسالة عنوانه "عدونا الأول الرجل الأبيض" والعنوان دال وواضح ، ومن العنصرية والانفعالية الشديدة أن يعلن كاتب كراهيته واحتقاره لشعب بأكمله وعلى إطلاقه ، أو لمجموعة كاملة من الشعوب أو لحضارة بتمامها ، ولجنس أو لون من البشر بتمامه ، فإذا كان بين الغربيين من هم متعصبون أو استعماريون ، فبالتأكيد لا ينسحب هذا على "كل" الشعوب الأوروبية والولايات المتحدة.. إن هذا الموقف يتساوى منهجيا وعقليا ، بل ونفسيا مع موقف بعض المستشرقين الذين ذهبوا إلى أن العقلية العربية بإطلاقها غير قادرة على التفكير المنظم.. أو أن الحضارة الإسلامية حضارة لم تضف إلى الإنسانية شيئا، أو أن الإسلام دين لا يخدم حقوق الإنسان وغير ذلك من الادعاءات "العنصرية" والمتعصبة !!

كان هناك الكثير من العوامل والظروف السياسية والوطنية تبرر غضب المثقفين من الدول الاستعمارية ، ومن الولايات المتحدة بعد موقفها من إسرائيل سنة ٤٨، ولكن الغضب والرفض والاحتجاج شئ والكراهية العنصرية للغرب ولأمريكا شئ آخر مختلف تماماً!!

وقد ذهب أحد الباحثين العرب بجامعة ميتشجان بالولايات المتحدة إلى أن سيد قطب ربما يكون قد شعر فى أمريكا "بالتمييز العنصرى على المستوى الشخصى بسبب بشرته السمراء [(١)]" وسواء صح ذلك أو لم يصح ، فإنه لا يغير كثيرا من الأمر ، لقد سافر وهو "يكره أمريكا ، وقرر ألا يتخلى عن كراهيته .

إن البعثة حسمت أمورا عديدة داخل سيد قطب . أهمها "قرار الانقطاع كليا عن النقد والدراسات النقدية ، والابتعاد عن دنيا الأدب والأدباء، وقد أعلن ذلك من هناك فى رسالة بعث بها إلى أنور المعداوى، والرسالة كتبت أوائل مارس ١٩٥٠ قال فيها "تنتظر عودتى لأخذ مكانى فى ميدان النقد الأدبى؟

أخشى أن أقول لك إن هذا لن يكون ، وإنه من الأولى لك أن تعتمد على نفسك إلى أن ينبثق ناقد جديد!! إننى سأخصص ما بقى من حياتى وجهدى لبرنامج اجتماعى كامل،

---

(١)نقلا عن د. على شلش . مرجع سابق . ص١٥٣.

يستغرق أعمار الكثيرين ، ويكفى أن أجدك فى ميدان النقد الأدبى لأطمئن إلى هذا الميدان!".

وهو يعنى أنه سيترك النقد غير ناقم أو ساخط على هذا المجال، فهو مطمئن إلى النقد لوجود المعداوى، وفى الرسالة يقدم عدة نصائح للمعداوى، تفيده فى النقد ، وفى تعامله مع الأدباء، وسوف يلتزم سيد بهذا التعهد، التفرغ للبرنامج الاجتماعى . فقد أخذ يكتب المقالات التى جمعت فيما بعد فى كتاب "معركة الإسلام والرأسمالية" وكتاب "السلام العالمى والإسلام".

والتساؤل الذى يفرض نفسه هنا، لماذا وافق سيد قطب على البعثة – المهمة – من الأساس وقام بها.. خاصة أنه كان يعمل فى ديوان الوزارة، ولعله كان يعلم بها منذ المراحل الأولى لإقرارها، ويعلم أيضا أن بعثته هذه كانت ممولة من مشروع "النقطة الرابعة" الذى تبناه الرئيس الأمريكى "ترومان" ، بعد الحرب العالمية الثانية ، لقد كانت كل البعثات إلى الولايات المتحدة التى لا يحصل أصحابها على الماجستير والدكتوراه ممولة من هذا المشروع[1] .

كان سيد قطب منذ سنة ١٩٤٦ يعلن كراهيته للغرب كله، واحتقاره لأمريكا ، واحتقاره للمصريين الذين لا يشاركونه هذه المشاعر .. فلماذا إذن قَبِلَ البعثة، ولم يترك الفرصة لغيره، إن الرحلة لم تفده شيئا ولم تفد المجتمع، وبالتأكيد فإنه حصل على فرصة إنسان آخر كان يستحقها أكثر منه.

❖

(١)التأكيد للدكتور حامد عمار فى الحوار معه.



(٤)

نداء إلى محمد نجيب والضباط

" أيها البطل. أيها الأبطال.. إن الوقت لم يحن بعد كيما تعودوا إلى الثكنات"

" فلنضرب . لنضرب بقوة . ولنضرب بسرعة. أما الشعب فعليه أن يحفر القبور ويهيل التراب"

" ينبغي ألا نبحث عن سند في دستور انتهى أمره. بل أن نبحث عنه في منطق الحوادث. بغض النظر عما إذا كان الدستور يقره أو لا يقره"

سيد قطب

حين قام "الضباط الأحرار" بالانقلاب على الملك فاروق ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، كان نجم سيد قطب في تألق وفي صعود ، كان قد أخذ في الابتعاد عن الحياة الأدبية ، وبدأ يهجر دنيا النقد الأدبي منذ عودته من الولايات المتحدة في نوفمبر ١٩٥٠، وانصرف بمقالاته إلى انتقاد الأحوال الاجتماعية والسياسية العامة في مصر ، وكان قد أصدر قبل عام كتابه "معركة الإسلام والرأسمالية ، وكان الكتاب في الأصل مقالات نشرت أدان فيها الرأسمالية المصرية، والفوارق الضخمة بين الفقراء والأغنياء ، مع اتخاذ منحى إسلامي واضح في وسائل العلاج والحلول التي يقترحها لتلك المشكلات، وبهذا المعنى فقد كان الكتاب امتدادا لكتابه الأسبق "العدالة الاجتماعية في الإسلام".

لم يكن سيد قطب منتميا لأي حزب سياسي، ولا عضوا في أي جماعة ، وإن كانت جماعة الإخوان تعده من المتعاطفين معها وصديقا على البعد.. وكان بعض شباب الإخوان يتصلون به، معجبين ومقدرين منذ صدور كتابه "العدالة الاجتماعية في الإسلام"، بل إن عددا من شباب الجماعة استقبلوه بميناء الإسكندرية حين عودته من الولايات المتحدة.

وقد أعلن سليمان فياض سنة ١٩٨٦[١] أن سيد قطب – نقلا عن الأخير نفسه – كان على صلة بعدد من الضباط الأحرار قبل يوليو ١٩٥٢، وأن بعضهم كان يتردد على منزله بحلوان ويلتقون به ويجتمعون معه، وهذا ممكن ووارد ، فقد كان لعدد من هؤلاء الضباط اتصالات بعدد من الكتاب والصحفيين الذين انتقدوا سوء الأوضاع في مصر الملكية، كان عبد الناصر – مثلا – على اتصال بحلمى سلام وإحسان عبد القدوس وأحمد أبو الفتح وربما آخرين!!

وقد بالغ بعض الإخوان في الصلة بين سيد قطب والضباط إلى حد الادعاء أن منزله شهد "زعماء الضباط يستشيرونه في الإعداد للثورة ويدرسون معه وسائل نجاحها" [٢]. وذهب محمود العزب، مسئول الإخوان في بورسعيد، إلى أن سيد قطب استدعاه من بورسعيد فذهب إليه في حلوان يوم ١٩ يوليو ٥٢ ووجد عنده بعض قادة الثورة ،وبينهم البكباشي جمال عبد الناصر، وطلب إليهم سيد أن يستعدوا ليكونوا حماة "الثورة" فور قيامها وأن يحفظوا الأمن في بورسعيد[٣].

وهى رواية تفتقد الحد الأدنى من المعقولية، لأن سيد قطب آنذاك لم يكن عضوا بجماعة الإخوان ، ولم يكن له أن يصدر أوامر وتكليفات إلى أعضائها، والرواية تفترض أن سيد قطب كان يعلم – مسبقا – بموعد قيام الثورة ، وهذا أبعد عن المنطق لأن معظم الضباط الأحرار لم يكونوا يعلمون بموعد التحرك ، إلا قبل ساعات ولو أن الموعد كان معروفا لسيد قطب ولمن يتردد عليه منذ يوم ١٩ يوليو، لتسرب الخبر بشكل أو بآخر.. إن رواية سليمان فياض، التى سمعها من سيد قطب نفسه لا تحمل هذا المعنى ، إنها تعنى أن بعض الضباط الساخطين على الأوضاع كانوا يترددون على كاتب ساخط مثلهم، فيتناقشون "عموما" في كل الأوضاع والأحوال.

لكن الصحيح والثابت أن سيد قطب كان من أشد الكتاب تحمسا في تأييد ضباط يوليو، بعد قيامهم بحركتهم وخلع الملك فاروق. لقد أيدت الصحف الحركة ، وكتب بعض الكتاب مرحبين ومباركين ما حدث، لكن سيد قطب اندفع إلى التأييد الزاعق والمباشر، والكتابة بصوت عال وصاخب فيما يجب أن يحدث، وراح يؤيد ويؤيد على طول

---

(١)مجلة الهلال. عدد سبتمبر ١٩٨٦.

(٢)راجع. د. صلاح الخالدى "سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد" ص٢٩٩.

(٣)مجلة "كلمة الحق" أصدرها أحمد عطار في مكة، عدد "٢" . مايو ١٩٩٧، ذكرها صلاح الخالدى بالكامل ص ٣٠٠.

الخط، ويدافع عن الضباط الأحرار ضد كل من ينتقد تصرفا أو آخر لهؤلاء الضباط.

بعد خلع الملك واستقرار الأمور بدأ البعض يتمنون عودة الضباط إلى ثكناتهم، وأن تتولى حكومة مدنية المسئولية ، وأن يدعى مجلس النواب للانعقاد وممارسة دوره، لكن سيد قطب كان معارضا تماما لكل هذا .. وراح يطالب بأن يستمر الضباط وألا يعودوا إلى الثكنات، وأن تتحول الحركة إلى "ثورة" ، وألقى بمسئولية تحويل الحركة إلى ثورة على اللواء محمد نجيب.

وكان سيد قطب من أوائل الكتاب الذين طرحوا اسم "ثورة" على ما جرى وما يجرى منذ فجر ٢٣ يوليو، فقد كتب مقالا فى روز اليوسف - عدد ١٩ أغسطس ٥٢ - يصر على أنها ثورة وينبغى أن تكون كذلك ، ولم يكن قد سبقه إلى هذه التسمية - الثورة - سوى محمد فريد أبو حديد بمقال نشر فى مجلة الثقافة - عدد ٤ أغسطس ٥٢ - بعنوان "هذه الثورة" جاء فيه "إنها ثورة شاملة ، ولابد أن نعرف أنها ثورة شاملة وقد غلب على مقال أبو حديد الطابع الأخلاقى العام والإنسانى، وضعف فيه الجانب السياسى ، فهو يريدها ثورة لتطهير الأخلاق والسلوك، مما اعتراها من فساد وزيف ، بعكس سيد قطب الذى سيطرت عليه الآراء السياسية (العملية).

كان أول مقال ينشر لسيد قطب بعد قيام "الحركة" ، فى "الرسالة" - عدد ٢٨ يوليو ٥٢ - بعنوان "نقطة البدء" يتناول المقال قضية التعليم، وينتقد "فوضى المجانية" التى يطالب بها البعض - د. طه حسين - ويشيد بموقف الإخوان من التعليم ورؤيتهم له، والمقال لا علاقة له بالحركة، ولا بالحدث الجارى، والمؤكد أن هذا المقال كتب قبل قيام حركة الضباط ، فالرسالة كانت أسبوعية ، وتسلم مقالاتها قبل أسبوع، على الأقل - من صدور العدد.

لكن أول مقال لسيد قطب يدخل فى صميم الأحداث الجارية، كان بعد أسبوعين ، من إعلان الحركة، ونشر فى جريدة "الأخبار" يوم ٨ أغسطس ١٩٥٢، وكان عنوانه "استجواب إلى البطل "محمد نجيب" ، ونشر المقال مرفقا بصورة لكاتبه ، وجاء المقال أقرب إلى أن يكون خطابا مفتوحا إلى نجيب ، أعلن فيه الكاتب أنه ليس هو المتحدث إليه، وأنه لا يعبر عن فئة أو جماعة بعينها، ولكنه يتحدث باسم الشعب المصرى أو ."الملايين الذين باسمهم قد عزلت الملك الراحل، وباسمهم قد أعلنت ميلاد فجر جديد".

وأخذ سيد قطب يعاتب محمد نجيب وزملاءه، لأنهم اكتفوا بخلع الملك، ولم يواصلوا طريقهم فى التطهير ، بل أخذوا يتهيأون للعودة إلى الثكنات ويتركون المجال للسياسيين

ورجال الأحزاب، يقول سيد قطب "يا سيدى بدلا من أن تسيروا فى هذا الطريق حتى نهايته.. بدلا من تضربوا الحديد ساخنا.. بدلا من أن تقتحموا أوكار اللصوص (...) آثرتم أن تنسحبوا إلى الثكنات وأن تتركوا الميدان لرجال السياسة" ويصف هؤلاء السياسيين بأنهم. "الرجال الذين امتطى الملك الراحل ظهورهم فى أغراضه ، واتخذ منهم أدوات لإذلال الشعب وإهانته (..) الرجال الذين ساهموا فى تموين إسرائيل وأنتم مشتبكون معها فى حرب حياة أو موت. الرجال الذين مونوا الإنجليز فى القتال ودم الفدائيين يقطر. الرجال الذين لم يكونوا رجالا فى يوم من الأيام".

وهى صفات تحمل التوبيخ والتهجم الأخلاقى والانتقاص من كرامة هؤلاء السياسيين، والأخطر أنها تحمل اتهامات لهم ترقى إلى مستوى الخيانة للجيش والشعب لو صحت مثل تموين الإنجليز أثناء حرب ٤٨!!

ويرى الكاتب أن قرار العودة إلى الثكنات ليس فى يد هؤلاء الضباط، وهو هنا يفترض أنهم قرروا العودة فعلا، وإنهاء دورهم السياسى ، ويعلنها لهم، صريحا ومحذرا ، ".. باسم الملايين الذين لن يسمحوا لكم بالعودة إلى الثكنات ! لأن مهمتكم لم تنته بعد، لأن واجبكم قد بدأ وعليكم أن تكملوه .

وأخذ يوجه استجواباته لمحمد نجيب، ولم تكن استجوابات ، بقدر ما كان يقدم لهم خطة عمل وبرنامج يواصلون به مهمتهم .. وقد أضفى على نجيب ورفاقه ، جميل الصفات، وعظيم الثناء والإكبار.

الاستجواب الأول.. "هل حملت رأسك ورءوس معاونيك الأبطال فقط لمجرد عزل شخص فاروق عن العرش وإبعاده خارج الحدود (...) لكى تبقى لأفراد الأسرة الملكية ألقاب وراثية تولد معهم من بطون أمهاتهم ومخصصات لا تمحى محوا إنما تخفض تخفيضا"!!

أى أنه ليس المهم فقط خلع وطرد فاروق ، ولكن لابد من إسقاط ألقاب أفراد أسرة محمد على، مثل ، الأمير والأميرة ، والنبيل والنبيلة، وكذلك يجب إلغاء مخصصاتهم الملكية.. وهذا ما تحقق بعد ذلك ثم كان الاستجواب الثانى.. "هل حملت رأسك ورءوس معاونيك الأبطال، لتبقى الدوائر والتفاتيش وتبقى معها الملكيات الضخمة الفاحشة دون تحديد حقيقى للملكية الزراعية . اكتفاء بالتفكير فى ضرائب تصاعدية تحدد الدخل"؟.

فى البحث عن وسيلة للحد من الملكيات الضخمة فى ١٩٥٢، كان هناك اتجاهان - الأول يطالب بفرض ضرائب تصاعدية للحد من الدخول الضخمة، دون المساس بالممتلكات ، أو الاقتراب منها، وكان "الإخوان المسلمون" من أنصار هذا التفكير.

الثاني .. طالب أصحابه بضرورة التدخل الفورى لتحديد الملكية ، وما يزيد عنها تجرى مصادرته أو تأميمه لصالح المجتمع، وقد أخذ الضباط بعد ذلك بهذا الاتجاه ، الذى كان سيد قطب من دعاته ، وقد أعد راشد البراوى مشروعا لتحديد الملكية ، وهو الذى تحقق وأخذ به.

الاستجواب الثالث "هل حملت رأسك ورءوس معاونيك الأبطال لكى يجلس السياسيون المحترفون النحاس وهيكل وعبد الهادى ومن إليهم موقف القضاة من أحزابهم يطهرونها من التلوث.. فأنت وكلت إلى أمثال هؤلاء الرجال أن يتولوا تطهير أنفسهم كما يقال"! أى أنه لابد من الإطاحة برؤساء الأحزاب الكبرى ، ولا يجب أن يترك لهم مهمة تطهير أحزابهم لأنهم هم المعنيون بالتطهير ، والملاحظ أن الأسماء الثلاثة هى لرئيس حزب الوفد "النحاس" وحزب الأحرار الدستوريين ورئيسه د. هيكل ، وإذا كان الوفد هو حزب الأغلبية فإن الأحرار حزب الارستقراطية المصرية ، وإبراهيم عبد الهادى هو رئيس الحزب السعدى، وكان هذا الحزب فى الحكم حين دخل الجيش حرب فلسطين سنة ٤٨ وكان رئيسه النقراشي قد تعرض للاغتيال على أيدى الإخوان ، ورئيسه التالى إبراهيم باشا عبد الهادى هو الذى تولى تصفية الحساب مع الإخوان وقد أطاح الضباط بهم جميعا!!

الاستجواب الرابع والأخير "هل حملت رأسك ورءوس معاونيك الأبطال لتبقى جميع جذور الرجعية ، ثابتة فى أعماق الحياة؟"، وهو استجواب مطاط، فلا يحدد المعنى المقصود بجذور الرجعية ، فقد جرى التوسع فيها وأطلقت على جميع الأحزاب ، وجميع القيادات وعلى الدستور والقائلين بضرورة الالتزام به واحترامه!!

ولا ينتظر سيد قطب الإجابة من "البطل ومعاونيه الأبطال" ، بل يقدم هو الإجابة مرة واحدة ، وهى إجابة مباشرة وواضحة "لا يا سيدى وألف مرة لا. إن رأسك ورءوس زملائك الأمجاد لأعز علينا – نحن الشعب – من هذه الخطوات الأولى".

ويتدخل الكاتب ليقطع الطريق على حجج المعترضين على ما يطلبه ويريد تحقيقه من الضباط ، وكانت كلمة الدستور واحترامه هى مناط الاعتراض والتخوف، فنراه ينصح محمد نجيب قائلا "دعك يا سيدى من تلك الخدعة التى يطنطن بها رجال السياسة ليفرقوا فيها وثبتكم المباركة.. إن الرجعية اليوم تتستر وراء الدستور وتتثبت بهذه الخدعة لتعيش .. ويقول أيضا "إن الدستور الذى سمح بكل ما وقع من الفساد (..) هذا الدستور لا يستطيع حمايتنا من عودة الفساد إن لم تمضوا أنتم فى التطهير الشامل الكامل الذى يحرم الملوثين من كل نشاط دستورى ولا يبيح الحرية السياسية إلا للشرفاء".

وهكذا يعفيهم سيد قطب من الدستور والتزاماته ، فهذا "الدستور" لن يستطيع حماية الشعب من الفساد إن لم يتحركوا.. وأصبح نجيب وأصحابه أهم من الدستور وأكثر ضمانا منه. وبالقطع فإن الدستور لم يكن ليسمح لهم بتحقيق ما يطلبه منهم الكاتب ، فهو يريد أخيرا أن يحرم "الملوثين" وألا يعطى الحرية إلا "للشرفاء" .. ولم يحدد لنا الكاتب معنى "التلوث" وحدوده الذى يترتب عليه حرمان مواطن من النشاط الدستورى، والذى يبدأ بممارسة حق الانتخاب. كذلك فإن كلمة "الشرفاء" مطاطة، ونسبية وبلا معنى محدد، حتى نمنحها لإنسان وننزعها عن آخر، ويترتب على انتزاعها من إنسان : حرمانه من حرياته السياسية. لقد كانت دعوة صريحة للديكتاتورية والفاشية ، وتقسيم البشر إلى شرفاء وغير شرفاء ، وإلى أطهار وملوثين !!

ويكتمل المعنى الذى ذهب إليه سيد قطب بقوله "لقد احتمل هذا الشعب ديكتاتورية طاغية باغية شريرة مريضة مدى خمسة عشر عاما أو تزيد أفلا يحتمل ديكتاتورية عادلة نظيفة شريفة ستة أشهر. على فرض أن قيامكم بحركة التطهير يعتبر ديكتاتورية بأى وجه من الوجوه".

هو لا يرى أن القيام بحركة التطهير على النحو الذى شرحه وتمناه ديكتاتورية، ولو صح أنها كذلك فهى ديكتاتورية "عادلة نظيفة شريفة" وأن الشعب يمكن أن يحتملها ستة أشهر. وتمتلئ كلماته الأخيرة بأكبر عدد من المغالطات ، أهمها أن الشعب احتمل الديكتاتورية الطاغية ، الشريرة ، المريضة ، لمدة خمسة عشر عاما أو أكثر، وهو يقصد هنا، سنوات حكم الملك فاروق ، لقد قام هذا الشعب باحتجاجات ومظاهرات ، ورفض لذلك الحكم، وهذا الرفض هو الذى مكّن الضباط من التدبير والتخطيط والانقلاب بسهولة على الملك والإطاحة به بسهولة أيضا!! والأخطر من هذا هو تقسيم الديكتاتورية ، إلى عادلة وشريفة ، أو شريرة وظالمة!!

إلى هذا الحد كان حماس سيد قطب واندفاعه ، فلم يترك للضباط شيئا يريدونه أو يحلمون به إلا ودعاهم إليه "أيها البطل .. أيها الأبطال.. إن الوقت لم يحن بعد كيما تعودوا إلى الثكنات. إن حركة التطهير لم تبدأ بعد".

لقد صور البعض حديث سيد قطب عن الديكتاتورية النظيفة العادلة [1]، وكأن الضباط كانوا ديمقراطيين ودعاة ديمقراطية وحرية سياسية ، وكأنه هو الذى ضغط عليهم

---

(١)راجع، على سبيل المثال.. عبد الله إمام "عبد الناصر والإخوان المسلمون" ، ط٢. سنة ١٩٨٦. صفحة ٤٩.

ونصحهم بالديكتاتورية، والحقيقة أن هذا المقال "الاستجواب" يكشف عن توافق بلغ حد التطابق بين الكاتب وضباط مجلس القيادة ، ويبدو لى أن المقال كتب باتفاق وترتيب بين الطرفين ، خاصة أن القائد العام ــ اللواء محمد نجيب ــ كان قد أذاع بيانا فى منتصف ليلة ٣١ يوليو دعا فيه الأحزاب والهيئات أن تطهر نفسها، أما سيد قطب فكان على اتصال يومى بالضباط ، ولم يكن هو ديمقراطيا، ولا هم أيضا ، والتقى المزاجان فى هذه الجزئية !!

كانت فكرة "المستبد العادل" أو الديكتاتورية العادلة ، تتردد داخل العقل المصرى بين حين وآخر وتصور بعض المفكرين أن "المستبد العادل" يمكن أن ينقذ مصر من التخلف ويجعلها تلحق بركب التقدم ، ردد ذلك بعض الوقت الأستاذ الإمام محمد عبده فى أواخر القرن التاسع عشر ، وبدايات القرن العشرين، ثم تراجعت هذه المقولة مع ثورة ١٩والتجربة الليبرالية "المحدودة التى عاشتها مصر حتى سنة ١٩٥٢، ولكن ها هى الفكرة تعود ثانية مع حكم "الضباط الأحرار" ويقدمها لهم سيد قطب!!

يلفت النظر بعد نشر هذا المقال "الاستجواب" بيومين أن "على ماهر" – رئيس الوزراء ـ أعلن بيانا هاجم فيه بضراوة الأحزاب ومطالبا تلك الأحزاب بأن تطهر نفسها وقال "إن الأحزاب بوضعها الحالى مقضى عليها ، فإما تنظيما وازدهارا ، وإما زوالا وانهيارا!" وقال أيضا إن الشعب يضيق ذرعا بالأحزاب وأن الخصومة الحزبية وصلت إلى حد الجريمة، وإن الحياة البرلمانية لن تتطهر إلا بتطهير الأحزاب. وفى نفس اليوم أذاعت قيادة الثورة بيانا جاء فيه أن الانتخابات سوف تجرى فى فبراير ٥٣، لتقوم الأحزاب بتطهير نفسها، وأعلن إبراهيم عبد الهادى رئيس الحزب السعدى أنه تنحى عن الرئاسة فى ٢٨ أغسطس ، أما حزب الأحرار فقد أعلن رجاله بأنهم ليسوا فى حاجة إلى تطهير. وكان "الوفد" قد فصل ١٢ عضوا من أعضاء الهيئة الوفدية [١] يوم ٤ أغسطس ـ قبل أربعة أيام من نشر المقال ـ ليس بينهم أحد من القيادات الحقيقية للحزب . كان سيد قطب يكتب ويفكر كأنه واحد من ضباط مجلس القيادة!!

بعد المقال "الاستجواب" بأيام ، وقعت أحداث العمال فى كفر الدوار، والتى انتهت بمقتل جنديين من أفراد الجيش وجندى من الشرطة ، بالإضافة إلى ثلاثة من العمال وإصابة ٢٨ . وقعت أحداث كفر الدوار يومى ١٢ و١٣ أغسطس ، وكتب سيد قطب مقالا فى هذا الموضوع، نشر فى "الأخبار" يوم ١٥ أغسطس ، أى بعد يومين فقط، كان عنوان

---

(١)راجع فى ذلك . عبد الرحمن الرافعى "ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢" تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ – ١٩٥٩. صفحات ٥١، ٥٢، ٥٣. الناشر دار المعارف. ط ٢ – ١٩٨٩.

المقال "حركات لا تخيفنا".. قال فيه "هذه الحوادث المصطنعة فى كفر الدوار لا تخيفنا . لقد كنا نتوقع أشد منها. إن الرجعية لن تقف مكتوفة اليدين وهى تشهد مصرعها ، إنها ستدافع عن نفسها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة إنها ستضرب ضربة هنا وضربة هناك. ولكن هذا كله لا يخيفنا. لقد كسبنا المعركة من غير شك وكان أمر ا لله مفعولا.

ويتحدث سيد قطب عن سخط "الإقطاعيين والمستقلين والاستعماريين على الثورة" وكان متفهما لأسباب سخطهم ولكنه لم يتفهم أن يسخط العمال" العمال كلهم أو بعضهم كيف يسخطون ؟ العمال الذين أكل العهد السابق لحومهم وشرب دماءهم ووقف يحمى الجلادين وهم يلهبونهم بالسياط .. هؤلاء العمال ما الذى يمكن أن يسخطهم على العهد الجديد ؟ ما الذى يمكن أن يثير خواطرهم إلى حد الفتنة؟ ما الذى يمكن أن يقلقهم إلى حد التهور".

كان الرأى فى مجلس القيادة يتجه إلى مسئولية الشيوعيين عما جرى فى كفر الدوار، وتناول سيد قطب فى مقاله دور "الشيوعية المريضة" التى لا يهمها مصلحة العمال أو تحقيق العدالة الاجتماعية لهم ، ولكن يهمها – فقط – الوصول إلى الحكم .. يقول "لقد وقفت منذ ثلاثة أيام فقط فى مؤتمر الإخوان المسلمين الصحفى بشأن المسجونين السياسيين. وقفت أطالب للشيوعيين بالحرية كغيرهم ممن كانوا يكافحون الطغيان. وقفت أطلب لهم الإفراج بوصفهم من الشرفاء الذين ينبغى أن نقارعهم الرأى بالرأى والحجة بالحجة ولا نلقاهم بالحديد والنار. ولم أكن غافلا عن طبيعة الفكرة الشيوعية ولا عن اتجاهها الأصيل". ويستدرك قائلا "كنت أحترم الضمير البشرى عن أن يكون من الدنس إلى حد أن يحارب عهدا كالعهد الذى أشرق فجره منذ أيام" ثم يقول "كنت أحسب أن طهارة الحركة القومية الجديدة ونقاءها إلى هذا الحد النادر فى تاريخ البشر كفيل بأن يجعل المجرمين أنفسهم يتحرجون من الوقوف فى طريقه ، ولكن كم يخطئ الإنسان فى تقدير مدى الدنس الكامن فى قلوب الناس".

وينهى المقال بأن يطالب بالتعامل الحازم والباتر مع تلك الحركات "إن عهدا بأكمله يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فى قبضة قوية مكينة ، فلابد أن يرفس برجليه، وأن يطوح بذراعيه، ولكنه عهد قد انتهى . عهد قد مات ! إنما المهم الذى نملكه نحن أن نشرع فى الإجهاز عليه أن تكون المدية حامية ، فلا يطول الصراع ولا تطول السكرات ! لقد أطلع الشيطان قرنيه . فلنضرب . لنضرب بقوة . ولنضرب بسرعة ، أما الشعب فعليه أن يحفر القبر وأن يهيل التراب". وقد كان ، فتشكلت محكمة عسكرية بسرعة ، وأصدرت

أحكامها بسرعة أيضا بإعدام العاملين خميس والبقرى ، ونفذ الحكم. رغم تأكيدات كل المراقبين والدارسين إلى اليوم ببراءتيهما!!

أهم ما في هذا المقال الضمير الذى ورد في العنوان "لا تخيفنا" ويتكرر ضمير الجمع طوال المقال، والمفروض أنه يعود على ضباط القيادة، وهذا يكشف مدى توحد الكاتب بهم!!

جاءت أحداث كفر الدوار ، ومقال "حركات لا تخيفنا" ، لتقطع أفكار سيد قطب تجاه البحث عن سند وتوصيف نظرى لما يجرى منذ ٢٣ يوليو ، وها هو يعود إليه ، في مقال نشر في ١٩ أغسطس ٥٢ - مجلة روز اليوسف - حمل المقال عنوان "إذا لم تكن ثورة".. فحاكموا محمد نجيب!! استعمل في المقال كلمة "ثورة" لوصف ما حدث وما زال يحدث، بعد أن كانت التسمية "الحركة المباركة" ، وطالب في المقال بأن تمتد الثورة إلى كل مناحى الحياة في مصر" ويضع في المقال الأساس النظرى لما صار يعرف فيما بعد "شرعية الثورة" أو "الشرعية الثورية" في مواجهة الشرعية الدستورية".. يقول "لقد استغرقنا عقب عزل الملك الراحل في بحوث دستورية فقهية على أساس دستور سنة ١٩٢٣. لنجد مخرجا في مسألة الوصاية .. هذا الاتجاه "إلى دستور سنة ١٩٢٣ يحمل الدليل على أن عقلية الثورة تنقصنا. لقد كان ينبغى ألا نبحث لنا عن سند في دستور انتهى أمره، بل أن نبحث عنه في منطق الحوادث، وفي طبيعة الموقف ، بغض النظر عما إذا كان الدستور يقره أو لا يقره" ويضيف قائلا "إن منطق الثورة معناه استلهام الموقف الجديد، الذى لم يكن في حساب الدستور ولا واضعى الدستور . لأنهم كانوا يعيشون بمنطق غير منطق الثورة، وفي مجتمع غير مجتمع الثورة، إن دستور سنة ١٩٢٣ قد مات . مات في عالم الواقع ولن يمكن بعثه إلا إذا ماتت الثورة ، وانتكست الخطوات الحاسمة التى نقلت الوطن من وضع إلى وضع، وأنشأت مجتمعا جديدا، لا علاقة لهم بذلك الماضى".

والفكرة واضحة .. الثورة أو دستور ٢٣، لابقاء للاثنين معا، وما دامت الثورة قائمة فيجب أن نتخلص من هذا الدستور ، وألا نبحث فيه ، ولا نتأمل فيه لحل قضايانا وباختصار مات هذا الدستور.

ولم تكن تلك الفكرة التى طرحها وبشّر بها سيد قطب بعيدة عما يجرى بين ضباط القيادة ، ففى ١٤ نوفمبر ٥٢ أعلن على ماهر أن علينا أن نواجه حياتنا السياسية بدستور يتجنب تخلف دستور ١٩٢٣ عن مسايرة الديمقراطية الحرة في تطورها وأن دستور سنة ٢٣ قام على المبادئ التى كانت سائدة في القرن التاسع عشر ، ولم يعد صالحا للبقاء على

حالته في العصر الحديث [1].

وكانت كلمة حق يراد بها باطل.. والباطل هو أن يتصرف الحكام الجدد بمعزل عن أى روادع قانونية أو دستورية!!

وفى ١٠ ديسمبر أعلن اللواء محمد نجيب "باسم الشعب" سقوط دستور سنة ١٩٢٣ وأنه بات علينا أن نستبدله بدستور آخر جديد يتيح للأمة أن تحقق أهدافها ، حتى تكون بحق "مصدر السلطات"!!

ويفسر سيد قطب الانكباب على دستور ١٩٢٣ وغياب الوعى بمنطق الثورة لسبب أساسى هو "الطريقة السلمية الحكيمة التى تمت بها ثورة الجيش. دون إراقة دماء، ودون اضطراب في الأمن بل دون أن يحس أحد أن شيئا من يوميات حياته قد تأثر".

ويضيف قائلا "يبدو أن هذه المعجزة التى تم بها أعظم انقلاب فى تاريخ مصر الحديثة على الإطلاق. وبراءتها من كل ما يصاحب الثورات والانقلابات فى حياة الشعوب (..) هذا كله كان له أثر عكسى فى شعور بعضنا . أثر مضلل . ذلك أن الانقلاب لم يتم بالهزة العنيفة التى توقظ هذا البعد، وتشعره أن ما تم كان فى حقيقته انقلابا.. انقلابا حقيقيا. انقلابا كاملا (..) إن عهدا كاملا فى حياة هذا البلد قد مات . وعهدا جديدا قد ولد ومعه كل عناصر البقاء"إلى أن يقول "إن منطق الثورة لا يزال بعيدا عن إدراكنا.. (..) والذى يجب أن ندركه أن تغييرا شاملا لابد أن يقع، ولن يقع هذا التغيير الشامل. قبل أن نفقه منطق الثورة . وأن نكيف أنفسنا وفق هذا المنطق بلا تردد ولا إبطاء".

ويكمل شرح رأيه ومطلبه بأن تسود الثورة كل مناحى الدولة المصرية ، والأجهزة الحكومية فى مقال - روز اليوسف - عدد ٢ سبتمبر ١٩٥٢ - بعنوان "الثورة تتسكع على أبواب الدواوين".

يقول سيد قطب "هذه الثورة كلها بجلالة قدرها لا تزال - إلى حين كتابة هذه السطور - تتسكع على أبواب الدواوين . فى كل وزارات الدولة. ولا يسمح لها أحد بالدخول". والسبب فى هذا كلمة واحدة "التطهير" الذى لم يتم بعد ، ولم يحدث إلا فى الجيش "لم تسر فى طريقها الصحيح . لقد عرفت طريقها القويم الوحيد فى الجيش وحده.. إنها هناك بترت اللحم المتعفن كله واللحم الميت كله حتى وصلت إلى اللحم الحى "فوقف المشرط لينمو اللحم الحى نموه الصحيح.. لقد عزلت الكبار من فوق ثم

---

(١)راجع عبد الرحمن الرافعى ، مرجع سابق. ص٨٠.

نزلت طبقة حتى وصلت إلى الشباب.. مثل هذا التطهير لم يقع مثله فى الجيش فى دواوين الحكومة . وهذه هى العلة . علة الركود".

اللحم المتعفن والميت الذى يطالب ببتره هو "الجيل القديم" الذى يتولى أمور الإدارة العليا والمناصب العليا فى الدولة "وعود.. وعود.. وعود تلك هى عقلية الجيل الذى شاخ والذى لا يزال هو المسيطر على مقاليد الأمور فى الدولة. الجيل الذى يتكلم كثيرا ولكنه يصاب بالشلل عندما تكون المسألة مسألة أفعال لا أقوال.. الجيل الذى يقف أمام القوانين الرجعية وقفة التحرج والتقديس".

وهو يرى أن هذا الجيل ، لن يؤمن أبدا بالثورة ، ولن يتقبلها ولن يخلص لها". إن هناك عداء خفيا ضد الثورة يكمن فى مشاعر ذلك الجيل ومحال أن يتخلص من ذلك العداء الخفى وألف ثورة لا يمكن أن تغير عقلية أولئك الكبار".

كل هذا كان تمهيدا للمطلب الذى سيطرحه بشكل مباشر، وهو إقالة وإزاحة أفراد ذلك الجيل من مواقعهم تماما" لقد استطاع الجيش أن يستغنى عن خدمات مائة وسبعين من الكبار بعضهم لأنه ملوث ، وهؤلاء حولوا على التحقيق، وبعضهم لمجرد أنه لا يستطيع مجاراة الوثبة الجديدة وهؤلاء أحيلوا إلى الاستيداع أو سويت حالتهم المالية والمعاشية مثل هذا الإجراء تماما لابد منه فى الدواوين لابد من إزالة الطبقة الميتة والوصول إلى اللحم الحى .. إن الدولة تستطيع أن تحتمل معاشات مائة من كبار موظفى الدولة ولا تستطيع بقاء ذلك الشلل فى الجهاز الحكومى كله، هذا الشلل الذى يقتل الثورة أو يغلق فى وجهها الأبواب ويدعها تتسكع خارج الدواوين .

لم يستطع سيد قطب أن يفرق بين كبار قادة الجيش الذين عزلوا أو سويت حالتهم المالية وأحيلوا إلى الاستيداع وبين كبار موظفى الدواوين ، القادة فى الجيش، كان يمكن لهم أن يقوموا بانقلاب مضاد، أو ينظموا عصيانا مسلحا، ويحدثوا حربا أهلية داخل الجيش والشعب، وهؤلاء كانوا متورطين مع الملك فاروق، وكانوا سنده فى الحكم، ومن ثم كان ضروريا أمام محمد نجيب وأصحابه، تأمينا لحركتهم ولمصيرهم أن يتخلصوا من كل تلك القيادات.. أما كبار الموظفين "المدنيين" فلم يكن بيدهم سلاح ، ولا فى نيتهم الحرب، كان ما يأخذه عليهم سيد قطب ، احترام القوانين واللوائح ، فاعتبرهم رجعيين، معادين للثورة، ومعوقين لها، ومن ثم حق عليهم "البتر" أى الفصل والطرد من العمل!!

وفى مقال آخر - روز اليوسف عدد ١٩ أغسطس ٥٢ - يطعن فى كفاءة هؤلاء الموظفين ، وسبل ارتقائهم إلى مواقعهم تلك يقول: "إنه لينبغى لنا أن ندرك أن العهد

الماضى لم يكن يسمح لموظف أن يكون كبيرا ما لم يضمن أنه فقد كل عناصر المقاومة ، وأصبح قادرا على أن يساير موكب الرقيق. فكل موظف يرقى إلى درجة مدير عام فما فوقها لم يكن هناك بد من أن يمر اسمه على السراى. ليصدر بترقيته مرسوم. ومعنى هذا أن يكون حائزا للرضاء السامى.. وهذا يكفى لمعرفة نوع هؤلاء الرجال".

لكن ماذا عن حقوق هؤلاء الموظفين الذين يطالب بإنهاء خدمتهم ومعاقبتهم؟!!

لا شئ بالمرة!!

ويواصل الكاتب تحريضه على هؤلاء الموظفين ، ليصبح تحريضا على رئيس الوزراء – على ماهر – نفسه يقول "يجب أن نقول للرئيس على ماهر: إنه فى حاجة إلى تغيير أداة الحكم إذا كان راغبا فى طريقة تغيير الحكم. فى حاجة إلى اختيار وزراء من غير البينات التى اعتاد رؤساء الوزراء – قبل الثورة – أن يختاروا منها . وفى حاجة إلى اختيار الرءوس الأساسية الكبيرة فى الإدارة الحكومية كلها من عناصر متحررة لم يسبق لها أن صفيت فى مصفاة العبودية والفساد والشلل ، التى كانت تخرج كبار الموظفين فى العهد الماضى".

والقول يحمل نصحا لعلى ماهر، وانتقادا حادا للطريقة التى اختار بها وزراءه ويعود إلى تلك القضية فى مقال تال – روز اليوسف عدد ٢ سبتمبر ١٩٥٢ – "إن صنف الوزراء أولا يجب أن يتغير إذا أراد الرئيس على ماهر أن ترتفع وزارته إلى مستوى الثورة .. إنه فى حاجة إلى عناصر جديدة كاملة ، لا لمجرد الترقيع".

ولم تكن هذه مجرد آراء تقال فى الهواء ، ولا دعوات بريئة للإصلاح ، فبعد عدة أيام من نشر هذا المقال ، قدم على ماهر استقالته من رئاسة الحكومة، وقبلت فى نفس اليوم ، وشكل اللواء محمد نجيب الحكومة فى نفس اليوم أيضا – ٧ سبتمبر ٥٢ – ولتبدأ حركة اعتقالات كبرى بين عدد من الشخصيات الذين اتهموا بأنهم يعوقون عملية التطهير، وبلغ عدد المعتقلين "٧٤" شخصية ، وكان السبب الرئيسى فى استقالة على ماهر ، هو تباطؤه فى عملية التطهير، وتلكؤه فى إصدار قانون تحديد الملكية.

ومرة أخرى كان التفاهم والاتفاق كاملا، وبلغ حد التطابق بين الكاتب "سيد قطب" ومجموعة الضباط أو رجال الثورة!!

❖

(٥)

كبار الملاك والإصلاح الزراعى

" الثورة أقوى من كل ما يظنون إنها ستسحقهم سحقا"

" المثل التى تعرضها قيادة الثورة فى هذه الأيام مثل نادرة فى تاريخ البشرية كلها ؟ مثل لم تقع إلا فى مطالع النبوات"

سيد قطب

كانت المشكلة الاجتماعية ، والفوارق الحادة بين الأغنياء والفقراء، مصدر التأزم فى مصر قبل ٢٣ يوليو ٥٢، ولذا سعى الضباط من البداية إلى إيجاد حل لتلك الأزمة، وبعد أسبوعين بالضبط من قيام حركتهم بدأوا فى فرض بعض الضرائب والرسوم للحد من الدخول الكبيرة .. وبدأت تلك الإجراءات يوم ٦ أغسطس حين زيدت الرسوم الجمركية على بعض الواردات مثل الدخان.

وفكر الضباط فى اتخاذ إجراء سريع وحاسم لتحديد الملكية الزراعية، باعتبار أن الأرض الزراعية هى المصدر الأساسى للدخل وللعمل وللملكية فى مصر - وقد كان الوضع مختلا حقيقة، فقد كان هناك ١,٤٥٩,١٦٧ مالكا يملك كل منهم ما لا يزيد على نصف فدان، ومجموع ما يملكون أقل من نصف مليون فدان (٤١٣,٥٥١) . وهناك ٥٢٢,١٦٢ مالكا تتجاوز ملكية كل منهم نصف فدان، ليصل مجموع ما لديهم ٣٥٦,٦٩٥ . وتتصاعد الملكية إلى أن يكون هناك ٢٨٠ مالكا كانوا يمتلكون

٥٨٣,٤٠٠ [١] فدان. وتعددت الآراء فى هذه المشكلة ما بين رأى يذهب إلى الاكتفاء بفرض ضريبة تصاعدية على الدخل، حتى لا تتفتت الملكيات الكبيرة، ورأى ثان رأى ضرورة تحديد الملكية، وهذا ما أصر عليه الضباط، وكان الخلاف حول عدد الأفدنة التى يتم التحديد على أساسها هل تكون ٥٠٠ فدان للفرد أو ٣٠٠ فدان أو ٢٠٠ فدان .. وكانت هذه القضية مصدر قلق لدى كبار الملاك ، وموضع تحدٍّ حقيقى للضباط عليهم أن يتموه ليكتسبوا مشروعية أمام الطبقات الفقيرة فى المجتمع، وكان الضغط والمناورات قائمة بين الطرفين، الضباط وكبار الملاك .. وهنا تدخل سيد قطب فى الموضوع بالكتابة، محذرا ومنذرا كبار الملاك. وبأسلوبه العاطفى والمتحمس ، قالها لهم صريحة، إما القبول بما سيجرى وإلا فالمسألة بالنسبة لهم حياة أو موت.. ففى مجلة روز اليوسف - عدد ٢٦ أغسطس ١٩٥٢ - كتب مقالا "من مصلحة كبار الملاك أن يخضعوا للثورة".

وضع فى هذا المقال الأساس الذى يلزم كبار الملاك الخضوع وهو "أن الجيش كهيئة نظامية قد استطاع أن يحقق الثورة بدقة وإحكام ودون إراقة دماء، كما استطاع أن يسير فيها بعد ذلك بقدم ثابتة . وكلما تقدم فى الطريق تجلت عبقرية القيادة كما تجلت عناية الله الملحوظة.. "ومن ثم فإن كبار الملاك قد استفادوا من تلك العبقرية" لأن "رءوسا كثيرة جدا كانت ستطيح بالحق وبالباطل (..) ومن رحمة الله الملحوظة بهذا البلد - وبالرءوس الكبيرة فيه على وجه خاص - أن الذى تولى تحقيق الثورة هو الجيش باسم الشعب ولم يكن هو الشعب بأيدى الجماهير".

ولعله هنا يشير إلى الثورة البلشفية فى روسيا سنة ١٩١٧ والتى أطاحت بالرءوس الكبيرة، وكذلك الثورة الفرنسية فى ١٧٨٩ ، حيث أغرقت أبناءها والشعب فى حمامات من الدماء .. أما فى مصر فقد اختلف الأمر، ويضفى على ضباط القيادة هالة من الصفات الحميدة ترفعهم إلى ما بعد عنان السماء.. يقول "هذه اليد النظيفة الأمينة قد صانت الثورة من هذا كله، وليست المسألة هى النظام وحده، ولكنها النظافة والأمانة. فالمثل التى تعرضها قيادة الثورة فى هذه الأيام مُثل نادرة فى تاريخ البشرية كلها ، مُثل لم تقع إلا فى مطالع النبوات".

وإذا كانت القيادة على هذا المستوى الذى وصفهم به ، يصبح على الدنيا السلام، والأمان للجميع "يستطيع كل فرد وكل جماعة وكل طبقة أن تطمئن إلى أمانة هذه الحركة

---

(١)راجع "عبد الرحمن الرافعى" المرجع السابق. ص٦١، ٦٢، ٦٣.

ونظافتها ، وأن تطمئن في ذات الوقت إلى التعقل وضبط النفس والاعتدال الذى لا يتسم بالحقد ولا التهور ولا الانتقام".

وفى ضوء تلك المقدمات ، يكون موقف كبار الملاك الذى يريده لهم الكاتب "من الخير للملاك الكبار - من غير شك - أن يملكوا مائتى فدان أو أكثر أو أقل يحميها القانون، ويحميهم من أن يقاوموا الثورة المنظمة. فينتهى الأمر بما هو أشد من فقدان المائتى فدان".

لقد ذكر الكاتب هنا رقم "مائتى فدان" وهو الرقم الذى كان يصر عليه ضباط القيادة، في مداولاتهم ومشاوراتهم حول القانون .. وهذا لا يعنى - فقط - علمه بما يدور في الكواليس، ولكن يحدد موقعه منهم وإلى جوارهم.. فقد كان متبنيا لوجهة النظر التى تدور في أذهانهم .. والتحذير واضح.. ليفوزوا بالمائتى فدان ويحمدوا الله على نعمة الحياة..!!

وعلى هذا النحو تستمر تحذيراته وإنذاراته "من الخير للرأسماليين الكبار - من غير شك - أن يكتفوا بعشرين أو ثلاثين أو أربعين أو خمسين في المائة من دخولهم الخيالية. فى ظل القانون من أن يقاوموا الثورة المنظمة فينتهى الأمر بما هو أشد من ضريبة المال".

ويوجه نداءه إلى كبار الملاك وغيرهم من وجهاء المجتمع "أصحاب الجاه والسلطان الذين لا يعجبهم اليوم أن تنزل الثورة المنظمة بهم إلى صفوف الشعب، الذى وقفوا على جثته طويلا ليرتفعوا .. إنه من الخير لهم - من غير شك - أن يعيشوا مواطنين صالحين فى جو يطمئن كل إنسان فيه على روحه وماله وحرياته العامة من أن يتولى الشعب بنفسه تعليمهم كيف يعيشون".

وينتقل سيد قطب إلى الحديث عن الذين يعترضون على تحديد الملكية أساسا، ويصفهم بالحمق "الذين يقاومون الثورة المنظمة بنفوذهم وأموالهم . الذين يدسون لها فى الظلام ويحاولون تعويقها عن أهدافها (..) هؤلاء كلهم حمقى!! إنهم يحفرون قبورهم بأيديهم - إنهم لا يريدون أن يشكروا نعمة الله عليهم".

ويقولها بوضوح لكل الأطراف "من مصلحة الجميع أن يظل الزمام فى أيدى قوة نظامية ظاهرة نظيفة ، وألا يقف الحمقى في طريقها. فهى أقوى من كل ما يظنون . إنها ستسحقهم سحقا. لأنها قوة الشعب كله. وطريقة القوة المنظمة فى الشعب أسلم من طريقة الجماهير".

ويخيرهم بين قوة الجيش المنظمة الآمنة ، وقوة الجماهير التى تصاحبها الفوضى والعنف "إذا لم تكن إحدى الطريقتين فستكون الأخرى . وهذه هى الحقيقة الكبيرة التى يحسن أن يدركها الجميع".

ويواصل تحذيراته ويكررها "إننا نحذر اللاعبين بالنار . إنهم لن يحرقوا إلا أنفسهم".

ولم تكد تمضى أيام على تلك الحملة التى شنها سيد قطب ، حتى كان رئيس الوزراء على ماهر يقدم استقالته، لأنه تباطأ فى إصدار قانون تحديد الملكية ، والتقى مع عدد من كبار الملاك "الإقطاعيين" واستمع إليهم، واتهم أنه تعاطف معهم .. وشكل محمد نجيب الوزارة ، وكان أول قانون يصدره هو قانون تحديد الملكية والإصلاح الزراعى بمائتى فدان كما ذكر سيد قطب من قبل!!

وقد استوعب كبار الملاك الذين خضعوا للقانون تحذيرات الكاتب، وفهموا رسالته بوضوح، والتزموا الهدوء والنظام، فيما عدا واحد فقط منهم هو "عدلى لملوم" الذى قاوم تنفيذ القانون فكان أن تشكلت له محكمة عسكرية حاكمته فى "المنيا" وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة.

❖

(٦)

بدون أحزاب أفضل

"ما كانت ثورة الجيش الأخيرة إلا التعبير المباشر عن الكفاح ضد الوفد والأحزاب القديمة"

سيد قطب

كان رفض ضباط مجلس القيادة للدستور ورغبتهم فى التخلص منه ، يعود - فى المقام الأول - إلى أن هذا الدستور يلزمهم بدعوة مجلس النواب للانعقاد وكانت أغلبيته للوفد، أو إجراء انتخابات نيابية جديدة، ولو جرت فسوف تجئ بالوفد - حزب الأغلبية - وساعتها تئول الأمور إلى هذا الحزب ، ويصبح على زعيمه العنيد والقوى مصطفى النحاس أن يشكل الحكومة، ويعود الضباط إلى ثكناتهم ، ويواصل الوفد مفاوضاته مع الإنجليز ، ويستفيد الوفد بذلك من طرد الملك، وينفذ برنامجه الاجتماعى الذى بدأه عامى ١٩٥٠ و١٩٥١. ولا يصبح لهؤلاء الضباط أى دور !! لذا فإن قلق الضباط الحقيقى ومخاوفهم كانت من الوفد .. وكان لابد أن يقطعوا عليه الطريق، وهكذا ظهر لهم جناح من القانونيين ، يفتيهم بأن دستور ٢٣ قد انتهى أوانه ، وأن البلاد فى حالة ثورة ، وللثورة منطقها أو دستورها الخاص وكان كل من السنهورى (باشا) وسليمان حافظ فى طليعة هذا الاتجاه.

فى المقابل كان سيد قطب يحمل رفضا خاصا وكراهية للأحزاب القائمة، وخاصة الوفد.. وفى صفحة حياته يجرى الحديث عن انضمامه للوفد فور تعرفه على العقاد عقب مجيئه إلى القاهرة ، وأنه ظل عضوا فى الوفد حتى سنة ١٩٤٢ ، حيث استقال منه، ولم ينضم إلى أى حزب بعد ذلك .. والثابت لدينا فى مقالاته، هجومه الشديد على الأحزاب جميعها، وفى أحد مقالاته بالفكر الجديد - أوائل سنة ١٩٤٨ - دعا الشباب إلى أن

"يكفروا بالحزبية" وإلى أن يبتعدوا عن الأحزاب ويعتمدوا على أنفسهم..!! وكانت كراهيته للأحزاب تزداد مع اتجاهه إلى الإصلاح عبر الإسلام!!

وهكذا التقت كراهيته ورفضه للأحزاب مع مخاوف وقلق الضباط من الأحزاب عموما، ومن حزب الوفد خاصة.. ومع اقترابه الشديد من الضباط طغت تلك الكراهية وبدت أسلوباً واضحاً في مقالاته!!

نشر سيد قطب مقالا بعنوان "هذه الأحزاب غير قابلة للبقاء!" . في "روز اليوسف" عدد ٢٩ سبتمبر ١٩٥٢ - كشف فيه مشاعره بوضوح قائلا" لم يخب ظنى فى هذه الأحزاب القديمة التى قامت فى ظل ثورة سنة ١٩١٩ . كنت أدرك أنها أحزاب انتهت . تجمدت فقدت القدرة على الحركة والتماشى مع التطورات الجديدة، فلم تعد صالحة للبقاء ولا قابلة للبقاء".. ويشرح فكرته قائلا "لقد نشأت هذه الأحزاب فى ظل ثورة سياسية . ولكن خطوات الزمن قد سارت إلى الأمام. وشيئا فشيئا أخذ العنصر الاجتماعى يسيطر على الاهتمام الشعبى.. لأنه تبين للشعب - عن وعى أو عن غير وعى - أن الصراع الاجتماعى أشد تأثيرا فى حياته، وأن الصراع السياسى نفسه ليس إلا جزءا من ذلك الصراع الاجتماعى" وينهى تلك الفكرة موجها اللوم إلى الأحزاب القائمة لأنها "لم تنتبه إلى أن الأساس الذى قامت عليه يجب أن يعاد النظر فيه . بل إنها شيئا فشيئا أخذت تتحول إلى تروس صدئة فى الجهاز الاجتماعى الفاسد الذى يكافحه الشعب".

وبذلك تكون الدائرة قد اكتملت وأغلقت ، وضع المقدمات التى تقوده حتما إلى النتيجة التى يريدها وقررها سلفا ، لقد فقدت الأحزاب الأسس التى قامت عليها فالأساس السياسى كان ثورة ١٩ وقد انقضت الثورة وانتهت وحلت محلها ثورة أخرى .. والأساس الاجتماعى وقد تخلفت الأحزاب عنه ولم تدركه ، بل وقفت فى الجانب الذى كان الشعب يرفضه ويحاربه ، ومن ثم لم يعد هناك أى مبرر لبقاء ووجود تلك الأحزاب.. يقول "لقد قال القدر كلمته فى فاروق.. قالها واضحة صريحة مكشوفة . فأدركها الجميع. كذلك قال القدر كلمته فى الأحزاب القديمة. غير أنها لم تتضح بعد فى أذهان الكثيرين. إن القدر لم يقل هذه الكلمة اليوم. إنما قالها منذ زمن . وكل من كان له شئ من الوعى الاجتماعى قد أدركها حينذاك . إلا أن الزوج آخر من يعلم ! وكذلك لم تدركها الأحزاب حتى الآن.

كانت قيادة الثورة قد طلبت من الأحزاب أن تطهر نفسها، وكان هذا النداء "طعما" ألقى به الضباط إلى الأحزاب ، فإن تطهير نفسها ، يعنى أن فى صفوفها فاسدين، ومن ثم

تكون هذه الأحزاب قد شاركت في الفساد الذى حدث أيام الملك، وهذا يعنى أن ترحل تلك الأحزاب أيضا، وابتلعت الأحزاب الطعم، لتبدأ أولى خطوات إزاحتها ، لكن سيد قطب، كان آكثر وضوحا وصراحة من ضباط القيادة، وواجه الأحزاب بالحقيقة كاملة..
"هذه الأحزاب تحسب المسألة مسألة أشخاص . لذلك يحاول بعضها أن يجارى نغمة التطهير الجديدة بإخراج بعض الشخصيات الكريهة أو الملوثة". والقضية ليست كذلك، ولكنها كما قال سابقا "هذه الأحزاب ليست صالحة أصلا للبقاء، وليست بقادرة كذلك على البقاء.. إنها ستتفتت وتنهار سواء طلب الجيش ذلك أم لم يطلبها. لقد استوفت أيامها. وعاشت بعد أوانها . وسواء احتفظت برؤسائها أم لم تحتفظ فهى فى طريقها إلى الزوال".

ويؤكد أن الأحزاب لا تعبر عن الجماهير ولا عن مصالحها "لقد افترقت مصالح الجماهير عن المصالح الرجعية التى تمثلها هذه الأحزاب افتراقا بيّنا، وكان هذا يبدو واضحا فى السنوات العشر الأخيرة. وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكن هذه الأحزاب لم تكن لديها الحساسية الكافية لإدراك هذا الافتراق الجوهرى . لأن هذه الحساسية لا توجد عادة فى الأجهزة الرجعية الصدئة التى تعيش بعد أوانها".

والأحزاب المصرية كلها "كوم" وحزب الوفد "كوم" آخر!!

ورؤساء هذه الأحزاب جميعا "كوم"، ورئيس الوفد "مصطفى النحاس "كوم ثان"!!

كان النحاس زعيم الأمة المصرية ، ورغم أن زعامته اهتزت أثناء الحرب العالمية الثانية وبعد حادث ٤ فبراير ٤٢، فإنه قد استطاع استعادة تلك الزعامة فى سنة ١٩٥١ حين أقدم على إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ، التى كان هو نفسه من وقعها مع الإنجليز ، وسمح للفدائيين بالقتال فى القناة ضد الإنجليز ، واتخذ إجراءات عنيفة ضد الاحتلال وضد من يتعامل مع جنود الإنجليز فى مصر، وسحبت حكومة الوفد كل العمال المصريين من القاعدة الإنجليزية فى القناة. ولذا فإن الذين هاجموا الأحزاب، اختصوا الوفد وزعيمه بالهجوم ، وهكذا فعل سيد قطب "لقد كان المفهوم أنه الممثل للجماهير.. لكن ما الذى حدث فعلا؟ لقد حدث أن تحول إلى مجموعة من الرأسماليين والإقطاعيين المستغلين شأنه فى ذلك شأن حزب الأحرار الدستوريين الذى سمى فى وقت من الأوقات "حزب أبناء البيوتات" وشأن الحزب السعدى الذى تفرع منه".

ويقول أيضا "استكمل حزب الوفد الطابع الرجعى بانضمام الإقطاعى سراج الدين إلى صفوفه ، وبروزه فى هذه الصفوف. وسيطرته عليه فى النهاية ، وكانت هذه نهاية الوفد

أيضا، نهايته كحزب يعبر عن اتجاه الجماهير".

والحقيقة أن "الوفد" لم يكن فؤاد سراج الدين ، فقط ، ولكنه كان يعبر عن جناح داخل الوفد، وهم كبار ملاك الأراضي ، وهناك أجنحة أخرى كانت داخل الوفد [١]، من بينها – مثلا – "الطليعة الوفدية" وكانت مطالبهم نحو إعطاء الحزب بعدا اجتماعيا واضحا يهتم بالفقراء والمطحونين ، ويجارى الاتجاهات اليسارية التى أخذت فى الظهور والانتشار بعد الحرب العالمية الثانية وكان هناك جناح المتعلمين من غير أبناء كبار الملاك مثل د. محمد صلاح الدين. وكان الحزب "ممثلا لجبهة عريضة تمتد شمالا من كبار الملاك العقاريين ، إلى صغار الملاك الزراعيين جنوبا، ومن أقصى اليمين شرقا إلى أقصى "اليسار" غربا" [٢].

ورغم أن سراج الدين كان من كبار الملاك "الإقطاعيين" فإنه هو الذى أصدر أمره كوزير للداخلية إلى رجال البوليس فى الإسماعيلية بالبقاء فى مواقعهم والمقاومة ضد الإنجليز الذين قرروا طرد البوليس المصرى من بعض المواقع الحساسة [٣] .

ويزاوج سيد قطب بين الوفد والملك فاروق ، ويضع أوجه شبه بينهما، وصولا إلى النتيجة التى يريدها .. يقول "كان واضحا أن هناك تيارا شعبيا قويا يتجه إلى تحقيق عدالة اجتماعية ، وإلى التخلص من ضغط الإقطاع المرهق والرأسمالية الفاحشة ، ولكن فاروق كان يجئ في اللحظات الأخيرة بحافظ عفيفي ممثل الرأسمالية الطاغية ليكون رئيسا للديوان. بدلا من أن يكون بجانبه رجل معقول يفهم روح الشعب ويعمل على التلاقى معها فى منتصف الطريق".

وعلى هذا النحو – أيضا كما يرى سيد قطب – تصرف الوفد وتعامل مع المشكلة الاجتماعية التى كانت تؤرق المجتمع كله ، وتهدد سلامه وأمنه، هكذا كان حكم سيد قطب على الحزب العريق "كذلك صنع الوفد. جاء بسراج الدين. ابن أخت البدراوى ممثل الإقطاعية البشعة ليكون سكرتيره وصاحب النفوذ الأخير فيه. بدلا من أن يتحول إلى حزب شعبى يمثل الكفاح الشعبى لنيل عدالة اجتماعية. نفس الغلطة كأنما هو قدر حتمى. ورغم كل ما حدث فإن حزب الوفد مازال يلعب نفس الدور الذى يلعبه الملك". ويلح كثيرا وطويلا على نفس الفكرة ونفس المزاوجة والمشابهة، مكررا نفس الكلمات والجمل

---

(١)حول تركيبة الوفد فى تلك الفترة .. راجع محمد حسنين هيكل "ملفات السويس" الفصل السادس من الباب الأول ص١١٢ وما بعدها . الناشر مركز الأهرام ١٩٨٦.

(٢)راجع د. عبد العظيم رمضان. "عبد الناصر وأزمة مارس" . ص٤٧. روز اليوسف ١٩٧٦.

(٣)راجع في ذلك محمد حسنين هيكل. ملفات السويس . ص١٢٥.

تقريبا "الوفد كبقية الأحزاب التى شاخت، حزب قد انتهى منذ أن ربط عجلته بعجلة فاروق . فراح وزيره الأكبر سراج الدين ينفذ سياسة التحالف بين الوفد والقصر ضد كتلة الشعب (...) ويسَّر لحاشية فاروق الصفقات المريبة ليبقى الوفد فى كراسى الحكم أطول أمد ممكن، بينما كتلة الشعب الكبرى كانت فى طريقها للثورة على فاروق وحاشيته، وعلى العهد كله بكل مقوماته".

والحقيقة أن الوفد ، رغم أنه كان دائما حزب الأغلبية فإنه الحزب الذى استمر فى الحكم "أقصر" أمد ممكن ، وكان الملك يكنُّ كراهية خاصة لهذا الحزب ولزعيمه النحاس. وربما تكون تلك أحد أوجه الشبه بين الملك وضباط يوليو وسيد قطب.

ولعل هجوم سيد قطب الحاد على سكرتير عام الوفد فؤاد سراج الدين كان يرضى عدداً من العناصر حتى داخل قيادات الوفد، وجماهيره ، فقد كان هناك المنافسون لسراج الدين فى الوفد، والرافضون له بين صفوف الحزب وقواعده ، لكن هذه الانتقادات لسراج الدين لا تمس زعيم الوفد النحاس، ولا تقترب من مكانته لدى جماهيره ، ويبدو أن سيد قطب كان منتبها لذلك ، لذا فإنه انتهز فرصة ، أتاحتها له جريدة "المصرى" للهجوم على النحاس.. فقد كتب أحمد أبو الفتح مقالا فى "المصرى" يوم الأربعاء ٢٤ سبتمبر ٥٢ قال فيه "إنى أتمسك بمصطفى النحاس لأنى أعلم أن النحاس هو أفضل من يتولى زعامة الوفد"، وكان الجدل قد دار حول التطهير، وإخراج بعض الشخصيات العامة منه، كان الحزب قد أعلن قبل يوم من مقال أبو الفتح أنه يأخذ بسياسة الإصلاح الزراعى وتحديد الملكية ، لأنها تتفق مع ما يهدف إليه من إشاعة العدالة الاجتماعية ، والتقريب بين الطبقات . وكانوا فى الحزب يشعرون أن المقصود بالتطهير هو إخراج النحاس نفسه من الحزب، كما فعل إبراهيم عبد الهادى حين تنحى عن رئاسة الحزب السعدى. وفى هذا الإطار جاء مقال أبو الفتح ، فرد عليه سيد قطب قائلا "الذى لا أفهمه ، أن يظل شاب كالأستاذ أحمد أبو الفتح لا يدرك أنه ليس مصطفى النحاس وحده هو الذى انتهى ، إنما هو الوفد كله وعلى رأسه ذلك الشيخ الكليل".

ويواصل الهجوم على النحاس قائلا "أنا أوافق الأستاذ أحمد على أن مصطفى النحاس هو أفضل من يتولى زعامة الوفد. هذه حقيقة . فالوفد حزب شاخ وانتهت أيامه كبقية الأحزاب القديمة . ومصطفى النحاس رجل شاخ وانتهت أيامه كالوفد تماما".

وجاءت الضغوط والحملات بنتيجتها ، فبعد أيام من هجوم سيد قطب، كان الوفد يقدم إخطاره إلى وزير الداخلية يوم ١٦ أكتوبر ٥٢ بأن مصطفى النحاس لم يعد رئيسا

للحزب ، واختير له رئيس جديد هو عبد السلام فهمي، أما النحاس فقد صار "رئيسا فخريا" مدى الحياة، أى رئيسا بلا رئاسة ، ومن ثم صار - عمليا - خارج الميدان!!

شهدت تلك الأيام اتصالات مكثفة بين رؤساء وهيئات الأحزاب من جانب وضباط مجلس القيادة فى الجانب الآخر، كانت الاتصالات للبحث فى مستوى التطهير الذى تريده القيادة داخل تلك الأحزاب ، والشخصيات المطلوب التخلص منها وغير ذلك ، وفى تلك الاتصالات حدثت مساومات ومزايدات ومناورات ، ويبدو أن الضباط كانوا يريدون أن تقوم هذه الأحزاب بحل نفسها وبإلغاء وجودها وإعفاء مجلس القيادة من الإقدام على هذه الخطوة !!

كان سيد قطب على علم بتلك الاتصالات، فأخذ يقلل من جدواها ، ويتمنى إنهاءها، ويحذر منها، ففى مقال - روز اليوسف عدد ١٠ سبتمبر ٥٢ - بعنوان "تجريد الثورة من عناصر القوة الشعبية"، قال "أنا أعرف أن رسلا تذهب وتجئ بين قيادة الثورة وقيادة هذه الأحزاب الملوثة ، تزين لها أن تستمسك بالتكتلات الحزبية القائمة وألا تكسب عداءها . فى مقابل خضوع هذه الأحزاب لشروط معينة. مع بقاء رءوسها الملوثة . "وأى" متعقل" كان ينصح باستمرار تلك الاتصالات والعمل على نجاحها لأنها فى النهاية ، يمكن أن تنقذ الديمقراطية أو ما تبقى منها لكنه يراها "أخطر مؤامرة" .. يقول "هذه أخطر مؤامرة يجب أن تحذرها قيادة الثورة .. إن هذه الأحزاب عدوة للثورة بطبيعتها.. ولن تخضع لتوجيهاتها، إلا ريثما تمر العاصفة، وبعدها تستدير للثورة لتأكلها".

ويعلن هدفه ورغبته بصراحة تامة وبلا مواربة "إن هذه الطبقة التى انتفعت بالعهد الماضى يجب أن تحطم تحطيما لا هوادة فيه ولا تريث.. فهذا هو الطريق الوحيد لاتقاء النكسة . إن كنا جادين حقيقة فى حياة الثورة".

ولا يتردد سيد قطب فى أن يعلن أن هدف الثورة الحقيقى هو القضاء على الأحزاب القائمة، وإنهاء وجودها، ولنلاحظ هنا أنه يتحدث باسم الثورة يقول "ما كانت ثورة الجيش الأخيرة إلا التعبير المباشر عن الكفاح الشعبى فى صورته الأخيرة.. وهو كفاح ضد الإقطاعية الرأسمالية وضد استغلال النفوذ.. أى أنه كفاح ضد الوفد والأحزاب القديمة ، لا بوصفها الحزبى، فالجيش بعيد عن ذلك الصراع الحزبى ، ولكن بوصفها ممثلة لذلك العهد الذى قامت الثورة لتعلن نهايته الأخيرة".

ولا تترك لنا الأحداث فرصة للتحليل أو التكهن ، ففى ١٦ يناير ١٩٥٣ ، كان اللواء محمد نجيب ، القائد العام ، ورئيس الوزراء يصدر مرسوما بقانون يقضى بحل

الأحزاب جميعا ومصادرة أموالها لصالح الشعب، وقيام فترة انتقالية لمدة ثلاث سنوات. وتحقق لسيد قطب ما دعا إليه ونادى به.

وتخلص ضباط الثورة من الوفد، ومن زعامة النحاس، وباقى زعماء الأحزاب.. وانتهت مرحلة بأكملها ، واختفى جيل بأكمله من العمل السياسى. وفتح الباب على مصراعيه أمام التنظيم الواحد، والأوحد!!



(٧)

بعد أم كلثوم

يطلب منع عبد الوهاب وفريد الأطرش ومحمد فوزى وليلى مراد

* واجبنا حماية الجماهير من الأصوات التى تحبها كما نحميها من المخدرات.
* واجب الثورة يحتم عليها أن تفعله. مهما يكن فيه من اعتداء على حريات الأفراد.
* فلتخرس هذه الأصوات الدنسة إلى الأبد.

سيد قطب

هل لنا أن نتخيل الوجدان العربى والمصرى المعاصر بدون ألحان وأصوات أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وليلى مراد ومحمد فوزى وعبد العزيز محمود وغيرهم؟!!

هذا ما تمناه وطالب به سيد قطب ، فى تصوره للمجتمع الثورى، كما ينبغى أن يكون فى ظل حكم ضباط يوليو. لم يشغل سيد قطب نفسه بالقضايا السياسية والتغييرات الحكومية وإعادة بناء أجهزة الدولة وإلغاء الأحزاب ومصادرة صحفها فقط.. بل اهتم أيضا بإعادة صياغة أذواق ووجدان الناس ، وأعطي للدولة واجب التدخل والقيام بتلك العملية ،.بغض النظر عما تريده أذواق الناس (الجماهير)!!

كتب سيد قطب فى مجلة "الرسالة" - عدد ٢٢ سبتمبر ١٩٥٢ - مقالا حمل عنوان "أخرسوا هذه الأصوات الدنسة" ، والمقال مهدى إلى "وزير الدولة وضباط القيادة"،

وكان وزير الدولة آنذاك فتحي رضوان ، وكانت الإذاعة من بين تخصصاته ومهامه، والواضح أن الوزير وضباط مجلس القيادة هم المعنيون بالأمر والنداء في العنوان ، ونحن نعرف أن هناك مؤلفين يهدون كتبهم ومؤلفاتهم إلى شخص ما أو أشخاص معينين ، لكن هنا نحن بإزاء مقال يهدى إلى مجلس القيادة - ١٢ ضابطا - وقبلهم وزير الدولة ، وذلك لأهمية الموضوع - من وجهة نظر الكاتب.

يحمل سيد قطب على الإذاعة المصرية بضراوة ويوجه الاتهام إلى القائمين عليها "محطة الإذاعة المصرية لم تشعر بعد بأن هناك ثورة في هذا البلد. وقد ظل إدراكها لمعنى الثورة محصورا في إضافة بعض إذاعات جديدة إلى البرنامج العادى ، قائمة على جهد فردى بحت، لا على أساس انقلاب أساسي في عقلية الإذاعة"!.

ولم تكن هذه هي أول مرة يهاجم الإذاعة والقائمين عليها، فقد سبق له أن هاجمها وعلى صفحات الرسالة أيضا - عدد ٢٥ أغسطس ٥٢ - وكان السبب أنه كتب حديثا ليذاع في الثامنة مساء ١٠ أغسطس ولكنه لم يذع فدفع به إلى الرسالة، قائلا "إن جو المحطة لم يتطهر بعد".. ولا غرابة عنده أو مفاجأة ، ذلك أن "العقلية المشرفة اليوم على المحطة هي ذاتها العقلية التي كانت تشرف عليها منذ نشأتها" [1] ، ويستغرق الكاتب في الحديث عن المسئولين بالإذاعة ، وعمن حصل منهم على لقب "بك" ومن ينتظر منهم ذلك اللقب ، وأنهم تفانوا جميعا في إرضاء الملك والعقليات التي كانت مسيطرة على البلاد قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ [2] .

وقد انعكس أداء تلك العقليات والشخصيات على الإذاعة، فما زالت تبث على الناس ما كانت تبثه من قبل "الأصوات الدنسة التي ظلت تنثر على الشعب رجيعها خلال ربع قرن من الزمان هي ذاتها التي تصبها الإذاعة على هذا الشعب صبا، وتكثر من عرض أشرطتها المسجلة بحجة أن الجماهير تحب هذه الأصوات.

ولا يتركنا الكاتب نخمن أو نتوقع ، إذ يذكر بعض أصحاب تلك الأصوات، وهم "عبد الوهاب ومحمد فوزى وفريد الأطرش وعبد العزيز محمود وليلى مراد ورجاء عبده وفايدة كامل وشهرزاد وأمثالهم..!!" ويصب على هذا العدد من الفنانين ، أقذع الصفات

---

(١)الرسالة .. عدد ٢٢ سبتمبر ١٩٥٢.

(٢)حين قامت الثورة ، كان مدير الإذاعة سليمان بك نجيب، ونائبه على بك خليل، وكان المسئول عن إذاعة الأحاديث منذ سنة ١٩٤٧ الإذاعي والشاعر صالح جودت، وقد فصلوا فيما بعد في ٢٦ نوفمبر ١٩٥٣، في حملات التطهير.. (من حديث مع الإذاعي القديم على خليل في ١٩٩٩/٢/٢٧).

مثل أنهم "مخلوقات شائهة بائسة"، ويقول أيضا "إن هذا الطابور المترهل الذى ظل يفتت صلابة هذا الشعب ويدنس رجولته وأنوثته هو المسئول عن نصف ما أصاب حياتنا الشعورية والقومية من تفكك وانحلال فى الفترة الماضية ".. ويذهب إلى أن الفنانين كانوا أخطر على الشعب المصرى من الملك فاروق ذاته . يقول "إن فساد فاروق وحاشيته ، ورجال الأحزاب ومن إليهم ، لم يدخل إلى كل بيت ، ولم يتسلل إلى كل نفس، أما أغانى هذا الطابور وأفلامه فقد دخلت إلى البيوت وأفسدت الضمائر ، وحولت هذا الشعب إلى شعب مترهل لا يقوى على دفع ظلم أو طغيان.

وربما يكون الحكم الأخير على الشعب المصرى بأنه مترهل لا يقوى على دفع ظلم ، من أقسى الأحكام التى قيلت عن المصريين ، وأبعدها عن الواقع، فهذا الشعب "المترهل" هو الذى تحمل أبناؤه القتال فى القناة سنة ٥١، وواجهوا جنود الامبراطورية البريطانية التى خرجت منتصرة فى الحرب العالمية الثانية ..!! لقد تخلى هذا الشعب عن فاروق وساند الضباط ضد الملك، فهل كان شعبا مترهلا حين فعل ذلك؟!!

ويتوقف سيد قطب أمام محمد عبد الوهاب[1] ليخصه بالهجوم ، وما تحدثه أغنياته فى الشعب المصرى "عبد الوهاب ينفث فى روعه أن الدنيا سيجارة وكاس"، ولا يعجبه عبد الوهاب حتى لو غنى الأغنيات الوطنية والحماسية.. "هذا هو محمد عبد الوهاب يغنى أخيرا نشيد الحرية للأستاذ كامل الشناوى . فماذا صنع به ؟ لقد استحال فى حنجرته رجيعا ضارعا! ووصَّل إلى ضمير الشعب دعوة خانعة إلى تهويمة مخدرة ! ومع أن تلحين النشيد من الناحية الموسيقية فيه جهد وواضح! ولكن الكارثة كلها تكمن فى طريقة الأداء الصوتية التى انطبعت بالشجن الضارع المترهل المحلول!" ويكمل قائلا "عبد الوهاب رأس مدرسة، والآخرون ليسوا خيرا منه بل هم شر" والحكم – هنا – على أداء عبد الوهاب وعلى اللحن، لا يعتمد على دراسة وإلمام بفن الغناء وأصوله ، ولا دراسة لقواعد اللحن، ولكنه بنى موقفه على الانطباع السريع، ولو أن الكاتب معترض هنا على أداء عبد الوهاب الذى جاء فى نشيد الحرية "رجيعا ضارعا"، فإن عبد الوهاب يمكن أن يؤدى بأسلوب آخر ويمكن أن يغنى الفنانون كلمات أخرى، تدعو إلى الثورة والنضال وعدم الخنوع – مثلا – ويمكن للملحنين أن يقدموا ألحانا، أشبه بالمارشات العسكرية ، ولكن

(١) لم يذكر سيد قطب أم كلثوم بين هؤلاء الفنانين والفنانات، لأنها وقت كتابة هذا المقال كانت ممنوعة من الغناء فى الإذاعة ، حيث منع "ضابط أركان حرب الإذاعة" بعد ٢٣ يوليو ، وبمبادرة تلقائية منه أغنيات وأشرطة أم كلثوم باعتبارها مطربة "العهد البائد".

سيد قطب يرفض هذا كله ويعود إلى أسلوبه المفضل فى إطلاق الأحكام القاطعة، على هؤلاء الفنانين والفنانات يقول "إن هذه الأصوات بذاتها تكون جريمة وطنية، وجريمة إنسانية ، بغض النظر عما تقول ! فلقد تحولت هي ذاتها إلى ميوعة مدنسة حتي ولو كانت تنشد نشيدا حماسيا!!. ويؤكد أنه "لا سبيل لعلاج هذه المخلوقات الشائهة والزرية". وهي أحكام وصفات لو كتبها كاتب هذه الأيام لاقتيد إلى المحاكم بتهم السب والقذف والحض على ازدراء فئة من فئات المجتمع.

وهو يرى أن الوسيلة الوحيدة للتعامل مع هؤلاء الفنانين "أن تخرس هذه الأصوات الدنسة إلى الأبد، إذا أردنا أن نربى روح هذا الشعب تربية جديدة، وأن نبث فيه حياة جديدة". ويمكن أن نعد موقف سيد قطب من تلك الأصوات، موقفا شخصيا ورأيا ذاتيا ، لكن هناك جمهورا ضخما يتعلق بهؤلاء الفنانين ، ويستمتعون بما يقدمه المطربون من أغنيات وألحان وأفلام . وإذا كان الكاتب ناقد أدبى، ومن حقه أن ينتقد أعمال عبد الوهاب وفريد الأطرش والآخرين ، فهو أيضا - هنا - رجل سياسى ويتجه إلى العمل العام، فلابد أن يراعى مسألة "الجمهور" وموقف الرأى العام ، والحقيقة أنه يقدم لنا موقفا متكاملا وواضحا هنا يقول "الجماهير تحبها نعم ! كما أن هذه الجماهير تحب المخدرات ! ولكن واجبنا اليوم هو حماية هذه الجماهير من الأصوات التى تحبها كما نحميها من المخدرات التى تحبها كذلك.

وهكذا فقد ساوى بين الفن والمخدرات.. وإذا كان القانون يمنع المخدرات ويحرمها ويحمى الجمهور منها، فهكذا يجب أن نتعامل مع الفن!!

ولا نعرف حكما وموقفا متسرعا مثل هذا الحكم، فالمخدرات لا يقبل عليها إلا المأزوم وربما المرفّه أكثر مما ينبغى ، وهو حين يتعلق بالمخدرات ، يصبح مريضا، والمخدر يدمر العقل والنفس والبدن أيضا، وما هكذا الفنون ولا الغناء.. فالفلاح وعمال التراحيل وقتها كانوا يرتجلون الأغنيات ، ويرددون الأغنيات الشعبية ولم يكونوا مرضى ولا يتعاطون مخدرا، والأثر الإيجابى للفن وللغناء معروف فى تاريخ الإنسانية ، وفى الحضارة العربية - الإسلامية تحديدا.. هل نذكر زرياب المغنى الشهر الذى ذاع صيته فى الأندلس وفى أوج الخلافة الإسلامية؟!! ومن منا لا يذكر سيد درويش ودور الفن والغناء والموسيقى أيام ثورة ١٩١٩، والأغنيات العفوية التى أطلقها الشعب المصرى فى مقاومة المحتل والتصدى له.

الأخطر من ذلك ، مطالبة الكاتب أن تتدخل الثورة فى أذواق ووجدان الناس وتختار هم ما يستمعون إليه وما يستمتعون به، إنه يجعل ذلك واجبا من واجبات الثورة ، أى على

الثورة وضباطها القيام به وإلا عدوا مقصرين وغير ثوريين، ويلح على ذلك "واجب الثورة يحتم عليها أن تفعله - مهما يكن فيه من اعتداء على حريات الأفراد - فواجب الثورة أن تحمى الناس من أنفسهم أحيانا . كما تحميهم من المخدرات . والمخدرات لا يمكن أن تفسد ضمير الشعب وأن تفتت تماسكه ، كما يفسدها فيلم واحد، أو أغنية واحدة من أغنيات هذا الطابور!".

وسيضيف إلى قائمة الواجبات التى يمليها على الثوار واجبا آخر شديد العمومية وأكثر خطورة "واجبنا أن نصون ضمائر الناس وأخلاقهم من التميع والشهوات المريضة".

وهكذا صارت جموع الناس قصراً، ليس لهم أن يختاروا لأنفسهم وعلى الثوار "الحكام" أن يتدخلوا فى أخص خصائصهم ، وأن يحموهم حتى من أنفسهم، ويتدخلوا حتى فى ضمائرهم، وأخص خصائصهم ، ولا ينبغى للثوار أن ينزعجوا أو يعبأوا بحريات الأفراد ، فليعتدوا على تلك الحريات ، باسم حمايتهم من التميع، والتميع كلمة مطاطة جدا، ونسبية تماما، ولكن الكاتب لا يعبأ بكل ذلك.

لقد كانت دعوة صريحة لقيام محاكم تفتيش بالمعنى المباشر والصريح، واحتقار تام لجموع الناس ، ورغبة فى التدخل وقهر ضمائرهم وأذواقهم ووجدانهم ، بعد قهرهم سياسيا!!

ومن لطف الله بمصر أن ثوار ١٩٥٢ كانوا أقل ثورية مما أراد لهم سيد قطب ودعاهم، ومن حسن الحظ أنهم قصروا فى هذا الواجب الذى أناطه بهم وعهد إليهم به!!

❖

(٨)

شعراء "عبيد" وكتاب "الانحلال"

* أى استماع لهم هو خيانة للمُثل الجريرة!!

سيد قطب

امتدت نظرة سيد قطب إلى الأدب فى العهد الجديد.

وكان سيد قطب على دراية بالأدباء والشعراء، منذ أن كان ناقداً، وشاعراً وقصاصا.. ولكنه أيام ازدهاره الثورى لم يتعامل كأديب أو كناقد .. ولكن كقاض يصدر أحكاما نهائية وباتة .. لا تقبل استئنافا أو نقضا، ففى "الرسالة" - عدد ٢٥ أغسطس ١٩٥٢ - تحدث عن "أدب الانحلال" [1] ويعرفه بمصطلح آخر هو "أدب العبيد".. عبيد الطغيان أو عبيد الشهوات "ولا يقدم لنا إيضاحات أخرى حول المقصود بهذا الأدب ، لكنه يتحدث عن فترات ظهوره.. "حين تفرغ الشعوب من الرغبة أو من القدرة على الكفاح فى سبيل مثل أعلى . مثل أرفع من شهوة الجسد، وأعلى من تمكين الطغيان ، لتحقيق مطمع صغير، أو مطمع حقير، أى عندما تصبح "الدنيا سيجارة وكاس" أو تصبح الحظوة عند الطغاة أمنية المتمنى فى دنيا الناس".

فى هذه الحالة - فقط - ".. يظهر فى الأمة كتاب، ويظهر فى الأمة شعراء، ويظهر فى الأمة فنانون .. يلبسون هذا الفراغ من المثل العليا ، ويمثلون هذا الارتكاس فى حمأة

(١) كان من عادة سيد قطب أن يجمع مقالاته بعد نشرها فى الصحف فى كتب ، ولكنه تجاهل كل المقالات التى كتبها بعد ٢٣ يوليو ٥٢، وطوال عام ٥٢، والتى تتناول آراءه ومواقفه فى تأييد الضباط ، ومطالبه لهم ، بخصوص الأحزاب وكبار الملاك والفنانين والكتاب ، فيما عدا هذا المقال "أدب الانحلال" الذى نشره ضمن كتاب "دراسات إسلامية".

الشهوة، أو حماة العبودية . وعندئذ يستمع الناس إلى هؤلاء الكتاب والشعراء والفنانين، لأنهم يصورون مشاعرهم، ويصورون أحلامهم ، ويزينون لهم الراحة من الكفاح ، والاطمئنان إلى الدعة ، والإخلاد إلى حياة الفراغ والترهل والانحلال.."

ويرى "سيد قطب" أن الكتاب والشعراء ، سواء "سبّحوا بحمد الطغاة أو سبحوا بحمد الشهوات" يقومون بمهمة خطيرة بل ومدمرة .. فهم في الحالة الأولى "يزيفون الواقع على الشعوب ويخفون عنها شناعة الطغيان وقبحه ويصدونا عن الثورة عليه أو الوقوف في وجهه".

أما في الحالة الثانية فإنهم ".. يخدرون مشاعر الشعوب ويستنفدون طاقتها في الرجس والدنس ويدغدغون غرائزها ، فتظل مشغولة بهذه الدغدغة ، لا تفكر في شأن عام ، ولا تحس بظلم واقع ، ولا تنتفض في وجه طاغية لتناديه : مكانك . فنحن هنا! فالشعب المستغرق في ذلك الخدر اللذيذ ليس هنا، وليس كذلك هناك!".

ويرى أن "الطغاة" وحدهم هم الذين يساعدون هذا الصنف من الكتاب والشعراء والفنانين ويهيئون لهم السبل لذلك ، ويستشهد في هذه الحالة بالتاريخ الإسلامي ، حين قام الخلفاء الأمويون بإجزال المال والهبات على سادات وأشراف أهل الحجاز ليبعدوهم عن شئون السياسة والحكم .. ويرى أن التاريخ قد كرر نفسه في مصر "كان في مصر طاغية صغير، كان يعبد ذاته ، ويقدس شهواته ، وكان يريد أن يحول هذا الشعب إلى عشرين مليونا من العبيد" ويضيف قائلا" عندئذ انطلق كتاب وشعراء وفنانون يسبحون بحمد الطاغية الصغير، ويسجدون له من دون الله . ويخلعون عليه من صفات الله سبحانه، ما لا يجرؤ مسلم أو مسيحي على النطق به".

ويقول واصفا تلك الفترة التاريخية "لقد كانت فترة انحلال . وأدب انحلال. إنها العبودية ذات طبيعة واحدة. عبودية الشهوة أو عبودية الطغيان". ويقول "عندئذ استمع الناس إلى أغنيات تقول: "الدنيا سيجارة وكاس وانسى الدنيا، وما إلى ذلك من أدناس وأرجاس".

ويلاحظ الكاتب أن هؤلاء الأدباء" هم أنفسهم يلعنون الطاغية ويطلقون ألسنتهم فيه ويمزقون عنه أردية المجد الزائفة التي ألبسوها إياه ".

ولابد للمرء أن يحار لماذا لم ير سيد قطب في الأدب والشعر المصري ، سوى الذين امتدحوا الملك فاروق ، فإلى جوارهم كان هناك آخرون ، كتاب مهمون ، انتقدوا الأوضاع في عهد الملك ، وهناك الكثير من الكتابات في هذا الجانب ، ولنذكر هنا،

مجموعة الصور التى قدمها د. طه حسين فى "المعذبون فى الأرض"، والذى يراجع الدوريات ـ مجلات وصحف ـ فى تلك الفترة ، لابد أن يندهش من هذا المستوى لانتقاد سياسات القصر. بل والتهكم على "الملك " شخصيا!!

كان هناك من امتدحوا الملك ، وفى بعض الفترات كان الملك فاروق موضع الرضا أو التعاطف العام ، حين وقع حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ، مثلا ، وحين تأسست جامعة الدول العربية ، وعقدت أول قمة عربية فى قصر الملك بأنشاص سنة ١٩٤٤، وحين دخل الجيش المصرى فلسطين فى ١٩٤٨..!!

وإذا اعتبرنا أن كل من امتدح الملك ، كان كاتبا أو شاعرا منحلاً ويقدم أدب العبيد، فإن أول من يؤاخذ بهذا هو سيد قطب نفسه ، الذى امتدح الملك فاروق فى قصيدة سنة ١٩٣٨ حين تم زفاف فاروق إلى زوجته الأولى الملكة فريدة ، وامتدحه مرة ثانية سنة ١٩٤٧ حين استضاف الملك الأمير عبد الكريم الجزائرى، وقد وصف الملك فى هذه القصيدة بأنه "راعى العروبة الأول"[١] .

بل إن العقاد امتدح الملك حين زفافه الأول وقال "والأمة المصرية تبتهج بزفاف المليك الفاروق حفظه الله وأدام أيامه [٢]"وقال أيضا" زواج الملوك المصريين أقرب إلى الديمقراطية وإلى الحرية وإلى المعانى الإنسانية مما يكون بين الأمم الغربية" [٣] .

وفى تلك الأيام ـ سنة ١٩٣٨ كان سيد قطب يخوض معركة ضارية على صفحات الرسالة ، ضد كاتب ميت ـ الرافعى ـ لصالح العقاد ـ وأضفى على العقاد الكثير من صفات الاكتمال والتفرد .. ولم يعترض على العقاد الذى امتدح الملك .

فهل كان العقاد وسيد قطب حين ذاك يكتبان أدب العبيد والانحلال؟!!

والحقيقة أن الصفات التى منحها سيد قطب للملك مثل أنه أراد أن يحول الشعب إلى ٢٠ مليونا من العبيد ، وأن الشعراء والفنانين كانوا يسجدون له من دون الله ، هو كلام مغلوط، وغير دقيق، إذ يجافى الواقع .. إن الملك كان يسمع بأذنيه ويقرأ ما يقوله الشعب عن والدته ، الملكة نازلى ، وعنه ـ شخصيا ـ حين انفصل عن الملكة فريدة ، ورغم ذلك لم

---

(١)راجع شريف يونس. ص٢٠ "سيد قطب وأثرة فى الفكر السياسى فى مصر" نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة فى مايو ١٩٩٤.

(٢)الرسالة ـ عدد ٢٤ يناير ١٩٣٨ . ص١٢٦.

(٣)الرسالة العدد السابق.

يفتح - أبواب السجون لمن تكلموا. ولم يعلق المشانق .. ولم يسجد له الكتاب!!

وكان سيد قطب يجيد وضع المقدمات والفرضيات المغلوطة ، ثم يبنى عليها نتائجه ، مثل أن الأدب يتحدث عن الشهوات ، يصرف الناس حتما عن التصدى للظلم أو الثورة عليه ، أو أن الأمم تتجه إلى هذا اللون من الأدب حين تفقد الحماس للبحث عن مثل أعلى .. وكان الأجدر به كناقد، أن يتجنب تلك الانطباعات المتهورة ، ويبحث فى أصول الظاهرة الأدبية والمؤثرات الاجتماعية والسياسية ، ففى فرنسا ، أثناء النضال ضد الاحتلال النازى كان هناك هذا اللون من الأدب، ولم يصرف الفرنسيين عن التطلع إلى التحرر والاستقلال ، وفى الحضارة الإسلامية ، كان هناك ما عرف باسم أدب المجون، والغزليات ، ولم يحل هذا دون تقدم تلك الحضارة وتطلع العرب والمسلمين إلى مُثل عليا فى الحضارة وفى الأخلاق وفى الثقافة. وفى الحالة المصرية ، فإن محمد عبد الوهاب ، الذى يستشهد سيد قطب بأغنيته - إنسى الدنيا - هو نفسه الذى غنى فى تلك المرحلة "نشيد الجهاد" وهو الذى غنى قصيدة أحمد شوقى "دمشق" والتى تندد بالاحتلال الفرنسى للمدينة العربية العريقة وغيرها من القصائد الوطنية ، وغنى "كليوباترا" التى تمجد التاريخ المصرى القديم .

إن هناك أسبابا إنسانية واجتماعية أعمق لظهور أدب المديح والثناء، والأدب الذى يتناول المسألة الجنسية فى حياة الفرد والمجتمع.

وحتى حين راح هؤلاء الشعراء يهاجمون الملك بعد رحيله، فإنه لم يفترض أنهم ربما شعروا بخطأ موقفهم السابق وعدلوا آراءهم ، ويرفض تماما البحث عن أعذار لهم يقول "كان باستطاعتهم أن يسكتوا ، إن لم تبلغ بهم الرجولة أن يكافحوا" ويرى أن أى اعتذار لهم أو عنهم، هو فى الحقيقة ".. تبرير للجريمة التى يمكن اغتفارها للتجار لا لقادة الفكر وزعماء الأدب والكتاب والشعراء والفنانين.." ويرى أن لا أمل منهم".. إن الديدان والحشرات التى عاشت طويلا فى المستنقع كفيلة بتدنيس كل مقدس".

ويقدم تفسيرا نفسيا لانتقادهم الملك بعد سقوطه".. هذا نفسه لون من ألوان الانحلال، وصورة أخرى لأدب الانحلال . هؤلاء لم يخرجوا فى الأولى أو الثانية عن أن يكونوا عبيدا منحلين. عبيدا يحنون ظهورهم لسوط السيد يلهب به جلودهم ، فلما أن سقط السوط من يده - رغم أنفه - التقطه العبيد، وداروا به يبحثون لهم عن سيد جديدا.. سيد جديد يلهب جلودهم بالسوط، ليحرقوا له البخور ، وينثروا من حوله الزهور "!

ورغم قسوة الأوصاف وحدة الكلمات ، إلا أنه تناول ظاهرة تحول بعض الكتاب، بين مديح من يحكم ثم الانقلاب عليه بعد أن يرحل، وهذه الظاهرة كانت موجودة طوال مراحل التاريخ، لأنها مرتبطة بجوانب الضعف الإنساني لدى البعض، ووقت كتابة هذا المقال، كانت الصحف قد أخذت فى نشر أخبار ، معظمها، غير صحيح ، ضد الملك فاروق ، مثل اعتزام الملكة ناريمان طلب الطلاق - بعد شهر من سقوط الملك - ومثل أنهم وجدوا فى قصر الملك ألف رابطة عنق!! وعدة مئات من القمصان وقماش البدل.. وغير ذلك.

لقد كانت هناك بالفعل - حالات تحول فجَّة فى الولاء لدى بعض الشعراء والكتاب، مثلا الشاعر والناقد طاهر الطناحى ، الذى أضفى على الملك فاروق فى قصائده ومقالاته ما شاء من آيات المديح والثناء ، فلما قامت الثورة ، إذا به يكتب فى "الهلال" - أول أكتوبر ١٩٥٢ - عن العهد الجديد ، ثم يعرج على الملك ليقول "كانت مباذل ذلك المخلوع" وسياسته الخرقاء وعصابته الفاسدة قد قوضت عرشه ومكانته فى نفوس المصريين وغير المصريين ، وآذنت بسقوطه وزواله قبل أن يزول.

وكان هناك آخرون مثل "طاهر الطناحى" ولكنهم كانوا من غير الكتاب الكبار!!

وربما لأن هؤلاء الذين بالغوا فى إطراء وتملق الملك، شعروا أنهم يمكن أن يكونوا متهمين فى العهد الجديد، حتى ولو لم يوجه إليهم أحد الاتهام ، فسارعوا بالتنصل من الملك ومن ثم مما كتبوه من قبل ، فانهالوا على الملك فاروق، فى تشف وسخرية عالية جدا.."!

ولم يكتف هؤلاء بذلك ، ولكنهم اندفعوا إلى المبالغة فى امتداح اللواء محمد نجيب القائد العام.. وكانت بعض الصحف والمجلات تحرض على الأمرين .. المبالغة فى مهاجمة فاروق.. والمبالغة فى امتداح نجيب.!!

فقد نشرت مجلة "الاثنين" - عدد ١ ديسمبر ١٩٥٢ - تحقيقا مع أحد المواطنين ، أسمته "مضحك الملك" وكان والده يعمل مع الملك فؤاد، وبطولة هذا المواطن ، أن طفله كان اسمه "فاروق" ، فلما خلع الملك ، سارع إلى الجهات المختصة ، لتغيير اسم ابنه إلى سيد ، حتى يتخلص نهائيا من اسم الملك ، الذى لم يعد يطيق مجرد سماع اسمه!!

ونشرت نفس المجلة فى العدد التالى ، رسما كاريكاتيريا - يصور أهرامات مصر الثلاثة، ويقف إلى جوار الهرم الأكبر اللواء محمد نجيب، وإلى جوار الهرم الأصغر ملك ليبيا السنوسى، الذى كان قد آوى إلى مصر، وكتب الرسام على الأهرامات الثلاثة الكلمات.

الاتحاد والنظام والعمل، ويشير نجيب إليها قائلا "دى الأهرامات الجديدة اللى غطت ع الأهرامات القديمة".

على هذا النحو كان الهجوم وكان الامتداح .. ولكن كبار الكتاب لم يتورطوا فى هذه الأمور.. لطفي السيد والعقاد وطه حسين.. وقد أيدوا جميعا العهد الجديد وساندوه ، لكن بتعقل وبمنطق .

كتب عباس محمود العقاد – الهلال . عدد ديسمبر ١٩٥٢ – "كتب أقول وأكرر لصحبى في السنوات الأخيرة على الخصوص: إذا خلع فاروق فلن يتم بمعزل عن الجيش أو الأزهر وقد يخلعانه متفقين" ويضيف "لقد وضح منذ سنوات أن دوام فاروق على العرش أمر مشكوك فيه ، ولكنه كان شكا يقترن ببعض الأمل فى الصلاح وبعض الحيرة فى المصير ، ثم أخذ هذا الأمل ينقطع شيئا فشيئا وأصبح السخط فى القلوب غالبا على كل حيرة فى العقول".

ويقول العقاد أيضا "الحمد لله جاءت الثورة.. وجاءت سلمية لم يسفك فيها دم ولم يضطرب فيها حبل الأمور ، وقد كان الخلاص من عهد فاروق ضرورة لا تستكثر عليها أن تقدم الأمة في سبيلها على خسارة فى الأرواح والأموال واضطراب الأمور شهورا أو أكثر من شهور" ولكن لما تكفل الجيش بالثورة ، تجنبت الأمة كل تلك الآثار المتوقعة ، من خسارة في الأرواح والأموال . ويقول "انتظمت الأمور فى سياقها وانجلى ملك مكروه عن عرشه بأيسر من جلاء عمدة فى قرية صغيرة .

وقال العقاد أيضا "ومن التوفيقات الإلهية أن يتولى قيادة الجيش في هذه الحركة رجل من أصلح القادة لحرب الإقطاع ، رجل لو قيل فيه إنه محض الضمير "بمصل نفسانى" مضاد لآفات الإقطاع لما اختلف تعبير المجاز وتعبير الحقيقة في وصفه".

وكان المقصود بهذا كله اللواء محمد نجيب.

والحقيقة أن نجيب كان محبوبا فى تلك الفترة ، وتدل على ذلك صور الاستقبال من الجماهير ، فى الرحلات التى كان يقوم بها فى أنحاء مصر.!! أيا كان قصد سيد قطب ، انتقاد الذين سارعوا بلعن فاروق بعد أن كالوا له المديح من قبل أو أنه كان ينبه إلى ظاهرة المديح والإطراء المبالغ فيه من بعض الكتاب على اللواء محمد نجيب!! فكلا الأمرين حقه.. وإن كنت أستبعد أن يكون قد قصد العقاد – أستاذه – بذلك. لكن أخطر ما طرحه بالنسبة لهؤلاء الشعراء والكتاب، هو منعهم من الكتابة وقول الشعر "هؤلاء هم ممثلو أدب الانحلال. وهؤلاء هم الذين يجب أن يقصيهم الشعب عن الإنشاد له فى العهد الجديد .

عهد العزة والقوة والاستعلاء. عهد التحرر من عبودية الطغيان ، والتحرر من عبودية الشهوة اللتين قد تجتمعان أو تفترقان ، فتمهد إحداها للأخرى ، وتهيئ لها النفوس والأذهان.

ويصر على تلك الرغبة ، ويرفض أى تهاون فيها "أجل ينبغى ألا نسمح لهؤلاء العبيد بالإنشاد للشعب فى العهد الجديد ، ولا أن نغفر لهم تمريغ جبهة الأدب والشعر والفن فى المستنقع الآسن . فكل غفران لهؤلاء هو تنازل عن مبادئ الثورة الجديدة ، وكل استماع لهم هو خيانة للمُثل الجديدة .. ويقول أيضا "إن من حق الثورة علينا أن نتذكر ولا ننسى. نتذكر شناعة الجريمة.. شناعة الانحلال الدنس.

حين رفضت الإذاعة ، إذاعة حديث سيد قطب عن أدب الانحلال، قال عن الذين منعوه "إن الكثيرين هناك يحسبون أنفسهم مقصودين بوصف "العبيد" كما أن الحماية لا تزال مفروضة على الأصوات الدنسة التى تذيع على الناس "الدنيا سيجارة وكاس".

وربما كان ذلك صحيحا ، فالمسئول آنذاك عن إذاعة تلك الأحاديث كان الشاعر صالح جودت، وكان فى الإذاعة أيضا الشاعر محمود حسن إسماعيل، وكان مديرا لمكتب نائب رئيس الإذاعة ، الذى يصدر القرار النهائى بشان إذاعة الحديث أو عدم إذاعته!!

وكان كل من الشاعرين والإذاعيين فى نفس الوقت قد امتدحا الملك فاروق.. فالشاعر صالح جوات هو صاحب قصيدة "الفن" التى غناها عبد الوهاب، وجعل الشاعر "الفاروق" فيها راعيا للفن وحاميا له .. أما محمود حسن إسماعيل فكان قد أصدر ديوانا عن الملك فاروق كان عنوانه "الملك" ، وكان كل منهما يسعى لأن يكون شاعر القصر. ولكن هل من أجل هذين الشاعرين يكون كل هذا التحريض والاستعداء ، والمطالبة بسلب الحرية فى التعبير والكتابة؟!!

إن هذا الموقف يكشف عن رفض الكاتب للاختلاف ، فى الرأى وفى المواقف ، وعدم الاعتراف بالمخالفة والمغايرة ، والاستعداد لاتهام المخالف، والتحريض عليه ، والدعوة لمنعه من حقه فى التفكير والتعبير، لقد افترض أن كل من أيد فاروق من قبل كان من دعاة أدب الانحلال، فإن غيروا مواقفهم وأيدوا العهد الجديد كان ذلك مدعاة لديه لمزيد من القيود عليهم، وهكذا فإن الكاتب متهم لديه فى كل المواقف، مهدد فى حريته وحقه. ولم يكن كل كتاب مصر مؤيدين للملك وقت حكمه.

كذلك فليس صحيحا أن كل الكتاب الذين أيدوا الملك قد انقلبوا عليه عقب الخلع . كان محمد شفيق غربال من المقربين إلى القصر الملكى ، وبعد قيام الثورة ، أجرت معه مجلة

"الاثنين" حوارا ، كانت أسئلة المحاور تمتلئ ، تحريضا على انتقاد ومهاجمة الملك وأسرة محمد على ، لكن شفيق غربال ، تجنب ذلك تماما ، ولم يدن العهد الملكى فى حديثه. الطريف أن بعض أسئلة الحوار كانت تحمل أفكار سيد قطب مثل أن أسرة محمد على زوَّرت تاريخ مصر، وغير ذلك، وكان غربال يفنّد تلك الأسئلة وما تحمله من أفكار.

تجاهل سيد قطب كل هذه الحقائق والوقائع ، واختار أسوأ المواقف وهو المطالبة بمنع زملائه من الكتابة ، والاعتداء على حريتهم ومعاقبتهم على مواقفهم الفكرية والسياسية.

❖

(٩)

ليكن عهدا للطهر وليس للتطهير

* معظم المثقفين والكتاب ضد أفكار سيد قطب !!
* ويل لشعب يحتاج أدبه إلى تدخل السلطات لتنظيمه.

د. طه حسين

* الحماسة في الكشف عن المساوئ تنطوي على أوهام وشكوك تؤدي إلى تشويه سمعة البلاد.

فريد أبو حديد

بلغ سيد قطب حدا بعيدا فى آرائه الداعية إلى التطهير ، واستبطاء وقوع هذا التطهير، وبدت آراؤه فى بعض الحالات تتخذ طابعا ثأريا، والرغبة فى الانتقام من معظم من كانوا قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢.. "مثل كبار السياسيين ورجال الأحزاب والمسئولين والموظفين وحتى الأدباء والكتاب والشعراء والفنانين ، ويبدو أن أفكاره تلك أزعجت وأثارت قلق الكثيرين" [١].

ولم يكن القلق من قوة تلك الآراء والأفكار وتماسكها ، ولا من منطقها وحجيتها فقد كانت ضعيفة الحجة والبنيان ، ولكن من صلة صاحبها بضباط القيادة.. لذا كان هناك من تصدى لكتابات قطب بالتفنيد والنقد الشديد. وتعرض سيد قطب إلى هجوم حاد.

كان معظم الكتاب والمثقفين الكبار سعداء بالإطاحة بالملك ، ويؤيدون العهد الجديد، ويستبشرون به ، لكنهم كانوا يتخوفون على الحرية والديمقراطية عموما، وحرية الكتاب

---

(١) كان الموضوع يناقش وضع الأدب ودوره فى العهد الجديد.

والأدباء بشكل خاص، فقد طرحت مجلة الهلال للبحث ، عدد ديسمبر ١٩٥٢ - قضية "أدب النهضة الجديدة" ، وقدمت عدة أسئلة لكبار الكتاب، وكان بينها السؤال التالى "هل ترى أن الأدب والأدباء في حاجة إلى التنظيم ؟ فرد د. طه حسين قائلا "أرى أن الأدب أبعد الأشياء عن الحاجة إلى التنظيم لأنه ينظم نفسه بنفسه ، وويل لشعب يحتاج أدبه إلى تدخل السلطات لتنظيمه".

أما توفيق الحكيم فكان رده "التنظيم فى الأدب والأدباء يقوم به الزمن، وقد قام به فعلا فى كل عهد من عهود الأمم والشعوب ، فنظم ومحا من سجله الكثرة الزائفة ليبقى الكلمة الطيبة".

إلى هذا الحد كان الحرص على حرية الكاتب والأديب. والقلق من أن تمتد يد السلطة لتتدخل فى تلك الحرية ، وكان تحذير طه حسين واضحا، وموقف الحكيم معلنا. لذا فليس من المبالغة القول إن معظم المثقفين والكتاب كانوا ضد آراء واقتراحات سيد قطب الخاصة بمنع بعض الشعراء والكتاب من "الإنشاد للعهد الجديد"!!

كان فى مصر سنة ١٩٥٢ مجلتان ثقافيتان أسبوعيتان هما "الرسالة" و"الثقافة" كان أحمد حسن الزيات صاحب امتياز "الرسالة" ، وكانت المجلة أقرب إلى الروح المحافظة فى الكتابة والفكر، وكان معظم كتابها أقرب إلى تلك الروح ، كان "سيد قطب" الكاتب الأبرز للرسالة - آنذاك - مقالته هي - غالبا - الأولى فى العدد وربما تكون هى الافتتاحية.

أما مجلة "الثقافة" فكان صاحب الامتياز أحمد أمين ، وكانت أقرب إلى الأفكار والآراء المتحررة والعقلانية ، وكان كتابها أقرب إلى المفكرين من الأدباء ، هكذا كان أحمد أمين نفسه، وكان من كتابها د. زكى نجيب محمود ود. عبد الحميد يونس.. وكان الروائى وصاحب الدراسات التاريخية "محمد فريد أبو حديد" يشغل فى الثقافة موقعا مساوياً تقريبا لموقع سيد قطب فى الرسالة، كانت مقالة أبو حديد هى افتتاحية "الثقافة" غالبا. وقد أيدت كل من المجلتين العهد الجديد ورحبت به.

اختص سيد قطب "الرسالة" بأفكاره عن المثقفين والكتاب والفنانين، وما يقترحه على "العهد الجديد" ، من التعامل معهم، وهنا اندفع "فريد أبو حديد" يهدئ تلك الاقتراحات، وينتقدها ، وإن لم يذكر اسم صاحبها أبدا.

فى عدد ١٣ من أكتوبر ١٩٥٢ خرجت "الثقافة" بمقال افتتاحى لمحمد فريد أبو حديد عنوانه "تنفيس الضمائر" ، تحدث فيه عن الفساد الذى شاع فى مصر حتى جاءت الثورة وقضت عليه ، وقال "إنه لمن حسن طالع مصر، ومن بركة الله على مصر، ومن رعاية الله

لمصر أن مكنّها من الثورة ، ولكن حماها من الجموح ، وهيأ لها الانقلاب ، ولكن حفظها من التدمير.." وأضاف قائلا "هيأ الله لها ثورة الجيش الذى يستطيع أن يحدث الانقلاب والثورة بغير أن يترك الأمور تفلت من زمام الحكمة، وأن يزيل الفساد بغير أن يأتى على الحياة نفسها، وإنه لمن حسن حظ مصر ومن بركة الله عليها كذلك أن الجيش كان فى ثورته معبرا صادقا عما في نفوس الطبقة المثقفة التي تمتلئ قلوبها بالمثل العليا وبالرغبة فى الخير وبالوطنية الصادقة.

وانطلق أبو حديد مؤكدا وملحا على موقف الطبقة المثقفة "المساندة للثورة" .. ما كاد الجيش يتحرك حتى سارعت هذه الطبقة كلها تسنده من جانبيه ومن ورائه فى إخلاص وتحاول أن تقدم كل ما عندها من المواهب والجهود لمساندته في الجهاد العظيم نحو الإصلاح".

وهكذا تجنب "أبو حديد" تقسيم المثقفين والأدباء إلى أدباء عبيد وكتاب الانحلال يجب عزلهم وحرمانهم من الكتابة ، وآخرين ليسوا من دعاة الانحلال!!

وذهب أبو حديد بعد ذلك إلى شعار "التطهير" الذى كان سائدا ورآه شعارا للإصلاح واستدرك راصدا لما يجرى ومنبها ومحذرا . "رغبة التطهير لم تخل عند أفراد الشعب من الشوائب التى لا يمكن لشعب قديم العهد فى الخضوع للطغيان، أن يتخلص منها بادئ ذى بدء.." ويضيف قائلا" انفجرت العواطف المكبوتة كما تنفجر البشرة الممدة عما فيها من القبح وانهالت التهم من كل جانب ، وكان فيها الحق والباطل، وكان فيها المخلص والمريب ، وانطلقت من أعماق النفوس كل السموم التى كانت مكبوتة فيها، وانساب الغل من الأركان المظلمة التى كان مضغوطا بها ، وأصبحنا نعجب لأنفسنا مرة أخرى ونتمنى أن نتطهر من هذه الرغبة نفسها التى تنادى بالتطهير ، وربما كان ذلك أدق توصيف لحالة الهرج والمرج التى سادت، ورغبات التشفى والانتقام التى طفت على السطح، ولكن يطمئن القلقين والمنزعجين إلى أن تلك الحالة طارئة وعارضة، وأنه يجب أن نتعامل معها بهدوء "لا ينبغى لنا أن نأسى ولا أن نجزع ، فإنها سنة طبيعية لابد منها ، ولا يمكن لهذه الظاهرة أن تعالج إلا بالرفق والأناة والاعتدال.. ويضيف موضحا فكرته "فلندع النفوس تطلق ما فيها من سموم ولندع كوامن الحقد تتنفس حتى تخفف ما كان يجثم فوقها من كبت شديد، ولندع الغل ينفرج عما فى الأعماق حتى تستشفى النفوس المكروبة وتعود إلى صفائها" ، ومصدر تفاؤله فى ذلك أن عملية الإصلاح التى تتم ، إنما تبغى العدل "لندع الناس ينفسوا عما فى قلوبهم سواء كانوا ظالمين أو عادلين، فإن ذلك ينتهى بعد حين إلى العدل والاعتدال مادام الإصلاح متجها إلى العدل والاعتدال".

ويبدو أن تلك الانتقادات للعهد الذى سقط كانت مصدر ازعاج حقيقى للبعض، ربما من المثقفين - أصدقاء أبو حديد - وهو يحاول تهدئتهم ، وانتزاع مخاوفهم ، ويتمنى أن يكون العهد الجديد ، ليس عهد "التطهير" ولكن عهد "الطهر" والفارق كبير بين المعنيين ، فالتطهير يعنى إزاحة البعض ، أما "الطهر" فهى دعوة أخلاقية فى المقام الأول ، تقوم على مجاهدة الناس لأنفسهم ، وليس فيها طابع تصفية البعض والخلاص منهم". لعل هذه الكلمة تجد قبولا عند الأصدقاء الذين أسمعهم فى المجالس يتناجون بالعجب والسخط على ما فى ذلك التنفيس من شطط (..) هى مقدمة بإذن الله تعالى لعهد جديد شعاره الطهر لا التطهير ، وسمته الحق والعدل والإنسانية.. ونحن اليوم على أول الطريق".

وفى الأسبوع التالى مباشرة - ٢٠ أكتوبر ١٩٥٢ - واصل أبو حديد فى "الثقافة" نفس الموضوع ، وكان تفاؤله قد تراجع ، وراح يطالب بالكف عن الحديث فى مساوئ ، ومفاسد العهد الماضى ، لأن ذلك الحديث المبالغ فيه لن يؤدى إلى التخلص من تلك المفاسد، بل قد يأت بنتيجة عكسية يقول "إننا نرجو أن تتجه هذه الموجة القوية نفسها إلى انتزاع الشرور بغير الإكثار من التحدث عنها، فالأحاديث الكثيرة عن الشر لا تؤدى إلى اقتلاعه من جذوره إذا قنع الناس بها واكتفوا بما يفرجون عن صدورهم بترديدها".

وهو يرى أن تلك المقالات عن مفاسد العهد البائد "تنطوى على المبالغات والتخيلات فى بعض الحالات، ولا تمت إلى الحقيقة بصلة ، وفى النهاية فإن تلك المبالغات عن مفاسد الملك وكبار السياسيين ورجال الأحزاب ، سوف لا يسئ إلى شخوص هؤلاء فقط، ولكن يمتد إلى الإساءة لسمعة مصر كلها ، وهذا هو الأهم والأخطر "إن الحماسة فى الكشف عن المساوئ قد تنطوى فى بعض الأحيان على أوهام وشكوك تؤدى إلى تشويه سمعة البلاد وحكمها أكثر مما تستحق البلاد من سوء السمعة".

وكان أبو حديد محقا وإن لم يجد من يتفهم كلامه، فقد أثبتت الأيام أن ما قيل عن مفاسد فاروق فى علاقاته النسائية ، كان فى جانب كبير منه "أوهام"، فقد تراجعت قدرات الملك كثيرا ورغباته النسائية بعد حادث القصاصين، الذى وقع له ، كذلك بات فى حكم المؤكد الآن أن الملك لم يكن من مدمنى الخمور والمشروبات الروحية ، ولم يكن يتعاطاها .. كذلك فإن التردد والضعف السياسى الذى بدا عليه الملك كان نتيجة طبيعة لظروف التربية التى مر بها ، والقلق الذى دمر حياته الشخصية ، فقد اكتشف أن والدته "الملكة" على علاقة برئيس الديوان أحمد حسنين ، وكان هو الذى ضبطهما متلبسين فى فراش والده!!

هذه الندوب "في شخصية الملك بالإضافة إلى وجود الاحتلال وضغطه على أعصاب، وتصرفات الملك والسياسيين ، أدى إلى انهيار "عهده"، وكان الملك يستحق "الخلع" ، ولكنه لم يكن يستحق كل هذا التشهير بعد أن غادر البلاد، ولم تكن "الثورة" مضطرة لذلك ، فقد كان الملك في الفترة الأخيرة مكروها بما أدى إلى أن يخرج دون أن تذرف عليه دمعة واحدة، وهكذا فإن أحاديث الفساد والانحرافات عن الملك وعن السياسيين ، لم يكن هناك مبرر قوى لها ، سوى "كوامن الحقد وسموم النفوس" بقول أبو حديد.

ويدعو المصريين ، محذرا ومنبها ، إلى عدم تكرار تجربة ثورة سنة ١٩١٩ - الثقافة ٢٠ أكتوبر ٥٢- "عندما اندفعت الأمة وراء حماستها ، وقنعت بهذه الحماسة وما يتبعها من مظاهرات ومشاحنات ومجادلات فقد قامت الأحزاب السياسية عند ذلك على أساس المجادلة في الأقوال والمذاهب، ولم تقف ، لكي ترسم للبلاد خطة إنشائية تكفل لها الغايات التي قامت الثورة من أجلها". وكانت النتيجة أن ثورة ١٩١٩ لم تحقق ما كان يجب أن يتحقق وهو الاستقلال والبناء.

وتأسيسا على هذا يذهب أبو حديد إلى أن نكف عن حديث المفاسد ونتجه إلى ما هو أنفع وأهم وهو الحديث عن المستقبل وبناء البلد" هلا قنعنا بما تيسر لنا في هذه الشهور الثلاثة من التنفيس بالأقوال، ومن تصوير مخازى الماضي. ومن إعلان الخفايا السيئة حتى ننصرف إلى ما هو أجدى علينا، وهلا ملأنا قلوب الشباب والأطفال والناشئين بصور الأمل والمثل العليا، وبما نرجوه لبلادنا في مستقبلها من التقدم والجد والحرص على أداء الواجب".

ويرى أن دعوته تلك ذات أهمية ، لأن وقت توجيه الاتهامات قد فات وانتهى، ويذهب إلى ما هو أهم ، أن الثورة نفسها قد انتهى وقتها وفات أوانها، وأدت دورها ، وبقي دور البناء الهادئ والحقيقي "ليكن رائدنا منذ الآن أن نبنى للمستقبل غير منشغلين عن ذلك البناء بشئ آخر مهما كان الإغراء عليه شديدا فالأمة الحكيمة هي التي تعرف متى تثور ، ومتى تهدأ ، ومتى تبنى ، وأين تنطلق عنيفة ، ثم أين تضبط نفسها وتتجه إلى مقصدها".

ولم تجد آراء أبو حديد من يستمع إليها، وظلت حالة التحريض والتهييج للضباط ، وواصل سيد قطب كتاباته مطالبا بإخراس الأصوات ومنع الشعراء من الإنشاد وعزل السياسيين ، لذا فإن مجلة "الثقافة" - عدد ٨ ديسمبر ١٩٥٢ - انتهزت فرصة صدور طبعة جديدة من كتاب سيد قطب "العدالة الاجتماعية في الإسلام" ونشرت في باب نقد

الكتب" ، مقالا طويلا للناقد عز الدين إسماعيل فى نقد هذا الكتاب ، وتطرق عز الدين إلى نقد باقى مؤلفات سيد قطب التى حققت شهرة بل وشخصية سيد قطب نفسه من الناحية الثقافية .. يقول متحدثا للقارئ "يجب أن أنبهه إلى خدعة كبيرة وهالة باطلة نسجها الإمحال فى وقت من الأوقات حول شخصية المؤلف فأخذ مكانه بين الرعيل الثانى من المفكرين فى مصر الحديثة" ويقول "إن أظهر ما تتسم به مؤلفات الأستاذ سيد قطب هو الضحالة والصحافية وصياغة أفكار الآخرين من جديد".

وأخذ يدلل على كل صفة من مؤلفات سيد قطب ، وخاصة الأخيرة . "صياغة أفكار الآخرين". يقول عز الدين "إن شئت فارجع إلى كتابه "النقد الأدبى.. أصوله ومناهجه" وهناك تستطيع أن تدرك تماما أن الكاتب أعاد أفكار "أبركوبى وتشارلتن ورنسون التى سبق أن ترجمت إلى العربية . فإن بحثت عن جديد يختص به المؤلف أعياك البحث دون جدوى".

ويضيف عز الدين إسماعيل قائلا "الكتابان اللذان خدعنا بهما المؤلف وخيل إلينا أن فيهما من الأصالة ما ينفى عن المؤلف تلك الصفة وهما "التصوير الفنى فى القرآن" و"مشاهد القيامة فى القرآن" هذان الكتابان بكل أسف ليس فيهما من أصالة الفكرة شئ فقد تلقف الأستاذ سيد قطب أصل الفكرة من الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد وراح يضخمها حتى ظفر من هذه الضخامة بقدر يملأ كتابا".

ويرى الناقد عز الدين إسماعيل أن سيد قطب "لا يقرأ الأصول التى تفيده فى موضوعه وإنما يقف عند الكتب الثانوية دائما. لا يجهد نفسه فى المصادر الأولى وإنما يكتفى بما يلتقطه من كتب الدرجة الثانية فى نظر الدراسة العلمية" وعلى هذا يصف كتاب "العدالة الاجتماعية" بأنه "أمشاج من الأفكار التى تدور حول العدالة وحول الاجتماع وحول الإسلام ولكنها لا يمكن أن تدور حول العدالة الاجتماعية فى الإسلام . وإذا نحن تطوعنا وكيما نفيد من هذه الأفكار - بتنظيمها وترتيبها وتقسيمها لم نظفر آخر الأمر ببحث علمى دقيق فى صميم العدالة الاجتماعية فى الإسلام ولا الظلامة الاجتماعية فى غيره من مذاهب وضعية".

ثم أخذ الناقد يفنّد الأفكار الأساسية فى الكتاب ، ويقف عند مدى استفادة سيد قطب من المراجع التى فى نهاية الكتاب، ويذكر أن هناك مراجع وردت دون أى استفادة وأخرى نقل عنها صفحات كاملة مثل كتاب عبد الحليم الجندى "أبو حنيفة بطل التسامح والحرية فى الإسلام" وقد نقل عنه قطب أربع صفحات كاملة ، وكذلك أربع صفحات

من كتاب لأحمد زكى صفوت وثلاث صفحات كاملة من كتاب "الإسلام فى مفترق الطرق" الذى ترجمه عمر فروخ وهكذا ويرى أن هذه الصفحات بكاملها "تكون وحدها جزءا كبيرا من بناء الكتاب [1].

وسألت الناقد د. عز الدين عن هذا المقال وظروف كتابته ، وهل طلبت منه إدارة المجلة وكلفته به" قال "لى" "كنت أكتب فى المجلة باستمرار، وكان المقال ينشر دون حذف ودون اعتراض . ولم يكلفنى أحد من المجلة بالكتابة عن كتاب "العدالة الاجتماعية فى الإسلام" ولكنى كنت مستفزا من الهالة الضخمة والدعاية حول سيد قطب بعد ثورة ٢٣ يوليو ، والادعاء بأن كتابه هذا هو الذى فجر الثورة ، وأنه كان الوقود الفكرى للضباط، وأن هذا الكتاب هو الذى سيحرك الفكر الثورى فى مصر.. وأخذ البعض يقارن سيد قطب بفولتير الذى حركت كتبه ثوار الثورة الفرنسية - فأردت أن أكتشف هذا الموضوع، وقرأت الكتاب، فوجدت أن هناك مبالغات ضخمة حول هذا الكتاب وحول مؤلفه ، وأردت أن أقول للناس يجب أن نتواضع فلا يمكن أن نقارن سيد قطب بفولتير.

وربما توافق المقال - يقول د. عز الدين - مع سياسة المجلة وهواها ، فنشر على هذا النحو والحقيقة أنه كان هناك احتفاء بالمقال ، إذ نشر على صفحتين ونصف الصفحة بالمجلة، رغم أن باب "نقد الكتب" كان يعتمد على المقالات والعروض القصيرة ، التى قد لا تجاوز نصف الصفحة !!

وإذا كانت الثقافة قد اتخذت هذا الموقف ، فإن "المصرى" و"روز اليوسف" قامتا بالرد على الأفكار التى يطرحها سيد قطب ، ويغرى عليها الضباط.. تولى الرد فى روزا اثنان من كتابها هما أحمد بهاء الدين وإحسان عبد القدوس، الذى كان رئيسا للتحرير أيضا. كانت ردود أفكار "بهاء" عامة فى الدفاع مبدئيا عن الديمقراطية وضرورة التمسك بها وعدم التخلى عنها!!

أما إحسان فقد تولى تفنيد تلك الأفكار والآراء ، كل على حدة "كتب إحسان عبد القدوس - روز اليوسف عدد ٢٩ ديسمبر ٥٢ - "إننا لن نقضى على الفساد بالقوانين الاستثنائية ولن نقضى على الفساد بالقوة ، بل بالعكس إن القوانين الاستثنائية والقوة تحمى الفساد وتضلل الشعب عن مواطنه. وتثير فى نفوس الجماهير عطفا غبيا على المفسدين".

---

(١)اتصال تليفونى بالدكتور عز الدين إسماعيل فى العاشرة من مساء يوم الأحد ١٠ يناير ١٩٩٩.

ويتحدث عن العهد الجديد وإجراءاته قائلا "هذا العهد الجديد قام بحمل هذه الفكرة الشعبية .. فهو عهد قوى بها بهذه الفكرة الشعبية .. وهو بها أقوى من أن يحتاج إلى قوة الحاكم، وهو بها أقوى من أن يحتاج إلى فرض الأحكام العرفية ، وهو بها أقوى من أن يحتاج إلى إعلان الرقابة على الصحف، وهو بها أقوى من أن يحتاج إلى فرض قوانين استثنائية كقانون الأحزاب أو كقانون الغدر السياسي.. وهو بها أقوى من أن يخاف الحرية الشعبية ، وأقوى من أن يخاف الأخطاء المتعمدة او غير المتعمدة التى قد يرتكبها بعض الأفراد باسم هذه الحرية"..

ويطرح إحسان مجموعة من التساؤلات على "العهد الجديد" "هذه القوانين التى تصدر مقيدة لحريات المفسدين لماذا لا تقابلها قوانين أخرى تصدر مطلقة لحريات الصالحين ؟ أين الدستور المؤقت الذى يضمن مبادئ الحريات العامة خلال فترة الانتقال المؤقتة التى قد تستمر سنة أو سنتين ولا أغالى إذا قلت خمس سنوات.

"وأين البرنامج المرسوم للعهد الجديد الذى يحق للصالحين أن يؤمنوا به ويشتركوا فى تنفيذه".

ويقول إحسان واصفا ما يجرى من إجراءات بأنها "جهنم" "إن الله سبحانه وتعالى جعل النار للكاذبين . والجنة للصالحين . وهذه هى النار. فأين الجنة؟

وفى مقال آخر – روزاليوسف ٩ فبراير ٥٣– جعل إحسان عبد القدوس عنوانه "لا مستبد عادل ولا عادل مستبد" وكان يرد على مقولة ان الديمقراطية ليست بذات فائدة فى تلك الفترة ، وأنه يمكن للشعب أن يحتمل الاستبداد من أجل الإصلاح والنهوض قال "لا أؤمن بالأكذوبة اللفظية التى تتغنى بالمستبد العادل ، فالمستبد لا يمكن أن يكون عادلا ما دام مستبدا. والعادل لا يمكن أن يكون مستبدا ما دام عادلا ، والعدل نفسه لا يمكن أن ينبعث من مزاج شخصى. أو عن هوى إنسانى ، مهما بلغ هذا الإنسان من قوة الخلق وشدة الإخلاص لوطنه" ويقول إحسان أيضا "إنما العدل لا ينبعث إلا عن مبادئ مسجلة صريحة واضحة معلنة".

ويقول "إذا كفل الدستور المؤقت للشعب حقه فى حريته ، فيجب أن يكفل الحاكمون للشعب حقه فى ممارسة هذه الحرية ؟ وأوضح مظاهر هذه الحرية هى حرية المعارضة ما دامت معارضة شريفة صريحة تستهدف المصلحة العامة ولا تقوم على الدس والتآمر . ولن ننتصر – نحن مؤيدى هذا العهد – إلا إذا كانت هناك معارضة ننتصر عليها. ولن تنتصر هيئة التحرير – مثلا – إلا إذا كانت هناك أحزاب شريفة تنتصر عليها".

(١٠)

أعداء الثورة وحلفاؤها

* "لأن نظلم عشرة أو عشرين من المتهمين خير من أن ندع الثورة كلها تذبل وتموت".

سيد قطب

إذا كان على الثورة - كما رأى سيد قطب - أن تتخلص من الأحزاب، وخاصة الوفد والأحرار الدستوريين والسعديين ، وألا تتعامل مع كبار الملاك والرأسماليين وكذلك معظم الفنانين والكتاب والشعراء فمع من تتعامل ، وعلى من تعتمد من القوى المدنية ؟!!

شغلت هذه القضية الكاتب ، وبالتأكيد شغلت الضباط أنفسهم . وهذا ما دفع سيد قطب أن يحدد من أسماهم "الحلفاء الطبيعيون" للنظام وكذلك "الأعداء الطبيعيون" له !!

وحاول أن يرصد الأعداء والحلفاء - روز اليوسف ١٠ سبتمبر ٥٢ - بناء على قاعدة حددها وهي "أن حياة أي نظام تتوقف على نسبة حلفائه الطبيعيين في الشعب" . وقبل أن يبحث عن هؤلاء الحلفاء راح يعدد الأعداء ، وقسّمهم إلى فئات ثلاث، على النحو التالي:

أولا: كبار الملاك "الاقطاعيون والرأسماليون الذين نشأوا على أن يأخذوا كل شئ" ثم لا يؤدوا شيئا (..) والثورة بطبيعتها ثورة على الوضع الاجتماعي والاقتصادي الذي كان يسمح لهم بأن يأخذوا كل شئ ولا يعطوا شيئا".

ثانيا: قادة الأحزاب "رجال الأحزاب القديمة الذين نشأوا على أن يستغلوا كتلة الشعب وثقة الجماهير في تولي الحكم والانتفاع بجاهه وسلطانه في الثراء ، أو نشأوا على أن يتلقوا مقاليد الحكم من أيدي الاستعمار أو الطغيان ليستغلوه لنفس الغرض ضد كتلة الشعب وملايين الجماهير".

ثالثا: السياسيون "رجال السياسة المحترفون ، الذين تطفئ الثورة أسماءهم وتؤخرهم إلى الصف الثانى أو الثالث من الأهمية ، ولا تتركهم ينتهزون فرص الأزمات ليبرزوا فى المقدمة، بوصفهم منقذين أو رجال الساعة ، كما يقولون "والتحديد بهذا المعنى يجعلهم فئتين وليسوا ثلاثا كما أراد، كبار الملاك ، والسياسيين سواء كانوا حزبيين أو غير حزبيين وهو يرى أنهم لن يأمنوا للثورة". لا يمكن أن يسالموها أو يسيروا معها إلا ريثما يجدون فيها ثغرة أو نقطة ضعف لينقلبوا عليها ويحطموها "ويرجع هذه الحالة من العداء إلى سبب نفعي وانتهازى مباشر" بينهم وبين العهد الذى كان الملك السابق يمثله مخالفة. طبيعية ، لأنهم بين رجلين: رجل لا يستطيع أن يعيش إلا فى ظل ذلك العهد . ورجل يستطيع أن يعيش فى ظله حياة أفضل بالقياس إليه من معيشته فى ظل نظام ثورة. وكلا الرجلين لابد ... يقاوم الثورة . وينخر فيها وأن يعمل ما استطاع على استهلاكها سريعا، ووقف خطواتها ، وتقطيع جذورها الشعبية حتى تذبل وتجف".

والحقيقة إن تلك الكلمات . لم تكن سوى أفكار إنشائية ، تسعى إلى إحداث قطيعة حادة مع مرحلة تاريخية بأكملها ، بكل رجالها وتياراتها البارزة.، وقد كان متجنيا ، فلم يكونوا جميعا، بهذا السوء ، حاولوا قدر ما استطاعوا فى ظل ملك لم يكن فى مستوى مسئوليته واحتلال بريطاني يضغط بكل ثقله ويعرقل محاولات التحرر والاستقلال!!

وفى تلك الفترة ، كان هناك رأى بأن على الثوار أن يمدوا أيديهم إلى رجال الأحزاب والسياسيين ويستعينوا بهم ، وكان لهذا الرأى صدى داخل مجلس قيادة الثورة ذاته ، والحقيقة أن الثورة استعانت ببعضهم فى بداية الأمر، ولكنها اختارت الأشد عداء للأحزاب والميالين إلى حكم الأقليات ، مثل على ماهر والسنهورى !! المهم ، اندفع سيد قطب ليحذر من الاستعانة أو التعامل مع "الأعداء" ويطالب الثورة بأن "تحاول تجريد هؤلاء الأعداء من منابع القوة التى فى أيديهم ، وألا تركن إطلاقا إلى الخطة التى تقول بمهادنتهم أو مسالمتهم بقصد اجتذابهم إلى النظام الجديد.. فهذا أولا ضد طبائع الأشياء ، ثم هو فى الوقت ذاته يقوى خصوم الثورة ويضعف أصدقاءها وينتهى بها إلى العزلة ، ومن ثم إلى التفتت والانحلال".

ويضيف بأن "الثورة تقتل نفسها إذا وضعت يدها فى يد أعدائها الطبيعيين ، الذين يحاولون بكل طريقة عزلها عن حلفائها وتجريدها من القوى الشعبية الحقيقية التى تسندها".

ويعود إلى الإلحاح على عملية التطهير "لقد كان منطق الثورة يقتضى أن نكون قد فرغنا اليوم من عملية التطهير.. وأطحنا بالرءوس الفاسدة كلها. على نفس الطريقة التى

أطحنا بها برأس فاروق" ويضيف قائلا "ما لم يتم بالأمس يجب إتمامه اليوم بنفس القوة وبنفس السرعة التى عزل بها الرأس الأول.. بقاء الرءوس وفى أيديها المال والمجد السابق. والصحافة ووسائل التهريج والتهويش .. يتيح لها كل يوم أن تنخر فى جدار الثورة . وأن تستعين بالجماهير ذاتها فى عملية الهدم والتقويض.

وهو هنا ، كما فى معظم كتاباته ، فى تلك الفترة لا يثق بالجماهير وبالشعب ، فهم فى رأيه ينقادون للأعلى صوتا، وعلى الثورة أن تكون هى الأقوى والأعلى. أما قدرة تلك الجماهير وحقها فى الاختيار والتمييز ، فلا موضع له فى كتابات وأفكار سيد قطب !!

وفى دعوته لعملية التطهير والإزاحة لا يعبأ بمبادئ العدل والقانون . فهو يرى ضرورة أن "يختفى من مجال النشاط القومى كل رجل حامت حوله الشكوك"، ولا يهتم بأن تحقق الشكوك ، ليثبت منها الصحيح ، وينتفى الزائف وغير المؤكد منها، بل يقول بصراحة ، وبضمير مستريح "لأن نظلم عشرة أو عشرين من المتهمين خير من أن ندع الثورة كلها تذبل وتموت".

وقد تحدث كثيرون عن المهازل والمآسى التى كانت تقع فى لجان التطهير .. وذكر فتحى رضوان ، ما كان يتم فى اجتماعات مجلس قيادة الثورة حول التطهير، والاستثناءات التى تمت فيها[1] .

اتجه سيد قطب فى تحديد حلفاء الثورة ، اتجاها نظريا وعاما فى البداية "الحلفاء الطبيعيون لأى نظام هم: أولا الذين ينتفعون بهذا النظام أكثر مما ينتفعون بأى نظام آخر، وهم ثانيا : الذين لا يستطيعون الحياة فى نظام آخر، وهم ثالثا أصحاب المثل والمبادئ الذين يؤثرون نظاما على نظام لأنه يتفق مع مثلهم ومبادئهم . وهؤلاء هم أقل العناصر الثلاثة بطبيعة الحال".

وحين يطبق تلك القاعدة على الواقع المصرى يجد أن حلفاء الثورة فريقان فقط.

الأول: "كتلة الشعب الكادحة من العمال والفلاحين وصغار الموظفين ، وهذه الكتلة بذلك التحديد والتوصيف ، سوف تتردد بعد ذلك لأكثر من عشرين سنة فى الخطاب الرسمى المصرى وسوف نجد هذا التحديد فى وثائق الثورة. فلسفة الثورة والميثاق وبيان ٣٠ مارس وورقة أكتوبر فيما بعد .. المهم أن هذه الكتلة الضخمة غير منظمة ، والفكرة الأثيرة لديه ، أنهم فى انتظار من يقودهم ويؤثر فيهم ، لأنهم وحدهم لا يتحركون ..

---

(١)فتحى رضوان .. ٧٢ شهرا مع عبد الناصر . الفصل الأول.

يقول "هؤلاء على كثرتهم تنقصهم القيادة المستنيرة ، وينقصهم أن يعرفوا طريقهم إلى الاتصال بقيادة الثورة.

ويرى أن على الثورة دورا مهما تجاههم "على هذه القيادة أن تجد طريقها إليهم وأن تستردهم من الأحزاب الإقطاعية الرأسمالية ، وأن تخلصهم من نفوذ تجار السياسة المحترفين ومن الزعامات المهرجة التى تستغلهم من زمن طويل".

ويصبح هذا الدور واجبا لأن الجماهير لا تعبأ إلا بمصالحها "هذه الكتلة لا تتعلق عادة بالمثل النظرية ، ولا تلقى بالها إلى المبادئ والأفكار المجردة لأن ضغط الضرورات المادية فى حياتها تسيرها دائما إلى التفكير الواقعى على ضوء ما هو حاصل فى حياتها الشخصية".

ولكن العقبة فى أن تصل الثورة إلى هؤلاء ، إن القيادة ليست لديها الوسيلة لذلك ، وليس لديها عناصر تؤدى هذه المهمة بكفاءة ، ذلك أن الثورة لا تزال تعمل بالجهاز الحكومى القديم الذى لا يحس بهؤلاء ولا يريد أن يفعل لهم شيئا" ويضيف قائلا "هذا الجهاز الذى لم يشعر بعد بأن هناك ثورة . ومن ثم فإن هذا الجهاز لم ينتج شيئا عمليا لكتلة الشعب تحس به إحساسا قويا سريعا. وتنضم على أساسه إلى موكب الثورة".

ومع استمرار تلك الحالة فإن الجماهير سوف تفقد كل أمل فى الثورة ، وشيئا فشيئا يتسرب اليأس إلى قلوب الجماهير المتطلعة وتتجه من جديد إلى الأحزاب القديمة وإلى الزعماء المهرجين".

ويقودنا سيد قطب عبر هذا المأزق – الذى تخيله – إلى الفريق الثانى من "الحلفاء الطبيعيين للثورة، وهو المقصد لديه .. هؤلاء الحلفاء هم "الهيئات المنظمة التى هى حليفة طبيعية للثورة نجدها ممثلة فى الإخوان المسلمين والاشتراكيين والوطنيين وبعض الشباب المتحرر فى بعض الأحزاب القديمة أو خارجها ممن كافحوا العهد القديم".

وتلك الهيئات والتنظيمات كانت توصف بأنها "الاتجاهات الفاشية"، وكان من المقرر فى رأيه أن يكونوا جند الثورة من اليوم الأول "هم بطبيعة وصفهم ومصالحهم وتفكيرهم كان يجب أن يكونوا سند الثورة منذ اليوم الأول ، وأن تستند إليهم الثورة فى مقاومة نفوذ الأحزاب الملوثة القديمة فى الأوساط الشعبية.

ولكن المشكلة أن هؤلاء كانوا ضحية مؤامرة لإبعادهم عن الثورة "الرجعية الماكرة حاولت ولا تزال تحاول أن تعزل الثورة عن ينابيعها الشعبية الأصيلة. وأن تحطم القناطر بينها وبين حلفائها الطبيعيين . الذين يحافظون على الثورة فى سبيل المحافظة على وجودهم

الذاتى ويكافحون عنها لأنهم يكافحون عن مبادئهم الخاصة" .

وكان شكل المؤامرة وشعارها "ابتعاد حركة الجيش عن الروح الحزبية الطائفية وكادت المؤامرة تفلح. المؤامرة ضد الثورة لعزلها عن مواردها الشعبية المضمونة".

وهو يرى أن المؤامرة نجحت وحققت بعض النتائج .. ويرصد تلك النتيجة فيما يتعلق بكل تيار.

"هناك ما يشبه العزلة بين الثورة وبين قيادة الإخوان المسلمين ، الكتلة الشعبية الضخمة وشباب الإخوان لا يزال فى السجون".

والذين كانوا فى السجون من الإخوان هم الذين حوكموا وأدينوا فى قضية مقتل القاضى المستشار الخازندار واغتيال النقراشى ، ورغم أنهم حوكموا أمام محاكم مدنية فسوف تصدر قيادة الثورة عفوا خاصا عنهم ، إرضاء للإخوان الذين لم يدخلوا وزارة محمد نجيب!!

أما الحركة الاشتراكية أو مصر الفتاة فكان أحمد حسين لا يزال فى السجن ، منذ أن حوكم فى قضية حريق القاهرة ، وكان المبرر لعدم الإفراج عنه هو "أن الرئيس على ماهر لا يستريح لوجود أحمد حسين على المسرح فى هذه الأيام".

وسوف يتم الإفراج عن أحمد حسين فى إطار العفو العام الذى ستصدره قيادة الثورة عن المسجونين السياسيين فى قضايا منذ سنة ١٩٣٦ وحتى عزل الملك فاروق.

أما الحزب الوطنى فقد اتصل أعضاؤه بالثورة ، ولكن هذه الصلة لم تتحقق فى إطار الفكرة التى يراها ، بل تحققت بوسيلة أخرى "لسبب شخص بحت وجدت بعض الخيوط بينهم وبين الدولة لا لفكرة أنهم من الحلفاء الطبيعيين للثورة التى يجب أن يكون لهم دور إنسانى فيها كسائر الهيئات المكافحة التى كانت مهددة فى العهد الماضى . فهى على استعداد أن تكافح عن العهد الجديد".

والسبب الشخصى الذى يشير إليه هو اتصال فتحى رضوان رئيس الحزب الوطنى الجديد بمجلس قيادة الثورة ، وكانت قيادة المجلس هى التى اتصلت به، فقد كان بعضهم يعرفونه ، كان يعرفه أنور السادات منذ أيام قضية أمين عثمان، وكان فتحى رضوان أحد المحامين الذين ترافعوا عن المتهمين فى القضية ، وكان عبد اللطيف البغدادى يعرفه ، فقد كان من الشبان الذين ترددوا على الحزب، وكذلك كان يعرفه جمال عبد الناصر وعبد

الحكيم عامر [1] ، وهكذا تمت الاستعانة به ، ولم يتم الاتصال بشباب الحزب بل بفتحى رضوان فقط!!

ويرجع الكاتب ابتعاد الثورة عن هذه الاتجاهات إلى "وجود عقليتين متنافرتين تسيران دفة الثورة . عقلية تسهر مع الثورة في مقر القيادة العامة إلى الصباح ، لا تأكل إلا الخشن من الطعام . ولا تجد ساعة أو ساعتين للراحة فى اليوم.

وهناك عقلية ثانية "تسهر مع رقصة السمبا" فى سميراميس مع أولاد الذوات وهو يرى أنه لا مفر أمام الثورة من اتخاذ الموقف الصحيح ، ومازال الوقت لديها للتخلص من عقلية "السامبا" . يقول "تغليب عقلية الثورة على العقلية الناعمة . وعلى الثورة أن تعرف أعداءها الطبيعيين فتحطمهم تحطيما لا رحمة فيه. وأن تعرف أصدقاءها الطبيعيين فتمد إليهم يدها فى غير ما ضرر ولا تردد".

ولعله كان يقصد بأصحاب العقلية الناعمة ، والذين يقومون بمؤامرة إبعاد الثورة عن حلفائها الطبيعيين ، على ماهر رئيس الوزراء وعدد من وزرائه.

وكان لسيد قطب نصف ما أراد ، حيث أبعد على ماهر ورجاله!!

أما الاقتراب من الإخوان والاشتراكيين فقد كان دونه العديد من الصعوبات والتى ستنتهى بالافتراق التام بين الثورة والإخوان ولكن بعد فترة ليست بعيدة .



(١)شرح فتحى رضوان هذا الاتصال فى كتابه "٧٢ شهرا مع عبد الناصر".

(١١)

"نظرية الردع واغتيال الرءوس"

تنطوى مقالات سيد قطب التى كتبها فى المدة بين قيام ثورة ٢٣ يوليو وحتى اختلافه معها، على أهمية خاصة تتعلق بالأفكار والآراء التى أعلنها ، وتعتبر – أيضا – بروفة حية لنموذج الحكم الذى يراه سيد قطب وكذلك الإخوان المسلمون، لقد اعتبر سيد قطب ما حدث فى ٢٣ يوليو ثورته الخاصة ، ورآها الإخوان "الحركة المباركة" وساندوها ، ومعالم نموذج الحكم الذى قدمه سيد قطب يتلخص فى النقاط التالية.

أولا: لا اعتبار للأحزاب ولا مكان لها فى دولته ، بل هو حكم الهيئة الواحدة أو الحزب الواحد.

ثانيا: الأولوية ليست للدستور ولا للقوانين ، ولا يجب أن يعبأ بها الحاكم، ودستوره هو الواقع ومقتضياته السياسية .

ثالثا: حرية الكاتب والمفكر مرفوضة تماما، إذا ما جاءت كتاباته بعيدة عن الخط السياسى العام الذى يحكم الدولة أو الثورة أو الحركة والجماعة.

رابعا: ينطبق نفس الشئ على الفن ، فليس للفنان أن يغنى أو يؤدى إلا ما يراه أولو الأمر، ويجب أن يمنع الفنان تماما "ويخرس" إذا رأت الحركة أن صوته أو فنه به ميوعة أو دنس أو خلاعة .. وغير ذلك . ويصبح فى النهاية الفن والإبداع موجها.

خامسا: على الدولة أن تتدخل لتحد من غنى وثراء أصحاب الملكيات الخاصة ، بانتزاع تلك الملكيات أو مصادرتها أو تأميمها ، أو أى وسيلة أخرى . وليس للأغنياء أن يعترضوا وإلا فإن حياتهم ذاتها سوف تكون موضع خطر.

سادسا: تتراجع الحريات الخاصة فى هذه الدولة ، ولا مكان لما يسمى حقوق الإنسان فواجب الدولة أن تتدخل وتحدد للمواطن ما ينبغى أن يسمعه أو أن يقرأه، كذلك

فإن صيانة حقوق المواطن السياسية ليست موضع اعتبار، فالعـبرة ليست فـى مكانـة الفرد وحقوقه بل أن تتحقق الأهداف العامة للثـورة ، حتـى لـو أدى ذلـك إلى ظلـم عشرات الأفراد.. نعم ظلم عشرات الأفراد وربما المئات. أى أن ظلم الفرد مباح مـا دام ذلك يحقق الأهداف العامة التى تراها الثورة أو الدولة.

سابعا: مصر ليست كيانا مستقلا بذاته، ولا وطنا خاصا بنا ، ونحن معنيون به، بل هى جزء مـن الجبهـة الإسـلامية ، وبالحـالى لا مكـان لمعنـى "الوطنيـة" التـى نـاضل المفكـرون المصريون لإرسائها منذ رفاعة الطهطاوى وحتى طه حسين، ولا اعتبار للقوميـة ، بـل "القطاع الإسلامى" كله.

وقد اختلف سيد قطب مع ثورة ٥٢، كما سـيتضح فيمـا بعـد، واختلـف الإخـوان ، وحدث ما حدث وأدانوا ثورة ١٩٥٢ فى كتاباتهم ، لكنهم ومعهم مريدو سيد قطـب لم يمتلكوا الشجاعة الأدبية لكى يعترفوا أنهم عانوا من أفكارهم هم أنفسهم، وأن مـا حـدث طوال الخمسينيات والستينيات لم يخرج فى جوهره عمـا تمنـاه سـيد قطـب ودعـا إليـه فـى الشهور الأخيرة من عام ١٩٥٢.

والمعنى المؤكد أنهم ، لو آل إليهم حكم البلاد ، فإن تلك هى قواعدهم ومبادئهم فـى الحكم، وأنصار سيد قطب فى أفضل أحوالهم لن يخرجوا عن القواعد التى قررها من قبـل، وإن كان قد أضاف إليها بعد ذلك ما هو أسوأ وأظلم.

لكن يبقى السؤال ملحا أمام التاريخ وهو إذا كـان سـيد قطـب إلى هـذا الحـد مؤيـدا لإجراءات الضباط ومساندا لهم ، بل متوحدا معهم ، فلماذا ابتعد عنهم ، ووقعت الفرقـة بينه وبينهم ، وحدث ما حدث؟

عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ، بدأ سيد قطب يتردد على مجلس قيادة الثورة ، وكانت علاقته قوية بهؤلاء الضباط ، ويشهد صديقه عبـاس خضـر "رأيـت سـيد قطـب فـى حالـة نشاط غير عادى ، تحمس للثورة كوسيلة للتغيير وأمل فى الأحسن، وكان يتردد إلى مجلس الثورة وتردد اسمه فى الصحف، ضمـن أنبـاء اجتماعـات ولقـاءات [١]". وقيـل إن علاقتـه كانت قوية بهم إلى درجة أن أوكل إليه الضباط مهمـة تغيـير منـاهج التعليم، هـو وسـعيد العريان [٢] ، ولكن أحد مساعدى الرئيس عبد الناصر نفـى تمامـا أن سـيد قطـب كـان لـه

(١)عباس خضر. هؤلاء عرفتهم . صفحة ٥٨.

(٢)عادل حمودة . سيد قطب من القرية إلى المشنقة.

مكتب في مجلس القيادة [١] . وفي مذكراته الأخيرة قبل الإعدام مباشرة ، قال سيد قطب". أعمل أكثر من اثنتى عشرة ساعة يوميا قريبا من رجال الثورة ومعهم ومع من يحيط بهم [٢] . ويقول أيضا إنه كان "مقربا من رجال الثورة وموضع ثقتهم. ومع تشاورنا كذلك على المفتوح فى الأحوال الجارية إذ ذاك، مثل مسائل العمال والحركات الشيوعية التخريبية ، بل مثل مسألة الانتقال – المرحلة الانتقالية– ومدتها والدستور الذى يصدر فيها" [٣] .

إلى هذا الحد كان مقربا منهم ، وهو ما تشهد به وتؤكده مقالاته وآراؤه فى تلك الفترة، والتى نشرها فى الصحف.

وبعد أن كان مطلعا على ما يجرى فى المطبخ السياسى ، أخذ يبتعد عنهم ، وقد حدد هو نفسه تاريخ هذا الابتعاد "استغرقت فى العمل مع رجال ثورة ٢٣ يوليو حتى فبراير سنة ٥٣ عندما بدأ تفكيرى وتفكيرهم يفترق حول هيئة التحرير ومنهج تكوينها وحول مسائل أخرى جارية فى ذلك الحين [٤]" . وتفسيره للخلاف عام وفضفاض ، وهذا ما أتاح للباحثين حرية الاجتهاد والتحليل، ويكاد سليمان فياض يحدد السبب فى علاقة الضباط بالولايات المتحدة، فحين ذهب لزيارة قطب والتعرف عليه بمنزله فى حلوان، ونفهم أن هذا كان بعد ابتعاده عن ضباط الثورة ، سأله سيد قطب عن رأيه فى الثورة ، فأعاد عليه سليمان السؤال فأجابه "لا أجد فى تطور أمورها ما يريح، فهؤلاء الأمريكان يحاولون احتواءها بدلا من الإنجليز ، أتفهم ما أعنيه"؟ [٥] .

والحقيقة أن هذا القول يصعب قبوله على هذا النحو، لأن علاقة ضباط يوليو بالولايات المتحدة كانت قائمة قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وقد بات فى حكم المؤكد الآن أن "مايلزكوبلاند" دبر لقاءات فى مارس ١٩٥٢ بين روزفلت رجل المخابرات المركزية ومندوبين عن الضباط الأحرار ، ووصل الأمر إلى حد أن "عملاء" الولايات المتحدة فى القاهرة اعترفوا بالضباط الأحرار قبل وقوع الانقلاب بيومين أو ثلاثة "وروى محمد حسنين هيكل فى "وثائق القاهرة" أن الملحق العسكرى الأمريكى.. دافيد إيفانز" كان على صلة

---

(١)سامى شرف. محضر اتصال تليفونى.

(٢)سيد قطب . لماذا أعدمونى؟ – المسلمون – العدد الثانى.

(٣)سيد قطب . المرجع السابق.

(٤)سيد قطب . المرجع السابق.

(٥)سليمان فياض . الهلال . سبتمبر ١٩٨٦.

بالضباط الأحرار ليلة ٢٣ يوليو [١]، ويمكن القول إن هذه كلها كانت اتصالات سرية لم يكن يعلم بها سيد قطب .

بعد ٢٣ يوليو صارت الاتصالات علنية ، ودور السفير الأمريكى "كافرى" إلى جوار الضباط الأحرار فى الأيام الأولى للثورة معروف ، فهو الذى ساهم فى إقناع الملك فاروق بمغادرة البلاد فى هدوء ، وكافرى هو الذى ضمن للإنجليز أن يخرج "فاروق" من مصر آمنا سالما وبشكلرسمى ، وكانت التصريحات الأولى لمحمد نجيب مقصود بها طمأنة أمريكا ، وعقب إعدام خميس والبقرى ، أعلن محمد نجيب أن مجلس القيادة لن يسمح للشيوعيين بأى حركة فى البلاد، ورحبت الصحف الأمريكية بذلك التصريح، بل وبإعدام العاملين . وكان سيد قطب يعرف هذا جيدا، فقد كان هو الذى كتب مطالبا بإجراء حاسم مع عمال كفر الدوار. ولو أن سيد قطب كانت لديه تلك الحساسية الشديدة تجاه ما أسماه محاولة أمريكا احتواءهم ، لما اقترب منهم أصلا، فقد كانت تلك المحاولات قائمة وبقوة من قبل ٢٣ يوليو وظلت قائمة بعد ذلك لسنوات!! ولعل الموقف الأفضل كان ألا يبتعد عنهم ويظل منبها ومحذرا من تلك المحاولات [٢] !!

كانت حساسيات سيد قطب كثيرة ، لكنها لم تكن تدفعه إلى الابتعاد عن مصدر تلك الحساسية ، كان حساسا تجاه الولايات المتحدة، وموقفها فى فلسطين المساند لليهود وللصهيونية، ورغم ذلك سافر إلى أمريكا لمدة عامين ، وعاد.

وكانت لديه حساسية تجاه اليهود والصهيونية ، ولما قامت مجلة "الكاتب المصرى" بدعم من مليونير مصرى يهودى ، وهاجم البعض د. طه حسين لأنه قبل رئاسة تحرير المجلة، ووصل الأمر إلى اتهام د. طه بالصهيونية ، ولاحقت الشائعات المجلة ولم يعبأ سيد قطب بتلك الحساسية ، حيث كتب مقالات للكاتب المصرى بل وأهدى كتابه "طفل من القرية" إلى د. طه حسين ، وصدر الكتاب وقت صدور المجلة !!

الرواية الثانية تتردد لدى بعض الإخوان ، وهى أن سيد قطب ابتعد بعد تشكيل هيئة التحرير، لأنها لا تعمل بالمنهج الإسلامى ، وأنه آثر الفرار بأفكاره رافضا الهيئة ومنصب

---

(١) حول اتصالات الضباط الأحرار بالولايات المتحدة.. راجع "جايل ماير" .. الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ - ١٩٥٨. ترجمة د./ عبد الرءوف عمرو ، سلسلة تاريخ المصريين ١٩٩٩ . وأيضا جيفرى أرونسن "واشنطن تخرج من الظل" تقديم محمد سيد أحمد. ترجمة سامى الرزاز . الناشر مؤسسة الأبحاث العربية "بيروت" ودار "البيادر" القاهرة.

(٢) ساءت العلاقة بين ثورة يوليو والولايات المتحدة فيما بعد ، ووصل الأمر إلى حد العداء ، مما يعنى فشل نظرية الاحتواء.

الوزير المعروض عليه من عبد الناصر. يقول محمود عبد الحليم "إن العداء القديم بين الأستاذ سيد قطب وبين جمال عبد الناصر ، منذ أنشأ هذا الأخير هيئة التحرير وطلب من الأستاذ سيد قطب أن يرعى هذه الهيئة، وشاع في ذلك الوقت أنه يرشحه وزيرا للتربية والتعليم فرفض الأستاذ سيد هذا العرض مؤثرا أن يبقى حيث هو وفيا لدعوته.. ويقول أيضا "كان هناك تركيز من جمال عبد الناصر على جر شخصيتين إخوانيتين بالذات إلى الهيئة وهما الإخوان البهي الخولي وسيد قطب (..) وشاع في الأوساط الإخوانية أنه مرشح وزيرا للمعارف.."

والمعلومة الأساسية في رواية محمود عبد الحليم ليست صحيحة فالحقيقة أن سيد قطب لم يكن عضوا بالإخوان حين تأسست هيئة التحرير في يناير ١٩٥٣. وهناك لغط شديد حول عضوية سيد قطب بالإخوان ، فقد ذهب صلاح شادى[1] إلى أن سيد قطب انتخب سنة ١٩٥٢، لم يحدد بالضبط تاريخ الانتخاب - عضوا في مكتب الإرشاد للجماعة وأنه عين رئيسا لقسم نشر الدعوة في المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين، والثابت أن سيد قطب لم يكن قد انضم أصلا إلى الإخوان سنة ١٩٥٢.

ويقدم يوسف العظم رواية مشابهة ، حيث يذهب إلى أن سيد قطب انضم للإخوان سنة ٥١. يقول "كانت صلة الرجل بالجماعة إعجابا ، فاتصالا ، فانتظاما في الصحف عقب عودته من الولايات المتحدة عام ١٩٥١" [2].. ويقول أيضا "وفي عام ١٩٥٢ فور خروج رجال الإخوان المسلمين من معتقلات فاروق، انتخب الأستاذ سيد قطب عضوا في مكتب الإرشاد للجماعة وعين رئيسا لقسم نشر الدعوة في المركز العام للجماعة" [3]..

والحقيقة أن سيد قطب عاد من الولايات المتحدة في سنة ١٩٥٠ وليس في عام ١٩٥١، ولم ينضم إلى الإخوان. بل انشغل في "معركة الإسلام والرأسمالية"!!

ويذهب بعض الإخوان وبعض الكتاب من غير الإخوان إلى أن سيد قطب انضم إلى الإخوان سنة ١٩٤٨ وفي عهد المرشد الأول حسن البنا. ومصدر هذا اللغط كله، فقرة الإهداء في كتابه العدالة الاجتماعية في الإسلام "إلى الفتية الذين ألمحهم في خيالي قادمين يردون هذا الدين جديدا كما بدأ.. يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم " وفهم

---

(١)صلاح شادى: "الشهيدان. حسن البنا وسيد قطب" دار الوفاء للطباعة والنشر. ط٥. سنة ١٩٩٤ ص ٥٥ و٥٦.

(٢)نقلا عن د. صلاح الخالدى. سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد.

(٣)المرجع السابق، وراجع أيضا صلاح شادى "الشهيدان".

الإخوان أنهم المعنيون بهذا الإهداء، ولكن كما قال هو "لم يكن الأمر كذلك ، ولكنهم من جانبهم تبنوا الكتاب، واعتبروا صاحبه صديقا، وبدأوا يهتمون بأمره ، فلما عدت فى نهاية عام ١٩٥٠ بدأ بعض شبابهم يزورنى ويتحدث معى".

تلك كانت كل صلته بالإخوان ، أما انضمامه رسميا لهم فكان سنة ١٩٥٣، ويتحدث هو عن تلك الظروف قائلا "كانت علاقاتى بجماعة الإخوان تتوثق باعتبارها فى نظرى حقلا صالحا للعمل للإسلام على نطاق واسع فى المنطقة كلها بحركة إحياء (شعبى شاملة)، وهى الحركة التى ليس لها فى نظرى بديل يكافئها للوقوف فى وجه المخططات الصهيونية والصليبية الاستعمارية، التى كنت قد عرفت عنها الكثير وبخاصة فى فترة وجودى فى أمريكا، وكانت نتيجة هذه الظروف مجتمعة انضمامى بالفعل سنة ١٩٥٣ إلى جماعة الإخوان المسلمين". ويبدو أن هذا حدث فى شهر فبراير – تاريخ ابتعاده عن الثوار – أو أوائل مارس لأن المرشد العام المستشار حسن الهضيبى أرسله إلى دمشق فى ٢ مارس ٥٣ مشاركا فى مؤتمر "الدراسات الاجتماعية" والتقى بقيادات الإخوان هناك.

والمتابع لمؤلفات سيد قطب ، خاصة العدالة الاجتماعية يلمس ذلك ، ففى طبعة مارس سنة ٥٤ غيَّر إهداء الكتاب ليكون – فعلا – إلى شباب الإخوان "إلى الفتية الذين كنت ألمحهم بعين الخيال قادمين ، فوجدتهم فى واقع الحياة قائمين، يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، مؤمنين فى قرارة نفوسهم : أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين".

أما عرض منصب وزير المعارف عليه ، فليس هناك ما يؤكده ، والروايات الإخوانية تقدمها على أنها شائعات ، ولكن الشيخ محمد الغزالى يقرر أن الذى عرض على سيد قطب هو "منصب وكيل وزارة المعارف ، ولكن رفض سيد قطب" [1].

ويقودنا قول الشيخ الغزالى إلى الرواية الثالثة عن ابتعاد قطب عن الثوار، ويقدمها صديقه عباس خضر.. يقول "شممت من بعيد رائحة تطلعه إلى وزارة التربية ولكن تولاها سيد يوسف الذى كان يمت إلى جمال عبد الناصر بقرابة عائلية، وشعر سيد قطب بخيبة الأمل فى ذلك المنصب، واشتد سخطه على الأحوال الجارية" [2] .. ويقول أيضا "والواقع أن سيد قطب – برغم كل شئ – كان طموحا إلى درجة قاتلة ، وكان فى الوقت نفسه شمعة تضئ وتحترق، ولعله كان يرمى من طموحه إلى الرئاسة أن يتمكن من العمل ، ومع

---

(١)شريف يونس – مرجع سابق – ص١٠٤.

(٢)عباس خضر. هؤلاء عرفتهم . ص٥٨.

ذلك الطموح الكبير بل الإفراط فيه إلى حد أن ثقل به. لم يلجأ إلى دجل أو تهريج للوصول. كان جادا مترفعا" [1]..

ويبدو أن سيد قطب كان قد هيأ نفسه للعمل مع الحكام الجدد ، وترك الوظيفة ، لذا قدم استقالته فى ١٨ أكتوبر ١٩٥٢ من وظيفة "مراقب مساعد" فى مكتب وزير المعارف، للبحوث الفنية والمشروعات ، وكان قد شغل هذا الموقع فى ١٧ مايو ١٩٥٢.

بعد قيام الثورة وجد نفسه قريبا من الحكام الفعليين للبلد ، واعتبر نفسه واحدا منهم، وقدم لهم كل شئ ، فى حدود مهنته "الكتابة" وكان ينتظر أن يعاملوه بالمثل، وأن يعتبروه واحدا منهم ، من الحكام ، والمنصب الذى انتظره وزير المعارف، كما ذكر عباس خضر، وكذلك الشيخ محمد الغزالى ، الذى أكد تطلع سيد قطب إلى هذا المنصب أو منصب مدير الإذاعة ، ففوجئ بهم يعرضون عليه وظيفة "وكيل وزارة" ولقد شهدت تلك الفترة تغير العديد من المناصب، وشغل أناس مواقع مهمة ، وكانوا أصغر منه سنا، ولم تكن لديهم مواهب أو خبرات كبيرة ، فآلمه ذلك ، مع ما عرف عنه من اعتداد بالغ بنفسه"، ومن يراجع مقالات سيد قطب فى حملاته النقدية يكتشف ذلك الاعتداد بسهولة، ومن يراجع كتابه "طفل من القرية" سوف يفاجأ من حجم الصفات النبيلة التى خلعها على نفسه!!

وهكذا فإن الثوار قد خذلوه شخصيا!!

وفى السنوات الأولى للثورة كانت علاقة سيد قطب بالثوار وبالإخوان تسير فى خطين متوازيين ، كان يوثق صلاته بمجلس قيادة الثورة ، ويوثق صلاته بالإخوان، ففى ١٨ أغسطس ٥٢ عقد المستشار حسن الهضيبى مرشد الإخوان مؤتمرا صحفيا للمطالبة بالإفراج عن سجناء الإخوان ، وتحدث فى المؤتمر كل من عبد الحكيم عابدين وسيد قطب والهضيبى . قال قطب "إن منطق الثورة يقضى بإطلاق سراح هؤلاء الإخوان المعتقلين فورا (..) إنهم الكوماندوز.. هم طلائع حركة محمد نجيب، ولهذا فالإفراج عنهم أمر مكمل للحركة ، بل نتيجة طبيعية للثورة الجديدة".

وقال الهضيبى "لقد عاون هؤلاء الساسة الملك السابق على أخطائه فيجب أن يجرى عليهم ما جرى على الملك السابق. تلك هى العدالة التى نطالب بها وفكرة الهضيبى عبر عنها سيد قطب فى مقالاته!!

---

(١) عباس خضر هؤلاء عرفتهم . ص ٦٠.

والواقع أن صلة سيد قطب بالإخوان كانت تحقق له أمرين مهمين ، الأول أنها تتلاقى في عمومياتها مع أفكاره وآرائه ، ثانيا : أن التفاف شباب الإخوان حوله وسعيهم إليه . يجعله يشعر بتحقيق ذاته وصار له تلاميذ ومريدون ومعجبون، كما كان للعقاد ومع شباب الإخوان وجد الاعتراف والتحقق الذى لم يجده فى النقد والأدب.. ومع الثوار كان يتحقق له أن تتحول آراؤه السياسية إلى مطالب يتردد صداها عند صناع القرار والأحداث في مصر وعلى الأقل تجد من يتبناها ويعمل على تحقيقها!!

ظل سيد قطب يتعامل مع الثوار ومع الإخوان بأسلوب سهل وسلس ، لا يفتر من وقوع خلاف بين الاثنين وكان الإخوان يعتبرون أنفسهم أصحاب الثورة وصانعيها، وعلى هذا الأساس لم يكن مضطرا للمفاضلة أو الاختيار بينهما، ولما خذله الثوار ولم يحققوا له طموحاته الخاصة بتعيينه وزيرا أو فى منصب رفيع آخر، كذلك بدا التمايز بين الثوار والإخوان ، تركهم وقفز نهائيا إلى سفينة الإخوان وحتى هذا التصرف لم يكن يسبب له مشكلة لأن العلاقة بين الطرفين لم تكن بلغت الافتراق الحاد إلى أن حدث الخلاف والعداء فكان عليه أن يتحمل تبعات هذا الخلاف!!

وليس صحيحا أنه كان عضوا بمكتب الإرشاد في الجماعة ولا أنه تولى رئاسة قسم النشر والدعوة بالإخوان ، ولكنه كان يلقى حديث الثلاثاء بين الشباب فى المركز العام للجماعة، وفى نهاية ١٩٥٣ قرر المرشد العام إصدار جريدة أسبوعية، على أن يكون سيد قطب رئيس تحريرها، وكان سيد قطب في فلسطين موفدا من قبل المرشد العام فى مهمة إخوانية ، فاستدعاه المرشد فى ديسمبر ١٩٥٣ ليتولى مسئوليته الجديدة .

كان وزير الداخلية الذى منح الجريدة الترخيص هو البكباشي جمال عبد الناصر، وقد وافق على الفور إلى حد أنه لم ينتبه إلى أن سيد قطب هو رئيس التحرير، ولفت سكرتيره الخاص انتباهه إلى ذلك وقيل إنه استدعى سيد قطب وسأله: يا أخ سيد هل أنت من الإخوان ؟ فرد عليه : لم أكن فكنت . وكانت الإجابة دالة وقاطعة.

وبينما يستعد لإصدار المطبوعة الجديدة "الإخوان المسلمون" ساءت العلاقة بين الإخوان والثورة فصدر قرار بحل الجماعة في يناير ١٩٥٤ ، وألقى القبض على عدد من الإخوان ، كان هو بينهم، وظل فى المعتقل حتى مارس من نفس السنة ، حين انفرجت الأمور بين الإخوان والثوار، فأفرج عنهم، وعاد الاستعداد لإصدار المطبوعة. هل كان وضع اسمه بين المعتقلين هذه الشهور الثلاثة، تنبيها وإنذارا له بالابتعاد!! ، ربما .. لكنه خرج أكثر إصرارا.

أصدر سيد قطب العدد الأول من "الإخوان المسلمون" في ٢٠ مايو ١٩٥٤ – يوم الخميس – ونلاحظ أن مقالاته بها، كانت أكثر هدوءا . فقد اختفى منها الحماس البالغ الذى كان فى مقالاته السابقة ، واختفى التأييد المطلق بل والتحريض على كل ما يجرى، فلم يعد فى صفوف الضباط ، بل صار فى الضفة الأخرى ، وزاد الغمز واللمز لديه فى الحكم القائم، كان الحديث وقتها يدور عن الاختيار بين الوطنية القطرية ، أو القومية العربية، وهل ترتبط مصر بالعالم العربى ، أم تبتعد ، وربما تقترب من التحالف الغربى ، وكان لكل فريق صداه وأنصاره ، حتى داخل مجلس القيادة ، وعلى الفور انتقد سيد قطب التيارين معا .. "يوما بعد يوم يتضح أن الدعوات القصيرة النظر إلى قومية محلية فى بعض البلاد على مثال الدعوة القومية السورية ، أو الدعوة إلى قومية عربية فقط كدعوة البعثيين هناك . يوما بعد يوم يتضح أن هذه الدعوات القصيرة النظر فات أوانها ، ولم تعد تلبى حاجة الموقف . ولم تعد تتفق مع روح العصر" [١] ، ويتحدث عما جرى فى مصر "لقد عمل الاستعمار جاهدا على عزل مصر فى الأشهر الأخيرة لينفرد بها، وكانت الحركة المضادة، هى حركة تجميع القوى العربية. وهى خطوة طيبة فى طريق التجمع الأكبر ، تجمع الكتلة الإسلامية، التى تعانى من ويلات الاستعمار ما تعانى [٢]. ويصل إلى ما يريده وهو "إن قضية مصر لا تخص المصريين وحدهم ، فمصر ليست سوى قطاع فى الجبهة الإسلامية ، وكذلك كل قضية أخرى من قضايا الشعوب الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها" [٣] . ويرى أنه "مما يدعو إلى الطمأنينة – على الرغم من جميع عوامل القلق – أن الشعوب تدرك هذه الحقيقة التى تحدثنا عنها، تدركها بفطرتها السليمة ، وتتجه إليها بحماسة وقوة. ولا تسمع إلى حملات التضليل ، ولا تستجيب للمناورات التى يبذلها الاستعمار وعملاؤه للعزلة والانكماش داخل حدودها الإقليمية".

ويتبنى الدعوة إلى الوحدة الإسلامية "نحن ندرك أن النظرة القومية المحدودة ليست سوى قصر فى النظر يستغله خصومنا المشتركون، وإن مصر ليست سوى قطاع فى جبهة موحدة كبيرة . وكل معركة فى قطاع من قطاعات هذه الجبهة الكبيرة تؤثر نتائجها فى مصير القطاعات الأخرى [٤]" ويرى أن "اصطلاح العالم الإسلامى ليس اصطلاحا عاطفيا، إنما هو تعبير عن حقيقة واقعة فى السياسة الدولية الحاضرة.

(١) سيد قطب – مجلة الإخوان المسلمون – عدد ١٩٥٤/٧/٨.

(٢) العدد السابق ١٩٥٤/٧/٨.

(٣) العدد السابق.

(٤) العدد السابق – عدد ٢٧ مايو ١٩٥٤.

فهناك وحدة معنية تحمل هذا الاسم ، وهي ذات مصلحة مشتركة في كفاح الاستعمار [١]، ويؤكد سيد قطب أن "الرقعة التي يطلق عليها اسم العالم الإسلامي هي اليوم محور المطامع الدولية وهي التي يدور عليها الصراع . هذا الصراع الذي يسير السياسة الدولية . ومن هذه الزاوية يجب أن ننظر نحن إلى السياسة الدولية" [٢] .

وفي مقالاته يضع السم في العسل، أو يذبح بسكين ناعم كالحرير، ففي مقال له بعنوان "هذا الشعب يريد أن يتحدث عن رفض التحالف مع الاستعمار" وأن هذا هو موقف الشعب "لا يزال الشعب عند موقفه يرفض كل تحالف مع الاستعمار" وهو يسجل لحكامه الجدد أنهم يعلنون عن رغبته الحاسمة في رفض كل تحالف مع الاستعمار [٣] . وكان ذلك القول هجوما على بعض بنود اتفاقية الجلاء وهنا كانت النبرة قد تغيرت ، تجاه الضباط وصار اسمهم "الحكام الجدد" ، وقبل ذلك كانوا المثال الذى لم يتحقق إلا في مطالع النبوات ، ولكن بعد أن يذكر تسجيل الشعب وتقديره لموقف "الحكام الجدد" . يوجه ما يشبه النصح أو التحذير لهؤلاء الحكام من أى مساس بالإخوان المسلمين ، حيث يتحدث عن عام ١٩٤٨ وما جرى فيه "في هذا العام استطاع فاروق وأعوانه أن يقتلوا حسن البنا مرشد الإخوان المسلمين . وأن يمضوا في الإخوان تقتيلا وتعذيبا وتشريدا وتنكيلا وأن يقذفوهم بشتى الاتهامات الباطلة" [٤] .

وفي رأيه أن تلك كانت نهاية الحكم كله "كانت هذه كذلك بداية النهاية لعهد فاروق كله. وعهد الملكية . أقدم ملكية عرفها التاريخ . ديست صور فاروق بالنعال في الجامعة . وهتفت بسقوطه القلوب والشفاه" [٥] ، حدث هذا كله رغم أنه "لم يكن الشعب كله إخوانا مسلمين ولكن جريمة فاروق وعملائه مع الإخوان هزت مشاعر الشعب كله بعد فترة، وزلزلت العرش الذى عاش أحقابا طويلة قبل التاريخ [٦]" وينهي المقال بأن "اغتيال حسن البنا والتنكيل بالإخوان بداية النهاية في حياة أقدم عرش عرفه التاريخ [٧]".

---

(١)العدد السابق.

(٢)العدد السابق.

(٣)سيد قطب – الإخوان المسلمون – عدد ٢٤ يونيه ١٩٥٤.

(٤)المرجع السابق.نفس العدد.

(٥)المرجع السابق.نفس العدد.

(٦)المرجع السابق.نفس العدد.

(٧)المرجع السابق.نفس العدد.

ورغم أن الاستنتاج لم يكن دقيقا ، ذلك أن سقوط فاروق وعرشه كان لأسباب عديدة، أعمق كثيرا من اغتيال المرشد العام للإخوان ، لكن الرسالة كانت واضحة من سيد قطب إلى "الحكام الجدد" ، بأن الاقتراب من الإخوان بالاضطهاد أو التنكيل أو الاغتيال سوف يكون النهاية، بالنسبة لهم!!

ويزيد في هذا المعنى الرسم الكاريكاتيرى الذى نشر إلى جوار المقال، فقد كان "لقرفان أفندى" يحمل أمتعته خارج العمارة قائلا للبواب "عايز أشم شوية هوا"!!

وقيل إن رئيس الوزراء جمال عبد الناصر راجع سيد قطب فى حكاية "قرفان أفندى" والقرفانين أى أن الرسالة وصلت إلى حيث يريد لها أن تصل.

غير هذا فإن الصحيفة كانت هادئة، وتحدث سيد قطب فى مقال لها عن الأدب الإسلامي ، ومقال آخر عن الفن والحياة الإبداعية في الإسلام . ويتهكم فى عدد آخر على الأستاذ محمد التابعى لأن التابعى كان قد شن هجوما على الصحف اللبنانية والسورية والعراقية التى تهاجم "حكم البكباشية فى مصر "ولم تهاجم من قبل فاروق" [1] !!

توقفت "الإخوان المسلمون" بعد ١٢ عددا، ويرى عدد من كتاب الإخوان أن الحكومة عطلتها ومنعتها من الصدور، ويجزم صلاح شادى بأن "عطلها عبد الناصر بعد شهر واحد وخمسة أيام حين بدأت تعارض المعاهدة الإنجليزية المصرية التى عقدها عبد الناصر وضباط الحركة مع الإنجليز" [2] .

والحقيقة أنها توقفت بعد ثلاثة شهور ، وكان سيد قطب هو الذى نفى ادعاء شادى ، ففى محاكمة المرشد العام حسن الهضيبى ، بعد حادث المنشية ، استدعى سيد قطب للشهادة - كان الشاهد الرابع - وقال فى جلسة ٢٢ نوفمبر ١٩٥٤ "أغلقت الجريدة لعدم استطاعتى نشر ما أريده".

حين جرت محاولة اغتيال عبد الناصر فى المنشية - ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤- تم القبض على أعداد كثيرة من الإخوان ، وكان سيد قطب أحد المطلوبين ، فهرب فى بنى سويف وتم الإمساك به فى ١٨ نوفمبر ١٩٥٤ ووجهت إليه تهمة كتابة المنشورات السرية للإخوان ضد الثورة ، ومن سير التحقيق والاستجوابات تبين أنها كانت نشرة خاصة

---

(١)الإخوان المسلمون . عدد ١٠ يونيه ١٩٥٤. وقد جمعت بعض مقالات سيد قطب فى "الإخوان المسلمون" ونشرت فى كتابه "فى التاريخ.. فكرة ومنهاج".

(٢)صلاح شادى "الشهيد". صفحة ٥٦.

بالإخوان ، وليست منشورات ، وكانت النشرة بعنوان "الإخوان فى المعركة" وقد تحدث هو فى المحاكمة عن ظروف إصدار تلك النشرة، فقد أكد أنه بعد إغلاق "الإخوان المسلمون" قال للمرشد "يمكن أن نطبع التعليقات فى المكتب الإدارى للقاهرة . ووجدت أن المكتب ليس لديه إمكانية صالحة فأمر المرشد بشراء ماكينة جديدة بمبلغ ١٨٠ جنيها دفعها المرشد على دفعتين وسلمت المبلغ لمندوبى المكتب الإدارى لاستحضار الماكينة".

وفى المحاكمات أيضا قال الصيدلى خميس حميدة . إن – مكتب الإرشاد – قرر وقف هذه النشرة بعد العدد العاشر، ولكنه ظهر بعد ذلك العدد ١١ ولم يكن لهم به علم.

وفى جلسة ٢٠ نوفمبر ٥٤ قرأ مصطفى الهلباوى – رئيس نيابة أمن الدولة – هذا العدد من النشرة أو المنشور ، وجاء فيه "يشيع فى بعض الأوساط المطلعة على بواطن الأمور أن رئيس الحكومة المصرية عقد اتفاقا سريا مع إسرائيل على الأسس الآتية.

–أولا: أن تقف إسرائيل موقف الحياد من النزاع المصرى – البريطانى.

–ثانيا: أن تقف الحكومة المصرية موقف الحياد من أى نزاع يقع بين إسرائيل والدول العربية الأخرى ، فإذا صحت هذه الأخبار فإنها تكون كارثة وأعجب ما رأت الدنيا" [(١)] .

والحقيقة ان كاتب هذه الكلمات ، كان حصيفا ، فقد بدأها بكلمة "يشيع" أى أنها ليست معلومة مؤكدة ، وينهيها بالفعل المشروط "إذا صحت"، كان بيانا للهجوم السياسى وتجنب المساءلة القانونية !!

وحين يسأل جمال سالم – رئيس المحكمة (محكمة الشعب) – الشيخ فرغلى عن تلك (المنشورات) ومن يحررها قال "كان مفهوما أن الأستاذ سيد قطب هو الذى يقوم بتحرير المنشورات وتوزيعها".

ولما سئل يوسف طلعت فى المحكمة عن هذا الموضوع..

–سيد قطب كان يكتبها .

–أيوه يا فندم.

وسأل البكباشى إبراهيم سامى الشيخ فرغلى – جلسة ٩ نوفمبر – عن المنشورات ..

(١)طبعت محاضر وجلسات "محكمة الشعب" ، فى طبعتين الأولى ، بلا تاريخ وكانت فى خمسة أجزاء، وطبعة ثانية فى ستة أجزاء، ويبدو أن الثانية منقحة ومحذوف منها بعض كلمات رئيس المحكمة – جمال سالم – وقد اعتمدت على الطبعة الأولى.

-أنت قلت إن المنشورات تصدر من جهة معينة مين هي؟

-الأستاذ سيد قطب.

أدانت المحكمة سيد قطب بتلك التهمة ، وصدر ضده حكم بالحبس لمدة ١٥ سنة بالتمام والكمال !! ولا يكفى هنا القول إن الحكم كان قاسيا أو أنه كان ظالما، فما كان يجوز أن يحاكم من الأساس ، لأن حادث المنشية ينحصر فيمن أطلق الرصاص ومن ساعده بشكل مباشر وبدرجة أقل من حرّض ، ولم يكن سيد قطب واحدا من هؤلاء، ولا كانت له علاقة بالحادثة من قريب أو بعيد ، كان سيد قطب كاتبا اختلف مع الثوار ، ولم تعجبه اتفاقية الجلاء، وهى لم تعجب الكثيرين آنذاك ، ومن يقرأ شروطها اليوم يجد أنها كانت مجحفة للمصريين ولا تحقق لهم الاستقلال التام ، صحيح أن تورط الإنجليز فى العدوان الثلاثي بعد ذلك أدى إلى إلغاء تلك المعاهدة، وتحرر مصر من بنودها، وحصولها على الاستقلال ، ولكن المعاهدة فى حينها لم تجد قبولا بين جميع التيارات والمثقفين ، كان سيد قطب كاتبا استعمل حقه فى أن يبدى رأيه ، ومهما يكن فى هذا الرأى من شطط فى التعبير أو الاختلاف ، فإنه يظل رأيا ينبغى أن يحترم صاحبه، لا أن يحاكم ويسجن ١٥ سنة!!

وربما نتصور أن هذا الحكم كان نوعا من "شد الأذن" ثقيل العيار لسيد قطب، كما حدث من قبل، مع إحسان عبد القدوس!! وكان يمكن أن يفرج عن سيد قطب بعد ذلك، فى عفو عام أو عفو صحي، وكانت المناسبات كثيرة ، منها مرضه بالفعل ، ومنها مرور تأميم قناة السويس ، ونجاة مصر من العدوان الثلاثي ، كان يمكن أن يحدث ذلك، وكان على الدولة أن تبدأ صفحة من التسامح، والبداية الجديدة، خاصة أن سيد قطب كان إلى وقت قريب، مقربا من الثوار ومخلصا لهم فى أيامهم الأولى (الصعبة) ، لكن أحدا لم يتذكره!!

وأخيرا فى مايو ١٩٦٤ تم الإفراج عنه بعفو صحي وبقرار من رئيس الجمهورية ، وتم الإفراج بمساعدة من الرئيس العزاقى عبد السلام عارف وعموما كانت الدولة قد قررت أن تغلق ملف الإخوان المسجونين منذ ١٩٥٤، وكان المفروض أن يخرجوا جميعا فى سنة ١٩٦٥ ، وحتى بعد الإفراج عنه ، فإنه ظل ينفى التهمة الموجهة إليه فى ١٩٥٤.. قال "اتهمت بأنى فى الجهاز السرى ورئيسا لقسم المنشورات به ، ولم يكن شئ من هذا كله صحيحا.. وأرجو أن يلاحظ أننى لا أقصد تبرئة نفسي من عمل سجنت من أجله عشر

سنوات وانتهى أمره ولا قيمة لتبرئة نفسى منه الآن"[١] .

عاد سيد قطب إلى الحياة العامة ، بأفكار وآراء جديدة ، واقتناعات محددة ، تقوم على أمرين أساسيين حددهما هو . الأول أن تبدأ الحركة من القاعدة ، وليس من القمة ، وذلك يكون عبر "إحياء مدلول العقيدة الإسلامية فى القلوب والعقول، وتربية من يقبل هذه الدعوة وهذه المفهومات الصحيحة ، تربية إسلامية صحيحة ، والابتعاد عن إضاعة الوقت فى الأحداث السياسية الجارية أو محاولات فرض النظام الإسلامى عن طريق الاستيلاء على الحكم قبل أن تكون القاعدة المسلمة فى المجتمعات هى الساعية للنظام الإسلامى لأنها عرفته على حقيقته وتريد أن تحكم به [٢]" .

ويترتب على هذا أنه "لا يجوز البدء بأى تنظيم إلا بعد وصول الأفراد إلى درجة عالية من فهم العقيدة ومن الأخذ بالخلق الإسلامى فى السلوك والتعامل ومن الوعى [٣]".

الأمر الثانى "رد الاعتداء الذى يمكن أن يقع على الحركة". يقول "لابد من حماية الحركة من الاعتداء عليها من الخارج . وتدمير ووقف نشاطها وتعذيب أفرادها كالذى حدث للإخوان سنة ١٩٤٨، ثم سنة ١٩٥٤ وسنة ١٩٥٧ [٤]" ويضيف موضحا "هذه الحماية تتم عن طريق مجموعات مدربة تدريبا فدائيا بعد تمام تربيتها الإسلامية من قاعدة العقيدة ثم الخلق" هذه المجموعات لا تبدأ هى اعتداء ولا محاولة لقلب نظام الحكم ، ولا مشاركة فى الأحداث السياسية المحلية (...) هذه المجموعات لا تتدخل فى الأحداث الجارية، ولكنها تتدخل عند الاعتداء على الحركة والدعوة والجماعة لرد الاعتداء وضرب القوة المعتدية بالقدر الذى يسمح للحركة أن تستمر فى طريقها [٥]".

ولقد تعرض هذا الاختيار لتجربة واقعية، عقب خروجه مباشرة ، فقد التقى بعدد من الشبان، سمى بعضهم ، وهم عبد الفتاح إسماعيل وعلى العشماوى وأحمد عبد المجيد، وغيرهم.. وبعد عدة لقاءات ، أخبروه أنهم يشكلون تنظيما ، منذ حوالى أربع سنوات أو أكثر، ومشكلتهم أنهم بلا قيادة ، لم يقع اختيارهم على قيادة من بينهم ، وذهبوا إلى الجيل القديم من الإخوان ، والتقوا مع فريد عبد الخالق وعبد العزيز على ، ولكنهم لم يجدوا

(١)سيد قطب . لماذا أعدمونى؟

(٢)سيد قطب . لماذا أعدمونى؟ جريدة المسلمون عدد ٣ – ٢٣ فبراير ١٩٨٥.

(٣)سيد قطب . لماذا أعدمونى؟ جريدة المسلمون عدد ٤ – ٢ مارس ١٩٨٥.

(٤)سيد قطب . لماذا أعدمونى؟ جريدة المسلمون – عدد ٢٣ فبراير ١٩٨٥.

(٥)سيد قطب . لماذا أعدمونى؟ جريدة المسلمون – عدد ٢٣ فبراير ١٩٨٥.

القيادة.." وهم يريدون أن أتولى أنا هذا بعد خروجي، ذلك أنهم بعد أن قرأوا كتاباتي وسمعوا أحاديثي معهم تحولت أفكارهم وتوسعت رؤيتهم إلى حد كبير [1]".

كان سيد قطب مقتنعا عند خروجه من السجن بعدم جدوى تأسيس او إقامة تنظيم في الوقت الحالى ، لكن ها هم مجموعة من الشباب يضعونه أمام الاختيار الصعب "كنت أمام أمرين : إما أن أرفض العمل معهم ، وهم لم يتكونوا على النحو الذى أنا مقتنع به، وإما أن أقبل العمل على أساس تدارك ما فاتهم من المنهج الذى أتصوره للحركة وعلى أساس إمكان ضبط حركاتهم بحيث لا يقع اندفاع في غير محله.. وقررت اختيار الطريق الثاني والعمل معهم وقيادتهم [2]".

لكن زينب الغزالى تذكر أن هذه المجموعة كانت على اتصال بسيد قطب منذ سنة ١٩٦٢ وهو داخل السجن ، وأن ذلك الاتصال كان بإذن من المرشد العام للإخوان حسن الهضيبى [3] .

أما على عشماوى فيرويها بأسلوب آخر "بعد خروج الأستاذ سيد قطب من السجن تم استدعاؤنا - أنا والشيخ عبد الفتاح إسماعيل - للقائه"، ولا يذكر لنا من الذى استدعاهم ، هل هو سيد قطب ، أم الحاجة زينب أم المرشد العام!! ، وعرضوا عليه أن "يتابع" العمل معهم، فوافق ، ولكنه طلب منهم مهلة لاستئذان المرشد العام [4] !!

وقام بعض الإخوان بتحذير سيد قطب وتنبيهه إلى خطورة هؤلاء الشبان كما يرونهم "كان الأستاذ منير الدلة قد قال لى فى أثناء تحذيره وتخوفه من شبان متهورين يقومون بتنظيم، إنه يعتقد أنهم دسيسة على الإخوان بمعرفة قلم مخابرات أجنبى - أمريكى ، عن طريق الحاجة زينب الغزالى ، وأن المخابرات كاشفاهم، وأنهم يفكرون فى مكتب المشير في التعجيل بضربهم أو تركهم فترة كما قال لى من قبل قريبا من هذا الكلام الحاج عبد الرازق هويدى نقلا عن الأستاذ مراد الزيات" (..) وكان الحاج عبد الرازق هويدى قد ذكر لى كذلك أن هؤلاء الشبان متصلون بالأستاذ عبد العزيز على الوزير السابق أو

---

(١) سيد قطب . لماذا أعدمونى؟ مرجع سابق.

(٢) مرجع سابق.

(٣) زينب الغزالى .. أيام من حياتى. ص٣٨. دار الشروق. سنة ١٩٧٨.

(٤) على عشماوى .. التاريخ السرى لجماعة الإخوان المسلمين. ص٧٦-٧٧.

اتصلوا به وأنه يقال : إنه يتصل بالأمريكان ومدسوس عليهم [١]".

وفى الوقت نفسه اشتكى أعضاء التنظيم الشبان لسيد قطب من قادة الإخوان: "أطلقت علينا بعد ذلك مجموعة صلاح شادى أننا جواسيس الحكومة[٢]، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن صلاح شادى ، كان صارما فى موقفه منهم "الأخ مراد الزيات، أخبر الأستاذ صلاح شادى في السجن، الذى أمره أن يبلغ البوليس عنا!! لأن وجودنا إذا شعرت به أجهزة الأمن سوق يعرقل الإفراج عنهم" [٣].

ويبدو أن هذا لم يكن موقف صلاح شادى ومجموعته فقط، بل عدد آخر من الإخوان مثل منير الدلة وفريد عبد الخالق.

والواضح أن "سيد قطب" استبعد تحذيرات قدامي الإخوان تماما، وانحاز بالكامل إلى الشبان ، وقرر أن يدافع عنهم ، وصارحهم بسر خوف القدامى من الشبان، وبسبب اتصالهم بالحاجة زينب وعبد العزيز على لأنهما "يعملان لصالح المخابرات الأمريكية".

وتعهد لهم أن يكف عنهم مضايقات القدامى ، وتهديدهم إياهم بإبلاغ البوليس ، وكان الحل بسيطا فقد أخبر هؤلاء القدامى، أن التنظيم انحل وانتهى أمره، أما بالنسبة للحاجة زينب فالأمر مختلف، كما يقول سيد قطب "لم يكن عندى أى خوف من ناحية أن يستخدمها أى قلم مخابراتي لأنها مكشوفة [٤]". وهناك ميزة أخرى لها "انها على علاقة طيبة بمنزل الأستاذ الهضيبي وأن هذا في صالحها" [٥].

والحقيقة أن استبعاد سيد قطب لنصيحة الإخوان القدامى كانت متوقعة، فهؤلاء هم الذين رفضوا أفكاره التى كان يرسلها من خارج السجن في فصول "معالم فى الطريق" ، وكان الجيل القديم قلقا من هؤلاء الشبان لأنهم اتبعوا أفكار قطب، ومن ثم فقد ابتعدوا عن أفكار حسن البنا ولذا رفضوهم ، ولم يكتف سيد قطب بأن يقودهم فقط، ولكنه أخذ يحدثهم عن اختراق الماسونية لجماعة الإخوان، حتى صار وكيل الجماعة محمد خميس حميدة، أحد الماسونيين، كذلك فإن المخابرات الإنجليزية اخترقت أيضا قيادة الجماعة

---

(١)سيد قطب.. لماذا أعدمونى؟

(٢)على عشماوى . التاريخ السرى للإخوان . ص ٧٦.

(٣)على عشماوى ص٧.

(٤)سيد قطب .. لماذا أعدمونى؟

(٥)على عشماوى. ص ٧٨.

وجندت الحاج حلمي المنياوى، والغريب أن سيد قطب، أخبرهم أن الشيخ البنا كان يعلم ذلك، ولم يخبر أحدا به، وظل محتفظا لنفسه بهذه المعلومات إلى أن وقعت عملية اغتياله . فمات معه السر.

ظل سيد قطب يلتقى بأعضاء التنظيم في جلسات جماعية ، أو يقابل عدداً منهم، ليشرح لهم أفكاره ويقدم آراءه ، وكان يمكن أن يظل الأمر على هذا النحو، إلى أن وقع أمران في وقت واحد تقريبا .. فقد أعلن لهم أن معلومات مؤكدة قد وصلت إليه، وأنها من مصادر موثوقة لديه، من مكتب المشير تقول إنهم هناك يفكرون".. نضرب الإخوان الآن أم ننتظر عليهم بعض الوقت"[1] وقال لهم أيضا "إن الحكومة تعد لضرب الجماعة وإن علينا أن نستعد لذلك"[2]. ويبدو أن مصدره في ذلك كان زينب الغزالى[3]، وهى نفسها تقول "..في أوائل أغسطس ٦٥ وصلتنى أخبار عن إعداد قائمة عن المطلوب اعتقالهم من رعايه رسالة التربية الجديدة .. ويتصدر القائمة الأستاذ الشهيد سيد قطب وزينب الغزالى الجبيلى وعبد الفتاح عبده إسماعيل ومحمد يوسف هواش"[4].

وقال سيد قطب لأعضاء التنظيم إن الأخبار لديه تقول وتؤكد أن الصدام قائم وآت لاريب فيه، وأنه أحس بشدة أن الأوامر لضرب الحركة الإسلامية آتية من الخارج[5].

ومع هذه الأخبار والمعلومات "المؤكدة" لدى سيد قطب، فقد كان لابد من الاستعداد "العسكرى" للرد وللدفاع، وصارحه الأعضاء بأن هناك صعوبة في الحصول على أسلحة للتدريب، ولذا فقد قاموا بمحاولات لصنع بعض المتفجرات يدويا، وقاموا ببعض التجارب - فعلا - في منطقة المحاجر ، ونجحت، وصنعوا بعض القنابل، وذكر على عشماوى - مسئول التدريب - أنهم اضطروا لشراء الكتب والمراجع الخاصة بصناعة المفرقعات "حتى أننى لجأت إلى مكتبة السفارة الأمريكية للبحث عن هذه الكتب . ووجدت بعضها ونقلت منها بعض الموضوعات ثم كانت الخطوة الأوسع في هذا المجال، وهى الحصول على السلاح من الخارج ، وحكى سيد قطب في مذكراته.. "على عشماوى زارنى على غير ميعاد وأخبرنى أنه كان منذ حوالى سنتين قبل التقائنا قد طلب من أخ في دولة عربية قطعا

(١)على عشماوى . المرجع السابق ص ١٠٦.

(٢)المرجع السابق ص ١٠٦.

(٣)من حديث للمؤلف مع على عشماوى يوم ١٩/٣/١٩٩٩.

(٤)زينب الغزالى .. "أيام من حياتى". ص٤٣

(٥)على عشماوى ص١٢١

من الأسلحة. حددها له في كشف . ثم ترك الموضوع من وقتها. والآن جاءه خبر أن هذه الأسلحة – وهي كمية كبيرة حوالى عربية نقل – سترسل عن طريق السودان مع توقع وصولها خلال شهرين".

جلس سيد قطب ورجاله يتدارسون "الأهداف" التي سيتم تنفيذها في حالة ما إذا هوجموا أو بدأ اعتقالهم.. وأوضح لهم سيد قطب أنهم هم الذين سيقومون بتنفيذ تلك العمليات ، ومن ثم فعليهم أن يحددوا الأهداف التي يسهل عليهم تحقيقها . وكانت توصيته "أننا إذا قمنا برد الاعتداء عند وقوعه فيجب أن يكون ذلك في ضربة رادعة " وكان رأيه أن الضربة لكي تكون رادعة يجب أن تشمل "إزالة الرءوس وفي مقدمتها رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة ومدير مكتب المشير ومدير المخابرات ومدير البوليس الحربي. ثم نسف بعض المنشآت التي تشل حركة مواصلات القاهرة لضمان عدم تتبع بقية الإخوان فيها وفي خارجها كمحطة الكهرباء والكبارى" [1] . وكان رأيه أن ذلك يكون كافيا كضربة رادعة ورد على الاعتداء على الحركة وهو الاعتداء الذى يتمثل في الاعتقال والتعذيب.

وبعد ذلك في جلسات أخرى ، جرى التراجع عن فكرة نسف الكبارى والقناطر الخيرية ، وكان على عشماوى هو الذى نبه سيد قطب إلى أن نسف القناطر الخيرية سوف يخدم في النهاية أغراض "الصهيونية العالمية".

ولكن أحلام ومشاريع الجلسات السرية شئ، والواقع والإمكانيات شئ آخر، والذى حدث أن الاعتقالات بدأت ، فقد قبض على شقيق عبد الفتاح إسماعيل، ثم قبض على محمد قطب في مرسى مطروح ، ولم تكن هناك أسلحة وردت من الخارج بل إن هذا المشروع كان قد تعثر ، لصعوبة الإرسال عبر السودان" وكان أن أرسل سيد قطب شقيقته الصغرى "حميدة" إلى عشماوى لتقول له "أنا لا أريد زوبعة في فنجان، إذا كنتم قادرين على تنفيذ عمل ضخم يهز أركان البلد فافعلوا وإن لم تكونوا على مقدرة بذلك فالغوا جميع الأوامر والخطط المتفق عليها. وهذا خير لنا جميعا" وكان سيد قطب بتلك الرسالة يرى أن "الاعتقال خير من المواجهة الضعيفة وكان قرار التنظيم" ننتظر وإذا قبض علينا فهذا أولى . وفي اعترافاته قال سيد قطب "أرسلت إليهم عن طريق الحاجة زينب في تعبيرات ملفوفة غير صريحة أن يوقفوا نهائيا عملية السودان (أى الخاصة بالأسلحة) بأى

---

(١) سيد قطب . لماذا أعدموني؟

شكل وأن يلغوا أى عملية أخرى (أى الخاصة برد الاعتداء) فجاء في استفهام من الأخ علي عن طريق الحاجة زينب كذلك عما إذا كانت هذه تعليمات نهائية حتى لو وقع التنظيم. فأجبته بأنه في هذه الحالة فقط وعند التأكد من إمكان أن تكون الضربة رادعة وشاملة ويتخذ إجراء وإلا نصرف النظر عن كل شئ . وكنت أعلم أنه ليس لديهم إمكانيات بالفعل وأنه لذلك لن يقع شئ . ويكمل سيد قطب الاعتراف.

"الأمر في هذا كله سواء في القضاء على أشخاص أو منشآت لم يتعد التفكير النظرى ذلك أنه إلى آخر لحظة قبل اعتقالنا لم تكن لديهم إمكانيات فعلية للعمل كما أخبروني من قبل ، كانت تعليماتي لهم ألا يقدموا على شئ إلا إذا كانت لديهم الإمكانيات الواسعة (..) واضح أنه لم يقع شئ أصلا، وقد كانت لديهم فرصة ثلاثة أسابيع على الأقل لو كانوا يريدون القيام بأى عمل".

وكان أن اكتشف أمر التنظيم بالمصادفة، وقبض على "على عشماوى" بالمصادفة، وتساقط أفراد التنظيم ، وقبض على سيد قطب ، يوم ٩ أغسطس ١٩٦٥ وكان في رأس البر، وبدأ التحقيق معه في السجن الحربى في ١٩ ديسمبر ١٩٦٥ ولمدة ثلاثة أيام وبدأت المحاكمة في ١٢ إبريل ١٩٦٦، وكانت محكمة عسكرية ، القاضي فيها هو الفريق محمد فؤاد الدجوى الذى أصدر حكمه بالإعدام في ٢١ أغسطس ١٩٦٦ وصدق رئيس الجمهورية على الحكم، الذى تم تنفيذه فجر يوم الاثنين ٢٩ أغسطس ٦٦ أى بعدها بأسبوع واحد فقط لا غير.

ولقد كان هذا التنظيم محكوما عليه بالفشل ، ولو لم يكتشف أمره لانتهى وتحلل، ومن يقرأ مذكرات على عشماوى ، يجد أنه كان قد يئس تماما من هذا التنظيم أو من الإخوان عموما.. والحقيقة أننا لا نجد أنفسنا أمام تنظيم حقيقى، ولكن مجموعة من الهواة إن صحت التسمية – أو المبتدئين ، ليست لديهم خطط، بل أحلام وأفكار نظرية شديدة العمومية ، ولذا فقد تساقطوا بسرعة، دون أن يقوموا بشئ.. وربما يكون التساؤل – هنا – كيف اكتشف أمرهم هكذا؟!!

يذهب فريق من الإخوان إلى أن "على عشماوى" كان دسيسة عليهم من المباحث الجنائية العسكرية وأنه هو الذى "ورَّط" سيد قطب والآخرين في موضوع السلاح، ثم اعترف، ومن أشهر الذين روجوا لهذا التفسير زينب الغزالى.. فقد وصفت عشماوى في مذكراتها بأنه "مأجور" رخيص.. عميل كاذب.. اعتبر شاهد ملك ببيعه دينه بحياة ذليلة".

والحقيقة أن هذا التفسير يصعب قبوله لأن على عشماوى ظل بالسجن حتى أفرج عن الإخوان فى المصالحة التى تمت فى عهد الرئيس السادات. وخرج عشماوى فى ٤ إبريل ١٩٧٤، أى أنه قضى تسع سنوات سجينا، ولو كان رجل المباحث العسكرية ، لأفرج عن فورا أو فور صدور الأحكام ولكن الصحيح أنه لم يحتمل التعذيب فاعترف بسرعة وقال كل شئ، وهذا يعود إلى قلة خبرته ، وإلى تراجع الفكرة داخله ، قبل اكتشاف التنظيم ، فقد يئس من الجميع ، وكما قال هو "إذا كانت الماسونية وأجهزة المخابرات الغربية اخترقت الجماعة فى قياداتها العليا ، فما جدوى هذه الجماعة أصلا وما دورها"[1]!! وقال أيضا "لقد عشت التجربة على أعلى مستوى ، واكتشفت أيضا الخيبة عند أعلى مستوى فى الجماعة" [2] .

يلفت النظر أن سيد قطب فى شهادته الأخيرة ، لم يرم على عشماوى بتلك التهمة..!!

التفسير الثانى ، يقدمه على عشماوى ، ويضع المسئولية عند زينب الغزالى ، فلم تكن متحفظة ولا تلتزم بالسرية ، وبعثت إلى سعيد رمضان – زوج ابنة الشيخ حسن البنا – فى سويسرا ، تحكى له عن التنظيم ، وربما يكون الأمر تناثر حول سعيد رمضان، أو حكاه لآخرين، فوصل الخبر إلى الملحق العسكرى فى سويسرا حسن خليل، والذى كان دفعة شمس بدران ، فأبلغ شمس، ومن ثم بدأت المباحث الجنائية العسكرية فى متابعة التنظيم. ودليله على ذلك أنهم قاموا بالعمليات اعتقال عشوائية ، ولم يكن هناك خيط أمامهم، فقد كانوا يعلمون أن هناك تنظيما ، لكن لا يعلمون اسم أى فرد من أفراده، ولا أى شئ منه وبالمصادفة وحدها اكتشفوا كل شئ، وهذا أيضا ينفى احتمال أن يكون أحد من مجموعة صلاح شادى، قد أنفذ رغبة هذا الأخير، وأبلغ البوليس عنهم.. وقد نفى صلاح شادى حين سئل فى ذلك أن يكون قد أبلغ عنهم، مهما كان خلافه معهم أو رفضه لهم.

وهناك تفسير فلكلورى وأسطورى آخر تقدمه زينب الغزالى "تأكدت لدينا الأخبار بأن المخابرات الأمريكية والمخابرات الروسية ووليدتهم الصهيونية العالمية قد قدموا تقارير مشفوعة بتعليمات لعبد الناصر بأخذ الأمر بمنتهى الجد للقضاء على هذه الحركة الإسلامية" [3] .

---

(١)لقاء للمؤلف مع على عشماوى يوم ١٩ مارس ٩٩.

(٢)المرجع نفسه.

(٣)زينب الغزالى.. "أيام حياتى" . ص٤٢.

وهو أشد التفسيرات تهافتا، والطريف أنه يتناقض تماما مع تفسيرها الأول بأن على عشماوى هو المسئول!! وسوف يظل هذا الأمر محاطا بقدر من الغموض إلى أن تعلن الجهات المعنية وثائق هذه القضية ، وتفتح ملفاتها أمام الباحثين والمهتمين ، حتى تسقط الظنون والاتهامات المعلقة. وتستقر الحقيقة.

وما يعنينا فى هذا الأمر. هنا.. الآن. هو موقف سيد قطب ..!!

وأثبت سيد قطب فى هذه القضية أنه غير صالح للقيادة، والزعامة، وأنه كاتب فقط، وما كان ينبغى أن يستدرجه عدد من الشبان - محدودى الخبرة والثقافة والتعليم - إلى هذا التنظيم ، بل كان عليه أن ينصحهم بالابتعاد عن هذا الأسلوب. وهناك تضارب أساسى فى فكرته، وهو أنه لابد من جماعة مدربة ومسلحة وتكون جاهزة للرد العنيف على الدولة، إذا ما اعتقلت أفراد هذا التنظيم!!

مكمن التضارب أنه إذا كان سيقوم بمهمة تربوية وإرشادية وأخلاقية ، فليس له أن يفترض قيام الدولة باعتقال من يقوم بذلك ، فلم يعتقل أفراد الشبان المسلمين أو الجمعية الشرعية أو أنصار السنة المحمدية ، وغيرها وغيرها، وما حدث لجماعة الإخوان سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٤ ، كان لأسباب سياسية، فقد اقتحمت الجماعة السياسة بأسلوب العنف، فى هذين العامين، وطالما أنه سيبتعد عن السياسة فلن يمسه أحد ، وإذا مس فى هذه الحالة، هناك وسائل قانونية وسياسية غير طريقة "المليشيات" المسلحة للتعامل مع الموقف.

الغريب أن سيد قطب كان حريصا على ألا يقطع كل خيوطه مع الدولة، فحين أرسل إليه سعيد رمضان مع زينب الغزالى ليكتب له مقالا فى مجلته، رفض لأنه لا يريد أن تصادر الدولة كتبه أو أن توقف طباعتها "وبعد خروجه من السجن أرسلت إليه الإذاعة السعودية مبلغا من المال ، مقابل إذاعة بعض أحاديث من كتاب فى ظلال القرآن "فذهب إلى المباحث العامة ليطلعهم على الأمر، ويخبرهم أنا سيرسل للإذاعة بالمملكة العربية السعودية يطالبها بباقى حقوقه، فعل ذلك حتى لا يساء فهمه، ولا يتم التصور أن هذه الأموال تصله بأغراض أخرى ، خاصة أن العلاقة السياسية بين مصر والسعودية كانت متأزمة آنذاك!!.

إلى هذا الحد كان حريصا، فلماذا قبل "غواية" هؤلاء الشبان ؟! يبدو أن المسألة كانت "نفسية" لديه ، فها هو يجد شبانا مريدين له ، متأثرين بأفكاره ، وهذا قمة التحقق له ، ولم يحدث وقت أن كان أديبا وناقدا، وأخيرا جاءه المريدون يستمعون إليه، مشوقون لرؤيته والاستماع لآرائه وتنفيذ طلباته، ولعل صورة العقاد، أستاذه الأول قد تلبسته حينذاك ..

وكان أن انزلق معهم، وتجاوز دور المفكر والكاتب، إلى الزعامة والتآمر، ولأن تلك الصفة الأخيرة لم تكن أصيلة فيه، فقد فشل فيها فشلا ذريعا، بل وتراجع عنها في اللحظة الأخيرة ، وأرسل إليهم بأن يوقفوا العمليات!!

تبقى قضية معلقة ، وتتعلق بموقف سيد قطب بعد صدور الحكم عليه، فقد ردد عدد من الكتاب أنه طلب إليه أن يقدم التماسا بالعفو عنه، وسوف يجاب ويصدر عفو صحى، وروى أنه قال حين أبلغ بذلك "إن كنت مسجونا بحق فأنا أرضى بالحق، وإن كنت مسجونا بباطل فأنا أكبر من أن استرحم الباطل [١]".

والعبارة بليغة وقوية ، يحكمها السجع واللعب على التناقضات .. وقد بحثت عن أصل هذا الموقف وتلك العبارة ، فوجدت أنها متخيلة ، مثل الكثير من المواقف والمعلومات المحيطة بسيد قطب، وكل ما وجدته مرويا على لسان حميدة قطب، في أيام زينب الغزالى ، وملخصها أن حمزة البسيوني استدعى حميدة إلى مكتبه ليلة تنفيذ حكم الإعدام، وأطلعها على نص الحكم والتصديق عليه، وأن الحكومة مستعدة لتخفيف الحكم، بل سيفرج عن سيد بعفو صحى، لو استجاب إلى ما يطلب منه، وهو أن يقر بأن حركته الأخيرة كانت على صلة بجهة من الجهات.

ولم تحدد الرواية هل كان المطلوب أن تكون الجهة داخلية ، أو أجنبية ، وهل تكون عربية أو أمريكية أو إسرائيلية أو..!! وقام صفوت الروبى بتوصيل شقيقته فقال لها فى الزنزانة .. "وا لله لو كان هذا الكلام صحيحا لقلته، ولما استطاعت قوة على وجه الأرض أن تمنعني من قوله ، ولكنه لم يحدث، وأنا لا أقول كذبا أبدا[٢]".

وقد أكدت حميدة قطب هذه الواقعة مؤخرا ، وتزيدها إيضاحا "لقد كلفت أن أوصل إليك رسالة ، فها هي .. مطلوب منك أن تكتب بضع كلمات تقول فيها إن هذا التنظيم متصل بجهة أجنبية!.. وهذه الجهة هى دولة عربية محددة.. ثم يخفف الحكم بالنسبة لك، إلى أن تخرج بإفراج صحى ، ثم يلغى الحكم تماما بالنسبة لى ! [٣]" .. استمع إليها ورد .

"ولو كان ذلك حقيقة ما منعتنى قوة على الأرض من أن أعلنها، وحين يكون هذا لا حقيقة له فلن ترغمنى قوة فى الأرض أن أقوله [٤]".

---

(١)صلاح شادى "الشهيدان" ص ٧.

(٢)زينب الغزالى. أيام من حياتى ص١٨٣ و١٨٤.

(٣)حميدة قطب "رحلة فى أحراش الليل" دار الشروق ١٩٩٨ ص ١٦١.

(٤)المرجع السابق.

ولو صحت الرواية، فإنها تكشف، رغبة إدارة السجن أن تحصل على صك اعتراف من سيد قطب بان هناك جهة أجنبية خلفه وتدعمه، وساعتها تكون المؤامرة "دولية"، وتمنع أى تعاطف معه!! ، ولكن حتى لو أقر بما طلبه وأراده "حمزة البسيونى" ومن وراءه - شمس بدران - فلم يكن ليخفف الحكم، فقد وقعه رئيس الجمهورية ، وقضى الأمر!!

وهناك رواية ثانية ، تختلف عن رواية حميدة قطب ، مفادها أن سيد قطب هو الذى سعى وطلب الوساطة لدى عبد الناصر لإنهاء هذه المسألة تماما، لكى ينقذ شباب الإخوان من الأحكام التى صدرت بحقهم ، فى تنظيم ١٩٦٥.. وتأتى الرواية من إخوان "سوريا" فقد ذكر عمر الأميرى ، أن سيد قطب أرسل من السجن إليهم فى سوريا رسالتين مع الدكتور حمدى مسعود زوج شقيقته حميدة . واحدة منهما فقدت والثانية وصلت .. وجاء فيها "نرجو أن تكونوا وسطاء للتفاوض بيننا وبين جمال عبد الناصر، ونحن على استعداد ، لأن نعطى عهدا، بألا نتصدى له، ولا نقاومه بشئ، وكل ما نسب إلينا من هذه الاتهامات كذب وباطل وملفق".

ومقابل هذا التعهد يطلب سيد قطب فى الرسالة المقابل من عبد الناصر "أن يخلى سبيلنا، وألا يعوق أعمالنا ومساعينا، فى تتبع النشاط الشيوعى، فى اختطاف شباب الجامعة وشباب البلد ومركستهم. وكل ما عدا ذلك ليس لنا وقت له، لأننا عندما ننهى مهمتنا يكون قد انتهى بطبيعة الحال، ويكون الذين يعمل هم قد صعدوا على كتفه ، ورفسوه بأرجلهم ، وانتهوا منه". ونحن على ثقة بأنه سينتهى تلقائيا ، ونحن نريد ألا يحال بيننا وبين العمل على إنقاذ شباب هذه الأمة من الشيوعية"!.

واجتمع قادة الإخوان فى سوريا ، وقرروا نقل رسالة قطب إلى عبد الناصر ، ووجدوا أن الرئيس الجزائرى "هوارى بومدين" هو الذى يمكن التوسط فى هذا الموضوع ، خاصة أنه كان على وشك الالتقاء بالرئيس عبد الناصر، فى مؤتمر القمة العربية بالدار البيضاء، ونجح الأمير فى أن ينقل - عبر وسيط - الرسالة إلى بومدين ، الذى فاتح بدوره عبد الناصر ، فرفض الأخير الوساطة تماما، وكان مصرا ".. كل شئ أقبل أن يبحث فيه إلا قضية الإخوان المسلمين، فهذه قضية مفروغ منها، وبُت فيها بصفة قطعية ولا يمكن التساهل معهم [1]".

---

(١)الرواية بكاملها لدى د. صلاح الخالدى "سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد" ، ص ٣٨٤ و٣٨٥ نقلا عن مجلة المجتمع . عدد ٧٥٨ . ١١ مارس (آزار) ١٩٨٦.

ويمكن أن نرصد عدة عوامل دفعت عبد الناصر إلى الحسم والتشدد في هذه القضية ، فقد شهد عام ١٩٦٥ عوامل ضغوط داخلية وخارجية علي عبد الناصر، أهمها الانزلاق في حرب اليمن، التي استنزفت الاقتصاد وقدرات الجيش المصرى ، وفي الداخل جرت وفاة الزعيم الوفدى مصطفى النحاس، وخرجت الجماهير في جنازته تهتف باسمه "لا زعيم إلا أنت" وكان المعنى واضحا، أن النحاس ومن ثم الوفد مازالا في القلوب والضمائر، وأن جهود الإزاحة والنفي لهما التي تمت منذ سنة ١٩٥٢، لم تحقق المقصود ، باختصار إن عالم ما قبل ١٩٥٢ مازال ماثلا، ثم جاءت قضية الإخوان ، ولابد أن عبد الناصر قد استشعر أن الأمور تكاد تفلت من بين يديه ، وأن ثورته لم تدخل بعد في وجدان كل الشعب ، ومن هنا كان لابد من الحسم، كإعلان وكرسالة للجميع أن الثورة قائمة وشرعيتها موجودة ، وطرق الحديد وهو ساخن.

وربما كانت هناك عوامل خاصة بسيد قطب نفسه ، فقد أفرج عنه عبد الناصر قبل عام فقط ، ثم ها هو ذا يقود تنظيما ضده، وكان عبد الناصر نفسه – هو الذى سمح بطباعة وتداول كتاب "معالم في الطريق" ، ورفض اقتراح أجهزة الأمن بمصادرة الكتاب. ربما لهذه الأسباب استشعر أن سيد قطب يستهدفه "شخصيا" وأنه لم يقدر ما يمكن أن يكون عبد الناصر قد اعتبره "مجاملة" أو "حسن نية" على الأقل!!.

ورغم كل هذه العوامل وتلك الظروف والضغوط فإن الرئيس عبد الناصر، أخطأ سياسيا بالموافقة علي "إعدام" سيد قطب . وكانت هناك عدة عوامل تلزمه، بالتريث.. أهمها ضرورة تهدئة المناخ العام في مصر، وكان يكفي الاعتقالات التي جرت لمن شاركوا في جنازة النحاس، فلم يكن هناك داع لزيادة التوترات والأحزان بفتح جبهة جديدة مع الإخوان، تصل إلى إعدام زعيم من زعمائهم، وكان عليه مراجعة جهاز شمس بدران ، الذى فجر تلك القضية ، والتأكد من التهم الموجهة ، خاصة أن وزارة الداخلية ، كانت ترى الأمر بمنظور آخر، خلا من مبالغات شمس بدران ومعاونيه.

وكان الموضوع مثار خلاف داخل أعضاء مجلس قيادة الثورة ، كان كمال الدين حسين قلقا وغير مرحب بإعدام سيد قطب، وكان زكريا محيي الدين متخوفا من سيطرة اليساريين على العمل داخل الاتحاد الاشتراكي وفي تفسير الميثاق.. وكانت له محاولات لاجتذاب بعض الإخوان إلى منظمة الشباب.. ثم كانت هناك ظروف سيد قطب الخاصة ، فهو رجل مريض وعلى أعتاب الستين، وهذه أسباب إنسانية تعطى الرئيس الحق في تخفيف الحكم عليه إلى "المؤبد" ، وإبقاء شعرة معاوية قائمة خاصة أن الدولة سمحت بطبع كتب

ومؤلفات سيد قطب ، وهذا يعنى أن آراءه خرجت إلى العلن وانتشرت ، وإعدامه لن يقضى على تلك الفكرة ، بل سيجعله "شهيدا" وتكتسب الآراء مزيدا من المريدين والمعجبين، وهذا ما حدث ، ولعله لو لم يعدم ونوقشت تلك الآراء وفندت لأمكن تحجيمها.

وإذا كان الرئيس عبد الناصر أخطأ فإن سيد قطب ارتكب هو الآخر أخطاء عدة.

أخطأ "حين قبل أن يعمل في السر، ويتجاوز دور الكاتب إلى أن يكون متآمرا، وأخطأ بانزلاقه عمليا فى غواية مريديه وأخطأ.. "نظريا وفكريا" بنظرية "الردع" وحمل السلاح واغتيال الرءوس ، وهى النظرية التى عملت بها التنظيمات الإرهابية منذ أواخر السبعينيات .

وغير مجد الآن النظر إلى تلك الأحداث بمنطق "ماذا لو..؟" ، فقد مضت الأحداث بأخطائها وخطاياها ، وليس تشفيا ولا معايرة التذكير بأن سيد قطب راح ضحية مناخ وأفكار هو من أوائل المروجين لها منذ سنة ١٩٥٢، فهو صاحب مقولة إنه لا يهم أن تظلم الثورة عشرة أو عشرين كيلا تنتكس ولا تتوقف، وأنه لا ضرورة للدستور ولا للأحزاب ولا للقوانين ، ولكن المعيار هو منطق الحوادث .. ومنطق الثورة وشرعيتها!!

والحقيقة أن "الفعل العام" لكل طرف كان متشابها فى تلك الفترة من حياة مصر.. ففى الوقت الذى تعلن فيه الثورة "الميثاق" ، يقدم الإخوان "المعالم"، وحين يشرع رئيس الدولة فى تأسيس تنظيم سرى باسم "طليعة الاشتراكيين" يؤسس سيد قطب تنظيمه "طليعة المؤمنين".

والمحصلة الأخيرة أن الحرية داخل المجتمع والتعددية السياسية والفكرية والتنوع هى "قيم" أساسية فى حياة الإنسان والشعوب، وليست موضة ولا ديكورا للزينة والوجاهة ، ولا ترفا يمكن الاستغناء عنها، والحياة دونها، ولا جملة اعتراضية يمكن أن نغض الطرف عنها، أو يتصور تيار سياسى وفكرى أن بإمكانه أن يشطبها أو يلغيها ، تحت أى مسمى أو دعوى ، ولا حتى يعلقها بعض الوقت بزعم الحرص على الثورة ، أو الحتمية التاريخية أو نداء الرسالة العليا ، لقد ثبت أن كل من تهاون فى تلك القيم ، اكتوى بغيابها ، سجنا أو تعذيبا أو نفيا أو حجرا على الحرية.

❖

(١٢)

قبل الاعتقال والسجن ..

أفكار الجاهلية والتكفير ظهرت سنة ١٩٥٠ واكتملت فى ١٩٦٢

تعرض الإخوان المسلمون للتعذيب داخل السجون بعد حادث المنشية فى أكتوبر ١٩٥٤، وتعرضوا للتعذيب مرة أخرى بعد اكتشاف تنظيم ١٩٦٥، والذى عرف باسم "تنظيم سيد قطب"، وقد أثبتت المحاكم والأحكام القضائية وقوع التعذيب ، فقد أدين شمس بدران لتورطه فيما عرف بـ"مؤامرة المشير" بعد هزيمة ١٩٦٧ بعدة تهم كان من بينها ممارسة التعذيب داخل السجن الحربى، وفى سنوات السبعينيات صدرت أحكام قضائية تثبت وقوع التعذيب على عدد من الأفراد. وأكد الكاتب الناصرى عبد الله إمام وقوع التعذيب ، فى كتاب له عن عبد الناصر والإخوان "قائلا" إن هناك تعذيبا وحشيا وقع داخل السجون ولا يمكن إنكاره"، وتحدث كتاب الإخوان عن مذبحة جماعية للإخوان وقعت فى السجن سنة ١٩٥٧ وأصدر "جابر رزق" كتابا حول هذه المذبحة، ذهب فيه إلى أن التعذيب كان مقصوداً به إبادة الإخوان تماما والخلاص منهم.

وإذا كان الجميع متفقين على أن التعذيب قد وقع فإن الخلاف الآن حول مدى هذا التعذيب وشدته ومدة ممارسته ، وعدد من وقع عليهم هذا التعذيب وأهدافه ومبرراته . بفرض أن هناك أى مبرر للتعذيب!!

يؤكد عبد الله إمام فى كتابه السابق أن التعذيب وقع فقط على أفراد التنظيم الخاص للإخوان وتأسيسا على هذا القول فإن سيد قطب يكون قد تعرض للتعذيب ، لأنه حوكم بعد إلقاء القبض عليه فى نوفمبر ١٩٥٤ بتهمة انتمائه لهذا التنظيم ، واعتبر مسئول المنشورات بالتنظيم أى أنه ليس عضوا عاديا بل أحد القياديين به، وإن كان هناك من نفى أن يكون سيد قطب قد عُذب ، مؤكدا أن عبد الناصر طلب بنفسه حسن معاملة

"الصديق القديم" داخل السجن، وإن لم يكن هناك ما يثبت ذلك ، كذلك ليس هناك ما يثبت وقوع التعذيب عليه ، هو نفسه لم يتحدث عن ذلك، ولم يشر إليه ، وإن كان بعض كتاب الإخوان ذهبوا إلى أن السجانين لم يقدروا للكاتب مكانته وأنهم عذبوه "تعذيبا وحشيا" حتى كاد يفارق الحياة ، وبالغوا إلى حد القول إن مرض "السل" أصابه داخل السجن من جراء سوء المعاملة، على حين أنه كان قد أصيب بهذا المرض منذ أن كان يعمل مدرسا وبسببه ترك التدريس. لكن يمكن القول إن ظروف السجن لم تكن تلائم صحته العيية وأنه تدهور صحيا داخل السجن.

الأمر المؤكد أن صحة سيد قطب المتدهور قد أنقذته من المكوث طوال الوقت بالسجن، فقد كان دائم التردد على المستشفى للعلاج ، وأنه لذلك كان يحجز فى مزرعة ليمان طرة ، ويبدو لنا أن ظروفه داخل السجن كانت أفضل كثيرا من الآخرين، وإلا لما تمكن من الكتابة ، فقد كتب سنة ١٩٥٧ قصيدة شعرية وهربها من داخل السجن، حيث نشرت بالأردن ، وكانت القصيدة حادة فى فكرتها وموضوعها، وإن كانت ضعيفة فنيا، فقد دعا فيها إلى مواصلة النضال والجهاد ضد "العبيد وجيوش الظلام" ويندد بالذين "أخذوه" أو أخذوا الآخرين بعده، ويؤكد على "الثأر" وإما "النصر فوق الأنام" أو الاستشهاد [(١)] .

ويقال إن إدارة السجن اتفقت معه بعد نشر هذه القصيدة على أن يكف عن تهريب ونشر مثل هذه القصيدة فى الخارج، وسمح له بأن يواصل تأليف كتبه ، فأعاد صياغة كتابه "فى ظلال القرآن" وعدة كتب أخرى مثل "معالم فى الطريق" و"خصائص التصور الإسلامي ومقوماته وكذلك "مقومات التصور الإسلامي" ويؤكد على عشماوى رفيقه فى تنظيم ٦٥ أن هناك جزءا ثانيا لكتاب المعالم بعنوان "فقه الحركة" وإن لم ينشر ولم يظهر هذا الكتاب حتى اليوم.

ويكاد معظم الدارسين والباحثين يتفقون فى أن تجربة السجن كانت السبب المباشر والمناخ الملائم لظهور أفكاره الأخيرة التى دونها فى المعالم وفى الظلال ، والتى تصل إلى الحكم القاطع والنهائى على المجتمع والأمة بأكملها بالجاهلية التى تفوق جاهلية أهل مكة أيام البعثة النبوية، وأن الأمة قد كفرت بالإسلام ، حتى وإن كانت تردد الشهادتين ، وأنه لم ينج من الجاهلين سوى سيد قطب نفسه وجماعته المحدودة !!

---

(١)نشرت القصيدة فى مجلة "الكفاح الإسلامى" بالأردن . عدد ٢٦ يوليو ١٩٥٧، وأعاد عبد الباقى محمد حسين نشرها فى "ديوان سيد قطب" . ط ٢. سنة ١٩٩٢. دار الوفاء بالمنصورة .

يقرر د. محمد خلف الله أن "المحنة السجنية لسيد قطب كانت العامل المباشر في تحول فكره وتصلبه وانضمامه إلى الفكر الإسلامي الناشئ في الهند وباكستان، ممثلا في أبو الأعلى المودودى وأبو الحسن الندوى". ويذهب د. حسن حنفي إلى نفس المعنى تقريبا "بعد عدة سنوات وفي داخل السجن قرأ كتيبا صغيرا لأبي الأعلى المودودى بعنوان "المصطلحات الأربعة" وهي الحاكمية والألوهية والربانية والوحدانية فأبرزت لديه مفهوم الحاكمية وجعلته محورا لتفكيره، حاكمية الله ضد حاكمية البشر، وألوهية الله ضد ألوهية البشر وربانية الله ضد ربانية البشر".

واقرأ - مثلا - قول المستشار طارق البشرى "لم يكن سيد قطب من رجال المغالاة الفكرية في الأربعينات وبداية الخمسينات ولم يعرف النظام الخاص. ولكن الظروف السياسية للخمسينات والستينات من بعد والظروف التي خضعت لها تجربته الفكرية وملكاته الوجدانية والعقلية ، كل ذلك اجتمع ليخرج من يراع هذا الرجل جوهر الفكرة الأساسية التي تقوم عليها كتائب الصدام".

والحقيقة أن هذه التحليلات تبتعد عن التطور التاريخي لشخصية وأفكار سيد قطب.. لقد بدأت هذه الأفكار تظهر لديه منذ سنة ١٩٥٠ وقبل أن يتعرض لأى اعتقال أو مضايقة .. ففي هذه السنة أصدرت لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة ، الطبعة الأولى لكتاب السيد أبي الحسن الندوى" ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟!"، والكتاب يستعرض بأسلوب أدبي بسيط وسهل ، حال البشرية قبل ظهور الإسلام ، وسيطرة الفلسفات المادية عليها، ثم يتناول نشأة الحضارة الإسلامية وما قدمته للإنسانية كلها، ثم يصل إلى انهيار تلك الحضارة ، وبروز الحضارة الغربية المعاصرة بأفكارها المادية ، ويرى الندوى أن تلك الحضارة تقود الإنسانية كلها إلى "الجاهلية".

وفي العام التالي مباشرة - ١٩٥١ - تصدر في القاهرة الطبعة الثانية من هذا الكتاب، وكان نفاد الطبعة الأولى خلال عام يعد نجاحا كبيرا للكتاب، واستقبالا جيدا له من القراء ومن المثقفين ، فقد صدرت الطبعة الثانية بثلاث مقدمات لكل من د. محمد يوسف موسى والأستاذ سيد قطب ود. أحمد الشرباص.

في مقدمته أخذ سيد قطب بفكرة الندوى عن الجاهلية ، وإذ به يتوسع فيها ويخرجها عن سياقها ، ويضع لها تعريفا خاصا، غير الذى قال به الندوى.

يقول الندوى "من الغريب الواقع أن المسلمين قد أصبحوا في الزمن الأخير في كثير من نواحي الأرض حتى في مراكز الإسلام وعواصمه حلفاء للجاهلية الأوروبية وجنودا

متطوعين لها ، بل صار بعض الشعوب والدول الإسلامية يرى فى الشعوب الأوروبية التى تزعمت حركة الجاهلية .. ناصرا للمسلمين ، حاميا لزمار الإسلام المستضعف، حاملا لراية العدل فى العالم قواما بالقسط" ويستدرك الندوى قائلا" ولكن برغم كل ما أصيب به المسلمون من علة وضعف فإنهم هم الأمة الوحيدة على وجه الأرض التى تعد خصيم الأمم الغربية وغريمتها ومنافستها فى قيادة الأمم (...) والتى يحرم عليها دينها ويأبى وضعها وفطرتها أن تتحول إلى أمة جاهلية".

هذه هى جوهر أفكار الندوى ، ولنقرأ تعبير قطب عنها فى المقدمة" .. إنها الجاهلية فى طبيعتها الأصلية ، فالجاهلية ليست فترة من الزمن محدودة ، ولكنها طابع روحى وعقلى معين ، طابع يبرز فور أن تسقط القيم الأساسية للحياة البشرية ، كما أرادها الله، وتحل محلها قيم مصطنعة تستند إلى الشهوات الطارئة، وهذا ما تعانيه البشرية اليوم فى حالة الارتقاء الأولى ، كما كانت تعانيه من قبل فى أيام البربرية الأولى".

ويبدو أن هذه الفكرة ملكت على سيد قطب عقله وجوارحه ، إلى حد أنه ينقل فقرة كاملة من كتاب الندوى داخل مقدمته، دون أن يذكر ذلك ، أو أن يشير إلى مؤلفها الأصلى، باستثناء الجملة الأخيرة من الفقرة، حيث وضعها بين قوسين ونسبها إلى الندوى. والفقرة ترد لدى الندوى فى صفحتى ٢٨٩ ، ٢٩٠ وهى "فرسالة العالم الإسلامى هى الدعوة إلى الله ورسوله والإيمان باليوم الآخر وجائزته الخروج من الظلمات إلى النور ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده والخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وقد ظهر فضل هذه الرسالة وسهل فهمها فى هذا العصر أكثر من كل عصر، فقد افتضحت الجاهلية وبدت سوآتها للناس واشتد تذمر الناس منها، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام، لو نهض العالم الإسلامى، واحتضن هذه الرسالة ، بكل إخلاص وحماسة وعزيمة ، ودان بها كالرسالة الوحيدة التى تستطيع أن تنقذ العالم من الانهيار والانحلال.

هذه هى الفقرة التى نقلها سيد قطب بكاملها فى صفحتى ٢٠ و٢١ ولم يشر إلى صاحبها إلا كما يلى ".. كالرسالة الوحيدة التى تستطيع أن تنقذ العالم من الانهيار والانحلال "كما يقول المؤلف الفاضل قرب نهاية الكتاب [1]" ؟ فيما بعد سوف نجد هذه الكلمات قد انتقلت إلى أعمال سيد قطب ، ولكن بدلا من وضعها فى سياق المقارنة بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية ، يطبقها قطب على المجتمع المصرى.

(١)الصفحات مأخوذة عن طبعة "دار الانصار" لكتاب السيد أبى الحسن الندوى" ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"؟.

وفى كتاب "السلام العالمى والإسلام" صدرت طبعته الأولى فى أكتوبر ١٩٥١، وكان فى الأصل أفكارا ومقالات نشرت قبل ذلك ، وفى هذا الكتاب يعلن سيد قطب آراءه بوضوح فى التكفير يقول "وطاعة الناس للحاكم مرهونة بإقامة هذه الشريعة وتنفيذ ذلك القانون ، فإن فسق عنه فقد سقطت طاعته". ويستشهد قطب بقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - "اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي فى رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تعالى" ويعلق على هذا الحديث قائلا "وجوب الطاعة بإقامة كتاب الله دون سواه والقرآن صريح فى الحكم بالكفر على من لا يحكمون بما أنزل الله: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" ، صريح فى الحكم بعدم إيمان من يريدون أو يقبلون التحاكم إلى غير شريعة الله.. والإسلام صريح كذلك فى وجوب مجاهدة من لا يحكم بما أنزل الله وتحريم طاعة المسلم له على الإطلاق [(١)]".

ثلاث أفكار قدمها قطب هنا ، وهى - أولا - أن طاعة المجتمع للحكام رهن بأن يطبق هذا الحاكم الشريعة وقانونها ، فإن لم يلتزم بها "فسق" وتسقط طاعته.

ثانيا : من لم يحكم بهذه الشريعة فهو غير مؤمن وكافر، ومن يقبل الاحتكام إلى غيرها فهو أيضا كافر. أى أن الكفر يصيب فى هذه الحالة الحاكم والمحكوم.

ثالثا: إن الإسلام يطالب بعدم طاعة الحاكم فى هذه الحالة، ليس ذلك فقط بل ضرورة ووجوب الجهاد ضده، إذن ليست دعوة أخلاقية ولا نداء سياسيا ولكنها "وجوبية" أى فريضة.

وفى كتاب "معركة الإسلام والرأسمالية"، صدر أول مرة سنة ١٩٥١، وكان الكتاب - أيضا - مجموعة دراسات ومقالات عن الإسلام وعن فساد الرأسمالية نشرت سنة ١٩٥٠ ، وضمَّن الكتاب مقال بعنوان "لابد للإسلام أن يحكم" بدأه بالقول "إذا أريد للإسلام أن يعمل ، فلابد للإسلام أن يحكم ، فما جاء هذا الدين لينزوى فى الصوامع والمعابد، أو يستكن فى القلوب والضمائر ، إنما جاء ليحكم الحياة ويصرفها، ويصوغ المجتمع وفق فكرته الكاملة عن الحياة، لا بالوعظ والإرشاد، بل كذلك بالتشريع والتنظيم"[(٢)] .

ويشرح فكرته السابقة إلى أن يقول "والذين يتحدثون عن الإسلام وانتفاء حاجته إلى

---

(١) راجع سيد قطب "السلام العالمى والإسلام". ص ١٢٤ ط ٨. الناشر دار الشروق.

(٢)راجع .. سيد قطب "معركة الإسلام والرأسمالية" الناشر دار الشروق ط٦ سنة ١٩٧٩. ص٥٥.

الحكم، أو عن إمكان تحققه في الحياة دون تحكيمه في الحياة . إنما يلقون حديثا من التفاهة والقزامة مما لا يرتفع إلى شرف المناقشة واحترام الجدل إنهم لا يدلون بهذا على جهلهم لطبيعة هذا الدين من أساسها، ولا بعدهم، عن الإلمام بحقائقه البسيطة التي يلام على جهلها المبتدئون ، بل يدلون على جهل بكل مقومات الطبيعة البشرية ، وكل العوامل المؤثرة في تكوين المجتمعات، وكل الثقافات الضرورية لاستقبال الحياة، بله الحكم على الحياة" (١) .

وعلى هذا النحو من الهجوم الضاري على من يختلفون معه في فكرته يستمر، ويستعرض ما حدث في الغرب من فصل الكنيسة عن الدولة والمجتمع، ويقول "نحن ببلاهة غبية، وسطحية تافهة قد حاولنا بالإسلام هذه المحاولة ، لا لأن الإسلام لم يتضمن التشريعات التي تحكم الحياة وتصرفها ، بل لأننا بشعور العبيد وعلى طريقة القرود ، قد أردنا أن نجعل مصر قطعة من أوروبا" (٢) .

وإذا كان سيد قطب قد انتقد وهاجم القائلين بأن تكون مصر قطعة من أوروبا ، فإنه يرى أيضا أن أصحاب الفكرة الوطنية ، ليسوا على صواب، ولعله كان يقصد حزب "مصر الفتاة" ومن رددوا "مصر أولا" من غير مصر الفتاة ، يقول قطب "إن العقيدة الوطنية وحدها لم تعد تكفي، بدليل أنها لا تستطيع أن تقاوم العقيدة الشيوعية في كثير من أقطار الأرض، ذلك أن فكرة العدالة الاجتماعية بين الأفراد في حياة المجتمع، أخذت تطغى بقوة على النصرة الوطنية في أوطان تقسم أهلها إلى عبيد وأسياد.. ويقول "الإسلام هو وحده القادر على تحقيق الفكرتين جميعا ، بلا تعارض ولا تصادم ولا مغالاة : فكرة الوطنية في الوطن الإسلامي الأكبر حيثما مد الإسلام ظله. وفكرة العدالة الاجتماعية الكاملة في هذا الوطن الكبير" (٣) .

ويرفض سيد قطب أن يأتي الحل عبر الأزهر ورجالاته، أو ما كان يسمى وقتها هيئة كبار العلماء". ولا يتحقق بأن تكون لنا "هيئة كبار علماء تصدر قرارات الحرمان، ثم تعود فتصدر صكوك الغفران ، لتغير الظروف والملابسات، أو تصدر الفتاوى في تخطئة أبي ذر لأنه طالب بالعدالة الاجتماعية للفقراء ، أو لترفع العرائض الإنشائية ، تتضمن الوعظ الشريف، ورثاء الأخلاق التي انحلت في هذا الزمان" (٤) . وينتهي سيد قطب إلى

---

(١)سيد قطب معركة الرأسمالية ص٥٦.

(٢)المرجع السابق ص ٥٧.

(٣)المرجع السابق ص ٥٩.

(٤)معركة الرأسمالية ص ٥٩.

ما بدأ به وهو أن يكون الحكم للإسلام "إن شيئا من هذا كله لن يجدى شيئا، إن الذى يجدى وحده أن يحكم الإسلام الحياة ويصرفها أن تحكم الدولة حكما إسلاميا" [1].

ويؤكد من جديد أنه لا وجود للإسلام دون أن يحكم "الإسلام كان أعرف بطبيعته وطبيعة الحياة وهو يقرر : "أن لا إسلام بلا حكم، ولا مسلمين بلا إسلام.. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون [2]".

ويعلن الكاتب فى هذا الكتاب عن كتاب قادم له بعنوان "فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان [3]"، وهذا الكتاب هو الذى سوف يصدر فيما بعد - بعد إعدامه - حيث كتبه داخل السجن بعنوان "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته" وصدر في جزءين، وترددت فيه نفس الأفكار. ولابد للباحث أن يتوقف أمام ملاحظتين على تلك الأفكار.

الأولى ، أن هذه الأفكار مشابهة تماما لأفكار أبو الأعلى المودودى فى رسالته "المصطلحات الأربعة فى القرآن ، وقد وضعها المودودى فى سنة ١٩٤١ = ١٣٦٠ هـ. ونشرها فى مجلته "ترجمان القرآن" ، والرسالة كتبت ونشرت باللغة الأردية ، وطبعت عدة طبعات ، قبل أن تترجم إلى العربية وتنشر فى حلب بسوريا سنة ١٩٥٥، وترجمها إلى العربية "محمد كاظم سباق" وفى تلك السنة كان سيد قطب داخل السجن ، ولا نعرف بالضبط متى اطلع عليها "سيد قطب"، هل قرأ عرضا لها أو تلخيصا قبل دخوله السجن ، أم أن تشابه الأفكار هنا هو نوع من توارد الخواطر .. كل الدارسين والناقدين لسيد قطب يرون أنه تأثر بآراء المودودى، كان أول من أشار إلى ذلك الناقد عز الدين إسماعيل فى مجلة الثقافة - ٨ ديسمبر ١٩٥٢ - ولدينا رسالة بعث بها سيد قطب إلى أبى الحسن الندوى فى ١ نوفمبر ١٩٥٢ [4] أنبأه فيها أنه يعمل على نشر رسالة المودودى فى القاهرة عن القاديانية - أى.أنه كان مطلعا جيدا أو متابعا لأفكار الندوى . غير أن الإنصاف يقتضى التأكيد بأن المودودى لم يخترع أفكاره تلك ، ولم يكن هو صاحبها ، بل إنها عرفت أول مرة مع الخوارج، حين خرجوا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب وصاحوا فى وجهه أن لا حكم إلا لله فكانوا أول القائلين بالحاكمية والمؤسسين لها ، وأول من أخرج

(١)المرجع السابق ص ٦٠.

(٢)المرجع السابق ص ٦٢.

(٣)المرجع السابق ص ٥٤.

(٤)راجع أبو الحسن الندوى . رسائل الأعلام ، الناشر دار الصحوة ١٩٨٥. صفحة ١٢٧ و١٢٨.

من زمرة الإسلام والمسلمين من خالفهم الرأى والموقف. ويبدو أن تأثر سيد قطب لم يكن بأفكار المودودى أو الخوارج هو العنصر الأساسى والحاسم لديه ، ذلك أن أفكار المودودى كانت قائمة من قبل وكذلك آراء الخوارج، ولكن المناخ السائد فى نهاية الأربعينيات كان هو الأساس. ففى سنة ١٩٤٧ أعلن تأسيس دولة باكستان ، وانفصالها عن الهند، وقد قامت باكستان على أساس دينى بحت، هو الدين الإسلامى ، ومن ثم فقد كان الإسلام أمامه يشكل دولة، يكون للعنصر الفكرى فى هذه الدولة دور مهم ، تجسد فى شخصية محمد على جناح وقد أصدر العقاد - أستاذ سيد قطب - عنه كتابا، وفى العام التالى تأسست دولة أخرى على أساس دينى وهى إسرائيل التى قامت مستندة على الديانة اليهودية والدعوة الصهيونية ، وشحن هذا المناخ الفكرى والنفسى بأفكار عن دور الدين فى الحكم وفى السياسة وفى إقامة دولة ، ولعل هذا هو ما دفع سيد قطب إلى القول بفكرة الحاكمية، وأنه لابد للإسلام أن يحكم واختزله فى الحكم فقط. لذا ليس مصادفة أن تظهر تلك الأفكار فى كتاباته منذ سنة ١٩٥٠، ولأنه لم يكن متعمقا فى أمور السياسة فإنه لم ينتبه إلى خصوصية كل تجربة ، سواء فى باكستان أو فى إسرائيل والظروف الدولية المحيطة والتى ساندت وحبذت تأسيس كل منهما.

الثانية : أن أفكاره تلك هى التى سيتم التوسع فيها بالشرح والإيضاح، والتكرار والإلحاح فى أعماله التالية "معالم فى الطريق" وفى "ظلال القرآن" وخصائص التصور الإسلامى". فى المعالم ، يقول بيقين شديد "إن العالم يعيش اليوم كله فى جاهلية من ناحية الأصل الذى تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها، جاهلية لا تخفف منها شيئا هذه التيسيرات المادية الهائلة . وهذا الإبداع المادى الفائق. هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله فى الأرض، وعلى أخص خصائص الألوهية وهى الحاكمية" [١] . ويضيف قائلا "إنها تسند الحاكمية إلى البشر فتجعل بعضهم لبعض إربا، لا فى الصورة البدائية الساذجة التى عرفتها الجاهلية الأولى ، ولكن فى صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم والشرائع والقوانين والأنظمة بمعزل عن منهج الله للحياة . وفيما لم يأذن الله به" [٢] .

طوال الكتاب يقوم بشرح تلك الفكرة ، حالة الجاهلية والكفر التى خيّمت على المجتمع وعلى الإنسانية كلها ، ثم يضع خطة عامة للتصدى لتلك الجاهلية يقول "إنه لابد

(١)سيد قطب "معالم الطريق" دار الشروق. ط ١٩٩٨ ص١٠.

(٢)المرجع نفسه . الصفحة نفسها.

من طليعة تعزم هذه العزمة وتمضى فى الطريق.. تمضى فى "خضم الجاهلية الضاربة الأطناب في أرجاء الأرض جميعا، تمضي وهي تزاول نوعا من العزلة من جانب ونوعا من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة " [١].

وفى كتابه "خصائص التصور الإسلامى ومقوماته "نجد عناوين فصول الكتاب تشعرنا أننا بإزاء كتاب أشبه بكتب علماء الكلام فى المراحل الأولى للحضارة وللدولة الإسلامية، وكانت تلك الكتب تستهدف بالأساس الدفاع عن "العقيدة الإسلامية" فى مواجهة العقائد الأخرى التى كانت موجودة فى الجزيرة العربية والبلاد المفتوحة خاصة فى بلاد الشام وفارس. حيث كانت هناك حجج تشكك فى عقيدة التوحيد ونبوة النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد انتهت تلك المرحلة باستقرار عقيدة الإسلام ودولة المسلمين ، فانطلق العقل العربى إلى مسائل فلسفية وفكرية وفقهية أخرى ، وعودة سيد قطب إلى تلك المرحلة العقلية والفكرية ، تحمل دلالة التصور والشعور بأن التهديد القائم هو للعقيدة ذاتها، وأصول الدين، وليست مشكلة اجتماعية أو سياسية ، المهم أنه فى هذا الكتاب يكرر أيضا نفس الأفكار التى ترددت لديه منذ سنة ١٩٥٠. يقول "إن التصور الإسلامى من ثم يقوم على أساس أن هناك حالتين اثنتين للحياة البشرية ، ولا علاقة للزمان أو للمكان في تقدير قيم هاتين الحالتين ، إنما القيمة لذات كل حالة، ولوزنها فى ميزان الله الثابت ، الذى لا يتأثر بالزمان والمكان . حالتان اثنتان تتنازعان الحياة البشرية على مدى الزمان واختلاف المكان : حالة الهدى وحالة الضلال ، مهما تنوعت ألوان الضلال (...) حالة الإسلام وحالة الجاهلية، مهما تنوعت ألوان الجاهلية ، حالة الإيمان وحالة الكفر – مهما تنوعت ألوان الكفر – وإما أن يلتزم الناس الإسلام دينا (أى منهجا للحياة ونظاما) إلا فهو الكفر والجاهلية" [٢].

وإذا كانت أفكار التكفير كانت فى ذهن سيد قطب قبل أن يعتقل ويسجن ، فهل معنى هذا أن تجربة السجن بريئة تماما من تلك الحالة التى انتهى إليها؟!

الحقيقة .. لا .. فى عام ١٩٥٠ أو ١٩٥١ كانت هناك حالة سخط عامة على كل الأوضاع، وكانت فئات المجتمع ترفض ما انتهت إليه أحوال البلاد والمستوى الذى انحدر إليه الملك فاروق ، كل هذا جعل لديه حالة من التفاؤل والأمل فى التغيير والإصلاح، لذا كانت فكرة التكفير والجاهلية فكرة بين أفكار أخرى لديه ذات طبيعة اجتماعية وسياسية ،

(١)المعالم ص١١.

(٢)راجع: سيد قطب "خصائص التصور الإسلامى ومقوماته". الناشر دار الشروق ط ٩، ١٩٨٧، ص٨٤،٨٥.

لذا لم يتوقف النقاد عند فكرته تلك ، ولم ينتبهوا إلى دلالتها في المجتمع والثقافة المصرية ، رغم أنها كانت غريبة تماما على هذه الثقافة وطارئة عليها ، تحاول أن تتسلل عبر الكاتب، وحتى لو انتبهوا فقد كان سيد قطب آنذاك مجرد كاتب فقط، ولم يكن منضما إلى أى جماعة ، ولا كان زعيما لتنظيم أو مجموعة خاصة به.. أما في السجن فلم يعد يرى سوى المساجين، وتصل إليه أنباء التعذيب الذى يقع على الإخوان، كذلك لابد أن أخبار التفاف الشعب حول زعامة عبد الناصر كانت تصله ، وهنا انقطع الحوار بينه وبين الآخرين وانتهى النقاش ، وصار في حالة "مونولوج" داخلي لا يسمع غير نفسه ، ولا يرى سوى صورته ، هو الصوت والصدى ، المتحدث والمستمع، ومن يراهم هم أيضا صورة منه ، تؤكد لديه هذا المونولوج ، وهنا تراجعت كل الأفكار الأخرى وطغت فكرة وحيدة هى التكفير والجاهلية .

ولعب التكوين النفسى لشخصية سيد قطب دوره ، فقد كان يمكن لمن سمع عن التعذيب الوحشى أو رآه وعاناه أن يتحول إلى شخص يطالب بالحرية وبالديمقراطية للجميع وأن يطالب بإنهاء عهد الزنازين والتعذيب والاعتقال والقهر ، وأن يراجع أفكاره السابقة فى القضاء على الأحزاب والدستور ومطالبته بالتنظيم الواحد.. لكنه بدلا من ذلك طالب بأن تتسع الزنزانة وتشمل الجميع ، ويكون هو وحده السجان والحاكم والآمر الناهى فقد أصدر فكرته بجاهلية المجتمع كله وكفّر الجميع ، ومن ثم يستحقون الهداية وإعادة التكوين والبناء وإلا . وهى نفس العقلية ونفس المنطق ، الذى يقسّم الناس إلى وطنيين وخونة أو ثوريين ورجعيين. أو حزب الله وحزب الشيطان.. مسلمون وكفار . مؤمنون وجاهليون.

ولم يكن سيد قطب يريد حوارا حول فكرته تلك أو مناقشة لها، كان يريد التابعين والمريدين فقط ، فحين أثارت أفكاره قلق بعض قدامى الإخوان فى السجن، ابتعد عنهم ولم يناقشهم ولم يستمع إليهم ، ولكنه اتجه إلى الشباب الذى ينبهر ويسمع ولا يناقش أو يحاول ويحاور.

كانت نفسه قد امتلأت مرارة وحقدا ، ورغبة حقيقية فى الانتقام ، الانتقام من الجميع الذين سجنوه ، والذين لم يعبئوا بسجنه وهم عامة الشعب ، ويبدو أنه شعر ببلوغه مرحلة الاكتفاء الثقافى ، لذا فإننا لن نجد فى مؤلفاته الأخيرة إضافة حقيقية إلى معلوماته ومصادره فى الكتابة ، وسنجد أن الكتب التى قرأها من قبل ووردت كمراجع فى كتبه السابقة ، هى نفسها التى ترددت أصداؤها فى كتاباته بالسجن ، وربما لم تكن سبل القراءة والاطلاع على أحدث الكتب والمؤلفات متاحة أمامه.

لهذه الأسباب يمكن القول إن "معالم في الطريق" هو أضعف كتبه فكريا وأسوأها في الكتابة، إنه يضم فكرة واحدة قديمة لديه ، أخذ يلح عليها ، يكررها، يعيد ولا يزيد، شرحا وتوضيحا بلا ملل، وبأسلوب أدبي يعتمد على الاستطراد والإنشاء فقط، إنه مونولوج طويل ، يمتد حوالى ٢٠٠ صفحة، مونولوج يقطر حزنا ومرارة، وشعورا بالثأر والرغبة في الانتقام ، ولا تعرف بالضبط هل لو كان - خارج السجن، كانت نفس الأفكار ستظل لديه..؟ ربما كان وجوده في المجتمع سيفرض عليه أن يهدىء بعض الشئ من حدة هذه الأفكار ، وربما اشتبك في حوار حوله في المجتمع لتراجع أو ضعف منها "يعكس معيشته في زنزانة وفي ظروف إنسانية مهينة!!

وسوف يدهش الذين تصوروا أن أفكار سيد قطب تلك تعود إلى "أبي الحسن الندوى" ، حين يعرفون أن الندوى أصدر كتابا في تفنيد أفكار المودودى وسيد قطب ، حمل الكتاب عنوان "التفسير السياسي للإسلام . في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودى والشهيد سيد قطب"، ويقع الكتاب في ١٦٠ صفحة ، وصدرت طبعته الاولى في ديسمبر ١٩٧٨. والثانية في عام ١٩٨٠ [(١)].

يعرض الندوى لفكرة المودودى في أن الرسول - صلى الله عليه وسلم حين بعث ، فإن العرب استطاعوا فهم المصطلحات الأربعة - الإله .. الرب .. العبادة.. الدين - ثم أخذ هذا الفهم يستغلق على العرب بعد ذلك ، حتى ابتعدوا تاما عن معانيها في العصر الحاضر.. ويرى الندوى أن هذا التصور "يشكك في صلاحية هذه الأمة ومركزها القيادى والدعوى وفي فهم هذه الأمة لهذا الكتاب والعمل به في تاريخها الطويل، ويقلل من قيمة مآثر المجددين والمصلحين والمجتهدين العلمية والعملية . فإن الكتاب الذى لم يفهم حق الفهم في أطول مدة وأخصبها علما وعملا وكفاحا، يشاهد في إبانته ووضوحه وإفادته، ويشكك في كل ما يقال عنه ويضرب في هذا العصر وبعد ذلك يفتح الباب للتوسع في تأويله على مصراعيه - كما فعلت الباطنية ويشجع المحاولات التى ترمى إلى تحويل الحقائق الدينية إلى لغز مستعص على الفهم والإدراك [(٢)]".

ويرى الندوى أيضا أن "هذه الفكرة تخالف الحقيقة العلمية ، والعقيدة الدينية، وهي أن هذه الأمة لم تتلق الدين في صورة الكتاب فحسب ، بل ظل تنتقل الكلمات والمعاني والمفاهيم من جيل إلى جيل.. (..) فضلا عن أن ينافي وصف الله تعالى لهذا الكتاب بالإبانة

---

(١)صدرت هذه الطبعة عن "دار آفاق الغد" بالقاهرة.

(٢)المرجع السابق . ص ٣٤.

والوضوح فى غير ما موضع من القرآن : جاء فى مستهل سورة يوسف.

"آلر، تلك آيات الكتاب المبين ، إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون" (سورة يوسف:١-٢) [١].

وعن تأثر سيد قطب بالمودودى يقول الندوى "أعجب .. إعجابا شديدا بكتاب الأستاذ المودودى "المصطلحات الأربعة فى القرآن " ووافقه كل الموافقة فى الآراء والأفكار التى يتضمنها ، وقد جعل :"الحاكمية" أخص خصائص الألوهية ، وكتاباته تقلل من شناعة عبادة الأصنام والأوثان وعبادة غير الله فى الجاهلية ، لأنه يعتبرها صورة ساذجة بدائية للجاهلية الأولى" [٢].

ويفنّد الندوى مقولات المودودى وقطب فى الحاكمية قائلا "كأن الدعوة إلى الإيمان بحاكمية الإله والإذعان لسلطته العليا وصوغ الحياة فى قالب متطلباتها كان هدف النبوة الأساسي، ومقصد بعثة الأنبياء وأساس دعوتهم وغاية نزول الكتب والصحف السماوية كلها [٣]". ويضيف الندوى قائلا".. الواقع أن صلة الخالق والمخلوق والعبد والمعبود هى أشمل وأوسع، وأعمق وأدق ، بكثير وكثير من صلة الحاكم والمحكوم والآمر والمأمور ، والسلطان والرعية ، وقد لهج القرآن الكريم بذكر أسماء الله وصفاته فى بسط وتفصيل وأسلوب شيق جميل لايدلان على أن المطلوب من العبد هو الإيمان بمجرد حاكميته المطلقة والإذعان لسلطته العليا، وألا يشرك آخرين معه فى سلطته [٤]".

ويواصل الندوى ردوده قائلا "الذين حصروا صفات الله وحقوقه فى حق الحاكمية والسلطة العليا وحده ورأوه أصل الحقوق الإلهية ، وأول المطالب الربانية ، أخاف أن يكون قد صدق عليهم قول الرب تبارك وتعالى "وما قدروا الله حق قدره" [٥].

ويرى الندوى أن "[٦] الوثنية – فى دائرة ما بعد الطبيعة – بجميع أشكالها الواضحة والدقيقة كانت موضوع جهاد الأنبياء فى كل عصورهم وفى جميع بيئاتهم ومجتمعاتهم ،

---

(١)المرجع السابق . ص٣٦ – ٣٧.

(٢)المرجع السابق. ص ٦٨.

(٣)المرجع السابق . ص٧٨.

(٤)المرجع السابق. ص٧٨.

(٥)المرجع السابق. ص٧٩.

(٦)المرجع السابق. ص٩٢.

وهو الذى أثار غضب أهل الجاهلية فقالوا: "أجعل الإلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشيء يراد ، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة . إن هذا إلا اختلاق" [صورة ص، الآيات ٥، ٦، ٧].. ويقول أيضا "لا يزال هذا هو الركن الأساسى فى الدعوات الدينية وحركات الإصلاح إلى يوم القيامة ، وهو تراث النبوة الخالد "وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون" - سورة الزخرف الآية ٢٨- وشعار جميع الدعاة إلى الله وجميع المصلحين المجاهدين" [١].

ويرى الندوى أن ".. هذه النظرية ، نظرية أن مظاهر الشرك الجلى، من خصائص الجاهلية الأولى الساذجة [٢] ، إساءة إلى دعوة الأنبياء وجهودهم ، وشك فى خلود القرآن، وأنه هو الكتاب الأخير الدائم ، ولا شك فى أن منهاج النبوة هو المنهاج الصحيح الذى ارتضاه الله تعالى، والذى كتب له من النجاح والتوفيق والإنتاج والإثمار ما لم يكتب لأى منهاج من مناهج الإصلاح"[٣] .

وقام الكاتب الإسلامى د. محمد عمارة بتفنيد أفكار المودودى وسيد قطب وبهدوء شديد يقول د. عمارة "إن الكثيرين من قراء المودودى ومريديه - ومنهم سيد قطب - قد عزلوا النصوص عن ملابساتها ، فنظروا إليها كدين ، أو على الأقل نظريات إسلامية عامة، ولم ينظروا إليها كفكر سياسى إسلامى صيغ لملابسات متميزة وخاصة .. وساعدهم على ذلك أن الرجل لم يقدم مقولاته باعتبارها الرؤية الإسلامية لمناضل مسلم فى بيئة محددة ، وإنما قدمها باعتبارها : الإسلام ، ثم إن هؤلاء القراء والمريدين لم يلحظوا أن الرجل قد غير آراءه فى الموضوع الواحد عندما تبدلت الظروف والملابسات" [٤] .

ويتعرض د. عمارة لدفاع أنصار المودودى عنه، ومطالبتهم بالتمييز بين آراء وأفكار المودودى وآراء وأفكار سيد قطب".. فهم ينحون بالملائمة على سيد قطب الذى جرد مقولات المودودى من ملابساتها الهندية الخاصة ، ووظفها فى المناخ العربى الإسلامى المغاير.. بل وتصاعد ببعض هذه المقولات غلوا وتطرفا .. فلقد رفض القومية بعامة، على حين كان رفض المودودى للقومية السياسية التى أسس عليها حزب المؤتمر الهندى دعوته لوحدة الهند، ولم يرفض القومية الحضارية، بل دعا إلى مستقبل للهند مؤسس على تمايز

(١)الندوى .. المرجع السابق. ص٩٣.

(٢)"الجاهلية الأولى الساذجة" تعبير سيد فى المعالم.

(٣)أبو الحسن الندوى "التفسير السياسى للإسلام". ص٩٤.

(٤)الهلال - عدد سبتمبر ٨٦، ص٧١ د. محمد عمارة "من أمراض الصحوة الإسلامية".

قوميتها الحضارية .. ومثل ذلك الموقف من مقولة "التكفير" فعلى حين وقف المودودى بحكم "التكفير" عند الدولة وكانت استعمارية - هندوكية - وعند حدود المجتمع، وكانت أغلبيته غير مسلمة والسيادة فيه للقيم غير الإسلامية وجدنا سيد قطب يحكم بالكفر على الأمة باستثناء التنظيم الذى اتخذ كتابه "معالم فى الطريق دليلا ومنهاجا" [1]. ومن دراسة د. عمارة ندرك أن أفكار المودودى عن التكفير قد ظهرت سنة ٤٩ بين الإخوان أثناء تجربة السجن الأولى [2].

وإذا كان أبو الحسن الندوى قد قدم نقداً دينيا وعقليا خالصا لأفكار المودودى وقطب وقام د. عمارة بالتمييز بين فكر الاثنين، معتبرا أن فكر المودودى كانت له ملابساته الهندية الخاصة ، وهذا ما لم ينتبه إليه سيد قطب ، فإن د. يوسف القرضاوى [3]، بعد شهرين من دراسة د. محمد عمارة ، قدم نقدا لفكر سيد قطب ، مؤكدا على مجافاة هذا الفكر للواقع المصرى والعربى المعاصر.

يقول الشيخ القرضاوى فى "ملاحظات وتعقيبات على آراء الشهيد سيد قطب" [4]. إن المجتمع الذى نعيش فيه الآن ليس شبيها بمجتمع مكة الذى واجهه النبى صلى الله عليه وسلم حين نشأة الدعوة الإسلامية الأولى ، ذلك كان مجتمعا جاهليا صرفا، أعنى مجتمعا وثنيا كافرا، لا يؤمن بـ "لا إله إلا الله ولا بأن محمد رسول الله" ويقول عن القرآن إنه سحر أو افتراء وأساطير الأولية". ويضيف قائلا "أما مجتمعنا القائم فى بلاد المسلمين، فهو مجتمع خليط من الإسلام والجاهلية ، فيه عناصر إسلامية أصيلة ، وعناصر جاهلية دخيلة". ويرى د. القرضاوى أن "الجماهير الغفيرة تكون أكثرية الأمة الساحقة، ملتزمة بالإسلام وجل أفرادها متدينون تدينا فرديا يؤدون الشعائر المفروضة ، وقد يقصرون فى بعضها ، وقد يرتكب بعضهم المعاصى . ولكنهم فى الجملة يخافون الله تعالى ، ويحبون التوبة ويتأثرون بالموعظة ويحترمون القرآن ويحبون الرسول إلى غير ذلك مما يدل على صحة أصول العقيدة لديهم".

وينتهى د. القرضاوى إلى أنه "من الإسراف والمجازفة الحكم على هؤلاء جميعا بأنهم

---

(١) د. محمد عمارة الدراسة السابقة بالهلال - سبتمبر ٨٦.

(٢) فى أعقاب قيام التنظيم الخاص بالإخوان باغتيال رئيس وزراء مصر محمود فهمى النقراشى (باشا) قام خلفه على عبد الهادى (باشا) بإلقاء القبض على عدد كبير من الإخوان وأودعوا السجون سنة ٤٩.

(٣) نشر د. يوسف القرضاوى دراسة عند فكر سيد قطب فى جريدة الشعب أعداد ١١ و١٨ و٢٥ نوفمبر ٨٦.

(٤) جريدة الشعب عدد ٨٦/١١/١١.

جاهليون كأهل مكة الذين واجههم الرسول صلى الله عليه وسلم فى فجر دعوة الإسلام"[١] .

كان القرضاوى قد اطلع على كتاب أبى الحسن الندوى فى انتقاد المودودى وسيد قطب حين صدوره وبعث إلى الندوى برسالة جاء فيها "أنا لا أنكر أن ينتقد العلامة المودودى أو السيد قطب الشهيد، فلا عصمة لغير رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل واحد بعد ذلك يؤخذ من كلامه ويترك" [٢] . ويعترض القرضاوى على عنوان الكتاب لسبب غريب "كنت أود أن يكون عنوانه غير هذا العنوان الذى يحمل إيحاء خاصا، وقد يستغله بعض العلمانيين استغلالا سيئا" [٣] .

وموقفه فى هذا الرسالة يجعل الخوف من موقف الخصوم الفكريين معولا لعدم إعلان الحقيقة ، وبصراحة ، لكن الندوى كان الأشجع أمام نفسه وأمام دينه فأعلنها مبكرا، وربما ليبرئ نفسه من تهمة هذه الأفكار ، ولعل د. القرضاوى قد انتبه بعد تفاقم الأحداث فى مصر وبروز مخاطر أفكار سيد قطب إلى ضرورة إعلان انتقاداته له.

ويرى طارق البشرى أن فكر سيد قطب يتسم بالغلو، وأنه "بدأ بمقولة – صحيحة لا ينكرها مسلم ، وهى أن الحكم لله وحده، ولكنه استخلص من ذلك أن كل تشريع وأى قانون نضعه إنما يتضمن معنى الشرك با لله سبحانه وهو مسلك الجاهلية لذلك فقد اعتبر دعوته إنما هى لإنشاء الدين إنشاء. فهى دعوة لاعتناق عقيدة الإسلام حتى لو كان هؤلاء الناس يدعون أنفسهم مسلمين" [٤]. ويرى المستشار البشرى أن هذه الدعوة والفكرة من شأنها تكوين "كتائب للصدام من المؤمنين به" [٥] . وهو ما تحقق وحدث فى مصر منذ تنظيم شكرى مصطفى واغتيال الشيخ الذهبى مرورا بكل الحوادث الإرهابية فى الثمانينات والتسعينات .

ودخل سيد قطب التاريخ باعتباره الرائد الأول والمؤسس لأفكار الجاهلية والتكفير فى مصر، لقد كانت مصر بريئة طوال تاريخها الإسلامي من هذه الأفكار، وعرفت بعض

---

(١)د. يوسف القرضاوى. جريدة الشعب عدد ٨٦/١١/١١، وأيضا عدد ٨٦/١١/١٨ .

(٢)أبو الحسن الندوى : رسائل الأعلام ، صفحة ٨٧، ٨٨، دار الصحوة سنة ١٩٨٥.

(٣)المرجع السابق ، صفحة ٨٧، ٨٨، دار الصحوة سنة ١٩٨٥.

(٤)طارق البشرى "الملامح العامة للفكر السياسى الإسلامى فى التاريخ المعاصر". الناشر دار الشروق. ط-١ ١٩٩٦. صفحة ٣٢.

(٥)المرجع السابق. صفحة ٢٨.

المجتمعات العربية الخوارج وغيرها من الفرق الصغيرة التى تكفّر ما عداها وتذبح خصومها والمختلفين معها، ولفظت مصر دائما مثل هذه الفرق.. وكانت نموذجا لتسامح الإسلام وتحضره ، إلى أن هلَّ علينا سيد قطب بأفكار الحاكمية والجاهلية ، ووضع لها نظرية وجدت المعجبين والمريدين والأخطر أنها وجدت من جعلها منهاجاً للانتقام من المجتمع كله.

❖


TOBGY
PRESS
TEL:3562364
شركة مطابع الطوبجي التجارية

سيد قطب
وثورة يوليو

هذا الكتاب

«ينبغى ألا نبحث عن سند فى دستور انتهى أمره بل أن نبحث عنه فى منطق الحوادث، بغض النظر عما إذا كان الدستور يقره أو لا يقره».

«المثل التى تعرضها قيادة الثورة فى هذه الأيام مثل نادرة فى تاريخ البشرية كلها ؟ مثل لم تقع إلا فى مطالع النبوات».

«ما كانت ثورة الجيش الأخيرة إلا التعبير المباشر عن الكفاح ضد الوفد والأحزاب القديمة».

«واجبنا حماية الجماهير من الأصوات التى تحبها كما نحميها من المخدرات».

«لأن نظلم عشرة أو عشرين من المتهمين خير من أن ندع الثورة كلها تذبل وتموت».

فلنضرب. لنضرب بقوة ولنضرب بسرعة أما الشعب فعليه أن يحفر القبور ويهيل التراب.

هذه بعض كلمات وأفكار سيد قطب فى شهرى أغسطس وسبتمبر ١٩٥٢، حين كان متوحداً مع الضباط الأحرار، ثم ما لبث أن أنقلب عليهم وانقلبوا عليه، وتحولت العلاقة بينهما إلى العداء والتربص وكان أن اعتقل فى يناير ١٩٥٤ وأفرج عنه بعد شهرين إبان أزمة مارس ليحاكم بعد حادث المنشية ويظل فى السجن حتى مايو ١٩٦٤، ويعود سجيناً ثانية فى ١٩٦٥ ويعدم فى العام التالى مباشرة.

خلال تلك السنوات كان قد طور أفكاره التى ظهرت لديه أول مرة فى العام ١٩٥٠ حول الحاكمية والجاهلية والتكفير، وجعلها هى كل أفكاره ويصبح بذلك «رائد التكفير فى مصر».

الناشــر

ميريت